

مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري

شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى

ت ٧٤٩هـ - ١٣٤٩م

الجزء الثالث والعشرون

القسم الأول

الملل والنحل وقصص الأنبياء وسيرة الرسول ﷺ

تحقيق

أ. د. محمد عبد القادر خريسات

د. عصام مصطفى عقلة   د. يوسف أحمد بني ياسين



مركز زايد للتراث والتاريخ




مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

رقم التصنيف : ديوي 81116، الشعراء العرب ـ العرب ـ الأندلس ـ المغرب
المؤلف ومن هو في حكمه : ابن فضل الله العمري شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٩م
تحقيق : أ د. محمد عبد القادر خريسات - د. عصام مصطفى عقله - د. يوسف أحمد بني ياسين
عنوان الكتاب : الجزء الثالث والعشرون - القسم الأول - الملل والنحل وقصص الأنبياء وسيرة الرسول ﷺ
الموضوع الرئيس : كتاب مختص بالأديان والفرق الإسلامية وتاريخ الأنبياء وفيه معلومات عن حدوث العالم، ووجود الخالق
قيد الكتاب : تم قيد الكتاب بوزارة الاقتصاد مكتب المصنفات الفكرية رقم (٧٩ - ٢٠٠٨م)
الناشر : مركز زايد للتراث والتاريخ - العين - دولة الإمارات العربية المتحدة - ص.ب: ٢٣٨٨٨
ملتزم الطبع : دار البارودي ـ أبو ظبي ص.ب ٤٢٨٦٠
توصيف الكتاب : مقاس ١٧ × ٢٤، عدد الصفحات ٣٠٤ صفحة
الرقم الدولي : ISBN 9948-06-159-4

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م



مركز زايد للتراث والتاريخ

ZAYED CENTER FOR HERITAGE AND HISTORY

ص. ب. ٢٣٨٨٨ العين - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٧٦١٥١٦٦ - ٣ - ٩٧١ - فاكس: ٧٦١٥١٧٧ - ٣ - ٩٧١

P.O. BOX: 23888 AL AIN - U. A. E. - TEL: 971 - 3 - 7615166, - FAX: 971 - 3 - 7615177

E-mail: zc4HH@zayedcenter.org.AE





كلمة المركز

يسر مركز زايد للتراث والتاريخ أن يقدم للقراء العرب، وبخاصة المهتمين بالتراث العربي الإسلامي، واحداً من أضخم الأعمال الموسوعية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية عبر عصورها، ألا وهو كتاب «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**» لأحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ ـ ١٣٤٩م).

وقد تبنى المركز نشر هذه الموسوعة بتوجيهات كريمة من **سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء، حيث حرص سموه على الاعتناء بالتراث العربي المخطوط ونشره ليكون في متناول أيدي الباحثين والمختصين لذلك تأتي هذه الموسوعة التاريخية الهامة ضمن خطة المركز الطموحة لنشر التراث العربي الأصيل وتقريبه للقارىء العربي وخدمته.**

وقد اعتمد المركز نشر الكتاب من خلال خطة تقوم على الحفاظ بداية على تجزئة الكتاب كما أراده المؤلف وسيكون بعون الله في ٢٨ مجلداً تتبعها الفهارس العامة للكتاب ولما كانت الموسوعة بهذه الضخامة والأهمية فقد قام المركز بتكليف أساتذة أكاديميين من ذوي الخبرة بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات لتحقيق الكتاب وجمع مخطوطاته لمقارنتها مع بعضها بعضاً للوصول إلى أكمل نسخة من الكتاب، وكذلك فلا بد من تقديمها مع دراسة تجلي الجوانب المختلفة من حياة مؤلفها، وتبين أهمية الكتاب ومنهج المؤلف وأسلوبه مع دراسة كاملة لمخطوطات الموسوعة المستخدمة في التحقيق التي ستكون بعون الله في المجلد الأول حيث لا يمكن إنجاز هذه الدراسة إلا بعد استكمال تحقيق أجزاء الكتاب كاملة.

والمركز إذ يقدم هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية الأدبية فإنه يأمل بذلك أن

يكون قد خدم المكتبة العربية بهذا المرجع الضخم، وأن يقع من نفوس القراء والباحثين الموقع الحسن، نسأل الله أن يوفقنا إلى خدمة تراثنا وتاريخنا رمز حضارتنا العربية والإسلامية، ومبعث افتخارنا واعتزازنا.

والله ولي التوفيق

د. حسن محمد النابودة

مدير المركز

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لقد تمكنا بحمد الله وعونه من تحقيق الجزء الثالث والعشرين/القسم الأول من أجزاء موسوعة ابن فضل الله العمري الموسومة بـ«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» في إطار مشروعنا لتحقيق جميع أجزاء الموسوعة كاملة التي تمكنا لوقتنا هذا من إنجاز ثلاثة عشر جزءاً منها، التزمنا فيها تجزئة ابن فضل الله العمري لموسوعته وإن اضطررنا في أحيان قليلة لتجزئة الجزء الواحد إلى جزئين بسبب ضخامته، فأبقينا رقم الجزء وأضفنا إليه القسم الأول/القسم الثاني وهكذا، وهذا ما حدث في هذا الجزء.

وقد اعتمدنا في تحقيق هذا الجزء وهو مختص بالأديان والفِرق الإسلامية وتاريخ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم على ثلاث مخطوطات:

١ ـ نسخة فؤاد سزكين التي نشرها بالتصوير الشمسي وصدرت عن معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت، ألمانيا، سنة ١٩٨٩م، وهي نسخة مصورة عن نسخة مكتبة أحمد الثالث في طوبقابي سراي، استانبول تحت رقم (١٤/٢٧٩٧)، وقد رمزنا لها بالحرف (ت) وهي النسخة التي اعتمدنا ترقيمها في التحقيق، وتمتاز هذه النسخة بأنها مكتملة، وخطها واضح، وهي مشكولة الكلمات، غير أن بها بعض الكلمات الساقطة، وبعض الأخطاء في رسم بعض الكلمات بيناها في ثنايا التحقيق.

٢ ـ نسخة الكونغرس الأمريكي ذات الرقم (٣٤٣٥)، واعتمدنا على صورة عنها محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية تحت رقم (١٠٦٢)، وقد رمزنا لها بالحرف (ك)، وهي نسخة كاملة، خطها نسخي عادي، تمتاز بأنها خالية تقريباً من الأخطاء الإملائية والسقط، وهذه النسخة جزء من النسخة الأيوبية التي نسخت لمحمد بن علي بن عيسى بن داود بن شيركوه بن

محمد بن شيركوه بن شاذي سنة ٧٦١هـ، وهي بالتالي قريبة جداً من عهد المصنف، وهي ضمن وقف المقر الأشرفي محمود أستاذ دار الملك الظاهر برقوق، التي أوقفها على مدرسته في القاهرة وذلك سنة ٧٧٧هـ.

٣ ـ نسخة المكتبة الوطنية في باريس، ذات الرقم (٢٣٢٩/عربي) والمحفوظ صورة عنها في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية تحت رقم (٤٧٠) وقد رمزنا لها بالحرف (ب) وهذه النسخة ساقطة الأول بمقدار كبير حيث تبدأ من حدوث الكون، بقوله «وأما الشرعيون فإنهم أجمعوا على حدوث العالم» وجاء قبلها تسع ورقات ونصف مختلطة بها هي قسم من الجزء الثاني والعشرين من المسالك، اختلطت على مرتب الأوراق في مكتبة باريس فأدخلها ضمن النسخة، وهذه النسخة متأخرة عن النسختين السابقتين في الزمان، فالتمليكات التي عليها يظهر فيها تواريخ ٩١٨هـ و ١٠١٣هـ، وخطها مشرقي، جميل جداً، تمتاز بشكل الكلمات، ووضع عناوين واضحة لأجزائها الداخلية.

ويحتوي هذا الجزء على معلومات قيمة عن حدوث العالم، ووجود الخالق، وتفنيد آراء غير المسلمين في هذه القضايا، ثم الحديث عن أهم الأديان في العالم من حيث تعاليم تلك الأديان، وكتبها المقدسة، وأعيادها، وتاريخ ظهورها، ثم تفنيد آرائها على أصول المسلمين ولذلك تناول الأديان السماوية اليهودية والمسيحية، وتناول غيرها من الأديان مثل المجوسية، والصابئة، والبراهمة، والمزدكية، والمانوية.

ثم تطرق للحديث عن الفرق الإسلامية، فتناول المرجئة، والمعتزلة، والخوارج، والشيعة متحدثاً عن المبادئ الأساسية للفرقة ثم أهم الفرق الداخلية لها ثم يتحدث عن أهم الردود عليها ضمن منهاج أهل السنة والجماعة، معتمداً بذلك على القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وسيرة الرسول ﷺ وآله وسلم، ثم أقوال الصحابة، وأئمة أهل السنة.

ثم تطرق للفرقة الناجية «أهل السنة والجماعة» عارضاً لأهم مبادئهم وآرائهم في صفات الله وأصولهم في الدين، ورأيهم في الجنة والنار، ومرتكب الكبيرة، وموقفهم من

الصحابة، معتمداً في ذلك على ابن تيمية في كتابيه منهاج السنة والفتاوى الكبرى.

وهو في استعراضه لمادة الفرق الإسلامية لم يخرج عن منهاج كُتَّاب الفرق الإسلامية السابقين له من حيث الالتزام بحديث وجود ثلاث وسبعين فرقة إسلامية كلها في النار إلَّا واحدة، وكونه شافعي المذهب، فقد تبنى أن الفرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة مستنداً إلى القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة في إثبات ذلك.

ثم تطرق للحديث عن حدوث العالم والبراهين على حدوثه المنطقية العقلية، والشرعية النقلية، وتطرق بعدها للحديث على البلدان وتغير أحوالها بتغير الزمان من حيث دثور بعضها، واستحداث بعضها الآخر، وارتفاع مدينة ثم انخفاضها عبر الزمان، كما تحدث عن السكان وأنه في وقته لا يستطيع أحد إثبات أصله الجغرافي من إقليم معين مدللاً على ذلك بما حدث في غزو المغول للعالم الإسلامي وما رافق هذا الغزو من هجرات ضخمة للسكان باتجاه أقاليم أكثر أمناً وخصوصاً مصر ثم تناسى أولئك المهاجرون أصولهم الجغرافية ولم ينتسبوا إلَّا لمصر، كما دلل على المسألة من خلال بعض أمراء المماليك الذين تعود أصولهم للعرب، وبعض زعماء القبائل العربية التي تعود أصولهم للعجم من مثل آل فضل أمراء طيء الذين يعود أصلهم إلى البرامكة.

ثم تحدث عن الأنبياء واحداً تلو الآخر من لدن آدم عليه السلام وحتى شعيب عليه السلام، متبعاً منهجاً يعتمد على تقسيم الأنبياء إلى أنبياء بني إسرائيل الذين أوردهم أولاً وأضاف معهم ملوك بني إسرائيل من خلفاء سليمان عليه السلام، ثم الحديث عن أنبياء العرب مثل هود، وصالح، وشعيب وبه ينتهي القسم الأول من الجزء الثالث والعشرين. وهو وإن قدم أنبياء بني إسرائيل في حديثه فهو ينهي حديثه بتفضيل بني إسماعيل عليهم بقوله «ومن ولده (إسماعيل) سيد ولد آدم خاتم الأنبياء سيدنا ونبينا محمد ﷺ، فكفى ولد إسماعيل به فخراً على الأمم وذكراً ... ولو عدت بنو إسرائيل ما عدت فضلها بنو إسماعيل بمولد سيدنا محمد الأولين والآخرين ... وفي العرب أنبياء كرام وملوك عظام».

وقد اعتمد ابن فضل الله العمري على المصادر السابقة له في تدوين أحداثه غير أنه أضاف إليها معلومات شفوية من رواة عاصرهم، ومشاهداته الخاصة، من مثل حديثه

عن قبر مريم عليها السلام ثم استطراده في الحديث لينقل أنه زاره وأن سكانه في عصره من الأكراد المسمون بالطورية، وكذلك حديثه عن مدائن صالح حيث يذكر أنه شاهدها وزارها ـ على الأرجح أثناء حجه ـ وقدم وصفاً لبيوتها المنحوتة من الحجر ولحجم القبور فيها، ناقداً بذلك الروايات التاريخية التي تزعم أنهم من العماليق بناءاً على مشاهدته الشخصية، مقدراً أطوالهم بأنه تماثل أطوال البشر العاديين.

كما اعتمد على بعض الرواة المعاصرين له ممن زار مناطق لم يزرها في إعطاء بعض المعلومات عن تلك المناطق، ومن الأمثلة على ذلك ما نقله عن الأمير محمد بن جنكلي عن حوران والمصانع والآثار التي بها مما يدل على أنها كانت مسكونة عامرة في زمن سابق.

كما يقدم معلومات قيمة عن عصره من مشاهداته الخاصة للأماكن المقدسة المسيحية مثل حديثه عن قبر مريم عليها السلام وأنه رأى البناء وأحكام عقوده ووصفه بأنه من محاسن الأبنية وأنه بنى عليه مسجد في عهد صلاح الدين الأيوبي، كما يقدم معلومات جيدة عن عمليات توطين السكان الجدد بعد تحرير القدس من قبل صلاح الدين الأيوبي من مثل توطين الأكراد في قرية الطور بالقدس.

ولم يستسلم ابن فضل الله العمري للروايات التي ينقلها وخصوصاً المتعلقة بالأنبياء عليهم السلام، وخصوصاً تلك التي تدخل في باب الإسرائيليات، فكان دائم التأكيد على أنه يوردها لضرورة تقديم معلومات متنوعة عن الأنبياء، غير أنه لا يؤكد صحتها بل يشك فيها وأنها من وضع القصاص أو أحبار بني إسرائيل من مثله قوله أثناء حديث عن النبي داود عليه السلام «وحكى جهلة القصاص أنه عرض له من فتنة تلك المرأة ما عرض وحاشاه» ومن مثل قوله أثناء حديثه عن النبي سليمان عليه السلام «قال القصاص ونحن نخليه ولا نصدقه».

ويحاول في كثير من الأحيان الترجيح بين الروايات المتضاربة وخصوصاً فيما يتعلق بموضع قبور الأنبياء، فيقول مثلاً عن قبر السيدة مريم عليها السلام أن قبرها في الطور شرقي القدس، وأن بعض الناس يقولون أنه قبر أم مريم عليها السلام ثم يقول نقلاً عن صلاح الدين العلائي

مدرس المدرسة الصلاحية بالطور حيث القبر أن النصارى يزورون القبر كثيراً ويقولون أنه قبر أم مريم، وأن قبر مريم بالوادي ولا تشك النصارى في ذلك.

وقد اعتمد ابن فضل الله العمري على مصادر متعددة لتغطية هذه المادة الواسعة فاعتمد على القرآن، وكتب الحديث النبوي من مثل الصحيحان، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن الترمذي، وأبي داود، والنَّسائي، وابن ماجة، ومستدرك الحاكم، وتهذيب الآثار للطبري كما اعتمد على كتب المحدثين والفقهاء من مثل كتاب الأم للشافعي، وكتاب الصلاة للمروزي، وكتاب السنة للخلال، وكتاب الإبانة لابن بطة العكبري، وكتاب اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة، وكتب الفرق الإسلامية مثل الفصل لابن حزم، والفرق بين الفرق للبغدادي، ومقالات الإسلاميين للأشعري، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني، وكتاب الشامل للجويني، وكتب الإسفراييني، والفخر الرازي، وكتب ابن تيمية، منهاج السنة، والفتاوى الكبرى.

كما اعتمد على كتب التاريخ والجغرافية من مثل كتاب المختصر لأبي الفداء، وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر معتمداً على مختصره لأبي شامة المقدسي، وكتاب الشاهنامة للفردوسي، وكتاب المسالك والممالك للبكري، وكتب ابن سعيد المغربي، وكتاب الكمائم للبيهقي.

واعتمد على الكتب المقدسة في أخبار بني إسرائيل وعيسى عليه السلام فقد اعتمد على أسفار التوراة وبكثرة في أخبار أنبياء بني إسرائيل وملوكهم وإن لم يصرح بالنقل، كما اعتمد على الأناجيل في ذكر مبادئ المسيحية وتضاربها وأخبار سيدنا عيسى عليه السلام.

ومن الملاحظات على منهجه في اختيار مصادره تقسيمه لمصادره في المادة المطلوب تدوينها فحين أراد مناقشة المسيحية واليهودية وعرض آرائهم الرئيسة ومناقشة آراء الفلاسفة والدهريين اعتمد على مادة ابن حزم في الفصل، وفي الفرق الإسلامية اعتمد على أكثر من مصدر مثل البغدادي، والشهرستاني، والأشعري، وابن تيمية، والطبري وغيرهم.

وقد استطاع ابن فضل الله العمري الحفاظ على مادة أصلية لكثير من المصادر المفقودة الآن أو المفقود أجزاء منها في وقتنا هذا، ولعل من الأمثلة عليها كتاب روزنها والفارسي وكتاب الكمائم للبيهقي، وكتاب الشامل الذي وصلنا ناقصاً واعتمد العمري على المادة المفقودة منه الآن مما يجعل له قيمة عالية في هذه المسألة.

وأخيراً فقد بذلنا جهدنا في إخراج هذا الكتاب بصورة علمية دقيقة حسب المناهج العلمية للتحقيق، فقد قمنا بمقارنة النسخ بعضها بعضاً، وتثبيت القراءة الأصح، وإثباب الفروق في الحاشية، كما قمنا بتخريج النصوص من مصادرها التي أوردها ابن فضل الله العمري.

المحققون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

على الله توكلت[1]

النوع الثاني في الكلام على الديانات:

وهي ست نحل، وأربع ملل، وإنما قدمنا الكلام في هذا النوع على الكلام على طوائف المتدينين لأنه كالتعريف لأنواع البشر، وأكثر ما اعتمدنا فيه على قول الإمام المتبحر، أبي محمد علي بن أحمد بن حزم[2]، لأنه أجمع من ألَّف في ذلك، ومصنّفه فيه الغاية، وإن كان تعسف البحث في مواضع منه ووقف مع الظاهر في آخر، والآراء في الديانات والمعتقدات لا تكاد تحصى، ولا تقدر أنها تحصر، ومرجعها كلها على ما ذكر إلى ست نحل وأربع ملل.

فأما النحل الست:

فقال أبو محمد[3]: رؤوس الفرق المخالفة لدين الإسلام ست، ثم تتفرق كل فرقة من هذه الفرق على فرق، ثم رتبها على البعد عن أهل الحق، فقال:

أولها في البعد عنا مبطلوا الحقائق: وهم السوفسطائية وهم ثلاثة أصناف.

ثم القائلون بإثبات الحقائق، إلا أنهم قالوا: إنَّ العالم لم يزل وإنه لا محدث له ولا مدبر.

---

(١) «بسم الله ... توكلت» ساقطة من ت.

(٢) إشارة إلى مصنفه الفصل في الملل والأهواء والنحل، والكتاب منشور بتحقيق محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عمرة، ونشرته مكتبة الجيل، بيروت.

(٣) ابن حزم، الفصل: ١/٣٦-٣٧.

ثم القائلون بإثبات الحقائق، وأن العالم لم يزل، وأن له مدبراً لم يزل.

ثم القائلون بإثبات الحقائق، واختلفوا، فقال بعضهم: إن العالم لم يزل. وقال بعضهم: إن العالم مُحدث، واتفقوا على أن له مدبِّرين لم يزالوا، وإنهم أكثر من واحد، واختلفوا في عددهم.

ثم القائلون بإثبات الحقائق، وأن العالم محدث، وأن له خالقاً واحداً لم يزل، وأبطلوا النبوات كلها[٢].

ثم القائلون بإثبات الحقائق، وأن العالم مُحدث، وأن له خالقاً واحداً لم يزل، وأثبتوا النبوات، إلَّا أنهم خالفوا في بعضها، فأقروا ببعض الأنبياء وأنكروا بعضهم.

قال أبو محمد[١]: وقد تحدث في خلال هذه الأقوال آراء هي منتجة من هذه الرؤوس ومركبة منها. فمنها ما قالت به طوائف من الناس مثل ما ذهبت إليه فرق من الأمم، من القول بتناسخ الأرواح، أو القول بتواتر النبوات في كل وقت، أو أنَّ في كل نوع من أنواع الحيوانات أنبياء مثل قول بعضهم إن العالم محدث وإن له مدبراً لم يزل، إلَّا أن النفس والمكان المطلق وهو الخلاء والزمان المطلق لم يزل معه.

ومثل قول بعضهم: إن الفلك لم يزل، وأنه غير الله عز وجل، وأنه هو المدبر للعالم الفاعل له إجلالاً بزعمهم لله تعالى عن أن يوصف بأنه فعل شيئاً. وقد كنى بعضهم عن ذلك بالعرش.

وأما الملل الأربع:

فالمجوسية، ثم اليهودية، ثم النصرانية، ثم الملة الحنيفية الغراء، ملة الإسلام، وتباع خاتم الأنبياء، وإمام المرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد ذكر أبو محمد جميعها في كتابه الجامع للملل والنحل على اختلاف فرقها، ووضوح صحيحها ومختلفها، وزيف أقوال أهل النحل وحاج أهل الملل، وخاصم[٢]

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٣٧-٣٨.

(٢) ساقطة من ت.

وخصم من يجادل في الله بغير هدى ولا كتاب منير، وبين أكاذيب اليهود والنصارى فيما بأيديهم من الكتب المبدلة من التوراة[1] والإنجيل التي سموها بأسمائها، وبدلوها في الأرض بخلاف ما نزلت من سمائها.

وعدَّ المجوس أهل ملة وكتاب بدليل حديث ورد، ومذهب طائفة من الصحابة كانوا عليه. وأظهر خللهم في الكتاب الذي زعموا أنَّ زرادشت جاءهم به.

واليهود، خمس فرق وهم: السامرة، والصدوقية، والغانانية[2]، والربانية، والعيسوية.

والنصارى، ست طوائف: أريوسيون، وملكيون[3]، ونسطوريون[٣] ويعاقبة، ومارونيون وبولقانيون.

وأما هذه الأمة فافترقت بعد نبيها ﷺ على فرق كثيرة، واختلفوا في حصر هذا الاختلاف على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قال أبو محمد بن حزم[4]: فرق المقرين بملة الإسلام خمسة وهي: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج. ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق.

وقال جعفر بن حميد: قلت لعبد الله بن المبارك: على كم افترقت هذه الأمة؟ قال: أهل[5] الأصل أربعة فرق: الشيعة، والحرورية[6]، والقدرية، والمرجئة.

فالشيعة ثلاثة وعشرون، والحرورية إحدى وعشرون، والقدرية ستة عشر، والمرجئة ثلاثة عشر. وهذا ذكرناه على سبيل الإجمال، وأما من حيث التفصيل ففيه فصول.

---

(١) ك: التورية.

(٢) في ابن حزم، الفصل: ٢٨٥/١ رسمت كالتالي: العانانية.

(٣) ت: مليكون.

(٤) ابن حزم، الفصل: ٢٦٥/٢.

(٥) ساقطة من ك.

(٦) ت: الحروية.

الفصل الأول

في الكلام على مبطلي الحقائق

وهم السوفسطائية: قال أبو محمد[1]: ذكر من سلف من المتكلمين أنهم ثلاثة أصناف، فصنف منهم نفوا الحقائق جملة، وصنف منهم شكّوا فيها، وصنف منهم قالوا: هي حقٌّ عند من هي عنده حق، وهي باطل عند من هي عنده[2] باطل.

قال[3]: وعمدة ما ذكر من اعتراضهم هو اختلاف الحواس في المحسوسات، وهذا لا معنى له لأن العقل شاهد بالفرق بين ما يخيّل إلى النائم وبين ما يدركه المستيقظ، وكذلك يشهد الحسُّ أيضاً بأن تبدل المحسوس عن صفته اللازمة له إنما هي لآفة له في الحس لا في المحسوس. وهذه لا يطلب عليها برهان. والذي يطلب على ذلك برهاناً، فهو مثبت لبرهان ما يلزم الإذعان له، فإن كان لا يثبت برهاناً، فلا وجه لطلب ما لا يثبته لو وجده. ويكفي من الرد عليهم: أن يقال لهم قولكم: لا حقيقة للأشياء حق هو، أم باطل؟ فإن قالوا: حق، أثبتوا حقيقة ما، وإن قالوا ليس بحق، أقروا ببطلان قولهم.

ويقال للشكاك: أشككم موجود صحيح منكم أم غير صحيح ولا موجود؟ فإن قالوا: هو موجود صحيح[٤] أثبتوا أيضاً حقيقة، وإن قالوا: هو غير موجود ولا صحيح نفوا الشك وأبطلوه.

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٤٣/١.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) ابن حزم، الفصل: ٤٣/١-٤٥.

ويقال لمن قال: هي حق عند من هي عنده حق، وباطل عند من هي عنده باطل، إن الشيء لا يكون حقاً باعتقاد من اعتقد أنه حق، كما أنه لا يبطل باعتقاد من اعتقد أنه باطل، وإنما يكون الشيء حقاً[1] بكونه موجوداً ثابتاً، ولو كان غير هذا لكان الشيء موجوداً معدوماً في حالٍ واحدة وهذا عين المحال.

ومن جملة تلك الأشياء التي تعتقد أنها حق من يعتقد أن الأشياء حق بطلان قول من قال: إن إدراك الحقائق باطل، وهم قد أقروا أنها حق عند من هي عنده حق، وبطلان قولهم من جملة تلك الأشياء، فقد أقروا أن بطلان قولهم حق، وهذه الأقوال لا يعتقدها ذو عقل ولا يشك ذو تمييز أن العلم بهذه الأشياء صحيح يشك فيه من دخلت عقله آفة.

* * *

(١) ت: موجوداً.

الفصل الثاني

في الكلام على من قال أن العالم لم يزل وأنه لا مدبر له

قال أبو محمد[1]: لا يخلو العالم من أحد وجهين: إما أن يكون لم يزل، أو أن يكون محدثاً لم يكن ثم كان.

فذهبت طائفة إلى أنه لم يزل وهم الدهرية.

وذهبت سائر الناس إلى أنه محدث.

فمما اعترض به الدهرية أن قالوا: [لم][2] نر شيئاً حدث إلَّا من شيء، أو في شيء فمن ادعى غير ذلك فقد ادعى ما لا يشاهد. وقالوا إن كان العالم محدثاً فلا يخلو أن يكون أحدثه لذاته، أو أحدثه لعلة. فإن كان الأول فالعالم لم يزل لأن محدثه لم يزل. وإن كان الثاني فتلك العلة لا تخلو من أحد وجهين، إما أن تكون لم تزل، وإما أن تكون محدثة، فإن كانت لم تزل فمعلولها لم يزل، وإن كانت محدثة لزم في حدوثها أن يكون أحدثها لذاته أو لعلة.

وقالوا: إن الأجسام محدثاً، لم يخل من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون مثلها من جميع الوجوه، وإما أن يكون خلافها من جميع الوجوه، وإما أن[٥] يكون مثلها من بعض الوجوه دون بعض. فإن كان مثلها من جميع الوجوه لزم أن يكون محدثاً وإن كان

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٤٧-٤٨.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل والإضافة من الفصل.

مثلها من بعض الوجوه دون بعض[1] لزم من مماثلتها في ذلك البعض ما يلزمه من مماثلة لها من جميع الوجوه من الحدوث إذ الحدوث لازم للبعض كلزومه للكل. وإن كان خلافها من جميع الوجوه فمحال أن يفعلها، لأن الضد لا يفعل خلافه من جميع الوجوه[2].

وقالوا: فاعل العالم، إما أن يكون فعله لإحراز منفعة أو دفع مضرة أو طباعاً أو لا لشيء من ذلك. فإن كان لمنفعة أو لدفع مضرة فهو محل للمنافع والمضار. وهذه صفة للمحدثات، وإن كان طباعاً فالطباع موجبة لما حدث بها ففعله لم يزل معه. وإن كان لا لشيء من ذلك فهذا لا يعقل[3].

وقالوا: لو كانت الأجسام محدثة لكان مُحدثها قبل أن يحدثها فاعلاً لتركها، وتركها لا يخلو من أن يكون جسماً أو عرضاً. وهذا يوجب أن الأجسام والأعراض لم تزل موجودة[4].

أما فساد الأول، فيقال: هل تدرك حقيقة شيء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة أو لا؟ فإن قالوا: إنها تدرك حقائق من غير طريق الرؤية تركوا استدلالهم وأفسدوه. وإن قالوا: لا تدرك إلا بطريق المشاهدة قيل لهم: فهل شاهدتم شيئاً قط لم يزل؟ فلابد من نعم أو لا. فإن قالوا: لا صدقوا وبطل قولهم، وإن قالوا: نعم، كابروا إذ مشاهدة الأشياء ذات أول بلا شك وذو الأول غير الذي لم يزل.

وأما فساد الثاني فهذه قسمة ناقصة، وينقص منها القسم الثالث، وهو أنه فعل كما شاء، وأما إفساد الثالث فنقول بل هو تعالى خلافها من جميع الوجوه. وإدخالكم عليه أنه حقيقة الضد، والضد لا يفعل ضده، فاسد لأنه تعالى لا يوصف بأنه ضد لخلقه، لأن الضد هو ما حمل التضاد. والتضاد هو اقتسام الشيئين [٦] طرفي البعد تحت جنس

(١) «لزم أن يكون محدثا ... بعض» ساقطة من ت.
(٢) ابن حزم، الفصل: ٤٩/١.
(٣) ت: يفعل والخبر في ابن حزم، الفصل: ٤٩/١-٥٠.
(٤) ابن حزم، الفصل: ٥٠/١.

واحد. فإذا وقع أحدهما ارتفع الآخر وهذا بعيد عن الباري جل جلاله.

وأما إفساد الرابع، أن الفعل لإحراز منفعة أو لدفع مضرة، فإنما يوصف به المخلوقون غير المختارين، وكلها منفية عن الله تعالى. وأما القسم الثاني، وهو أن فعل لا شيء من ذلك فهو قولنا.

وأما إفساد الخامس أنها قسمة فاسدة، وذلك أن الجسم هو الطويل العريض العميق. وترك الفعل ليس واحداً من ذلك. فترك فعل الله للجسم إنما هو عدم محض، والعدم ليس معنى، وترك الفعل ليس فعلاً بخلاف خلقه، لأن الترك من المخلوق للفعل فعل، برهان ذلك إن ترك المخلوق للفعل لا يكون إلَّا بفعل منه آخر ضرورة، كتارك الحركة لا يكون إلا بفعل السكون، وكتارك القيام لا يكون إلَّا باشتغاله بفعل آخر من قعود أو غيره[1].

ونورد البراهين على إثبات حدوث العالم، وأن له محدثاً لا إله إلا هو:

برهان أول: إن كل شخص في العالم، وكل عرض في شخص، وكل زمان فكل ذلك متناهٍ ذو أول نشاهد ذلك حساً وعياناً، لأن تناهي الشخص ظاهر بمساحته، وأيضاً بزمان وجوده. وتناهي العرض المحمول ظاهر بتناهي الجسم الحامل له، وتناهي الزمان موجود باستئناف ما يأتي منه بعد الماضي وقتاً قبل وقت بعد وجوده[2] واستئناف آخر، وكل جملة من جمل الزمان فهي مركبة من أزمنة متناهية. وكل جملة أشخاص فهي مركبة من أشخاص متناهية. وكل مركب فليس هو شيئاً غير أجزائه، وأجزاؤه متناهية. فالجُمل كلها بلا شك متناهية والعالم إنما هو أشخاصه ومكانه وأزمانها ومحمولاتها فصحّ أن العالم[3] أولاً[4].

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٥٠-٥٥.

(٢) في ابن حزم، الفصل: ١/٥٧: «وخفاء كل وقت بعد وجوده».

(٣) ابن حزم: ١/٨٨: للعالم.

(٤) ابن حزم، الفصل: ١/٥٧-٥٨.

برهان ثاني: أن كل موجود بالفعل فقد حصره العدد، واختصته[1] طبيعته، ومعنى الطبيعة وحدّها: قوة في الشيء يوجد بها على ما هو عليه، وحصر العدد وإحصاء الطبيعة نهاية صحيحة، والعالم كله محصور بالعدد[٧] محصي بالطبيعة فالعالم كله ذو نهاية.

برهان ثالث: أن مالا نهاية له فلا سبيل إلى الزيادة فيه، إذ معنى الزيادة فيه إنما هو أن نضيف إلى ذي النهاية شيئاً من جنسه يزيد ذلك في عدده أو في مساحته، فإن كان الزمان لا أول له يكون به متناهياً في عدده الآن، فإذاً كلما زاد فيه ويزيد من الأزمنة مما يأتي، فإنه لا يزيد في الزمان شيئاً. وفي شهادة الحسّ أن كلما وجد من الأعوام على الأبد إلى زماننا هذا أكثر مما وجد من الأعوام على الأبد إلى وقت هجرة رسول الله ﷺ. ولأن ما لا نهاية له، فلا يمكن ألبتة أن يكون عدد أكثر منه بوجه من الوجوه، فوجبت النهاية في الزمان من قبل ابتدائه ضرورة. ويجب أيضاً من ذلك أن الحس يوجب ضرورة أن أشخاص الإنس مضافة إلى أشخاص الخيل أكثر من أشخاص الإنس مفردة من أشخاص الخيل. ولو كانت الأشخاص لا نهاية لها لوجب أن ماله نهاية أكثر مما لا نهاية له، وهذا محال. وأما ما لم يأت من زمان أو شخص أو عرض بعد فليس ذلك شيئاً فلا يقع عليه عدد ولا نهاية، ولا يوصف بشيء أصلاً. وأيضاً فلا شك في أن ما وقع وجد من الزمان إلى يومنا هذا مساوٍ لما من يومنا هذا إلى ما وقع من الزمان معكوساً، وواجبه فيه الزيادة بما يأتي من الزمان، والمساوي لا يقع إلّا في ذي نهاية.

قال أبو محمد[2]: وقد ألزمت بعض الملحدين هذا البرهان فأراد أن يعكسه في بقاء الباري ووجوده فأخبرته أن هذا شغب، لأن الباري ليس في زمان ولا له مدة.

برهان رابع: إن كان العالم لا أول له فالإحصاء بالعدد والطبيعة له محال، إذ لو أحصي لكان له نهاية فإذ لا سبيل إليه، فكذلك أيضاً هو محال أن تكون الطبيعة والعدد أحصيا ما لا نهاية له. فالعدد والطبيعة لم يحصيا ذلك وقد تيقنا وقوع العدد والطبيعة[٨]

(١) ابن حزم، الفصل: ٥٨/١ وفيه «احصته» بدل «اختصته»

(٢) ابن حزم، الفصل: ٦١/١-٦٢ وبيّن أنَّ الملحد هو ثابت بن محمد الجرجاني المقتول سنة ٤٣١هـ.

في كل ما خلا من العالم، فإذاً فللعالم أول ضرورة[1].

برهان خامس: لا سبيل إلى وجود ثانٍ إلا بعد أول، ولا إلى وجود ثالث إلا بعد ثانٍ وهكذا أبداً فلو لم يكن لأجزاء العالم أول لم يكن ثانٍ، ولو كان الأمر هكذا لم يكن عدد ولا معدود. وفي وجودنا جميع ما في العالم معدود إيجاب لما ذكر. وفي صحة هذا وجوب أول ضرورة. وقد نبّه الله عليه بقوله{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}[2] وأيضاً فالآخر والأول من باب المضاف فلو لم يكن أول لم يكن آخر، ويومنا هذا بما فيه آخر لكل موجود إذ لم يأت بعد ولا وقع عليه شيء، فله أول ضرورة. وقد عارض هذا بعض الملحدين[3] بخلود الجنة، والجنة[4]، فقيل له إنما أخذنا خلود داري الجزاء على غير[5] هذا الوجه لكن على أن الله ينشئ لكل ذلك بقاء محدوداً وقتاً بعد وقت، فالأول والآخر جاريان في كل موجود من ذلك، فانقطع الملحد فثبت بما ذكرنا أن العالم ذو أول.

وإذا[6] كان كذلك فلابد من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها: إما أن يكون أحدث ذاته، وإما أن يكون حدث بغير أن يحدثه غيره وبغير أن يحدث نفسه، وإما أن يكون قد أحدثه غيره، فالأول باطل محال، لأن ذات الشيء هي هو وهذا يوجب أن يكون الشيء غير ذاته. والثاني باطل لأنه لا حال أولى بخروجه إلى الوجود من حال أخرى ولا حال أصلاً هنالك، فلا سبيل إلى خروجه، وخروجه مشاهد متيقن، وحال الخروج يلزم في حدثها ما لزم في حدث العالم من التقسيم بين أن يكون خرجت أنفسها أو أخرجها غيرها إلى آخره فقد تعين الوجه الثالثة ضرورة. ومن ذلك تراكيب الأفلاك ودورانها على اختلاف مراكزها ودورانها من غرب إلى شرق، ودوران الفلك التاسع بخلاف ذلك من

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٦٢/١.

(٢) سورة الجن، الآية ٢٨.

(٣) لم يذكر العمري اسم الملحد وذكره ابن حزم، الفصل: ٦٣/١ وهو عبدالله بن عبدالله بن شنيف.

(٤) كذا في الأصل، وفي الفصل: والنار.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) ت: وإن.

شرق إلى غرب، وإدارته لجميع[1] الأفلاك مع نفسه. فحدث من ذلك حركتان متعارضتان في حركة. فبالضرورة يعلم أن لها محركاً على هذه الوجوه المختلفة.

ومن ذلك تراكيب أعضاء الحيوان وتراكيب[٩] عروقه وعصبه. لا شك فيه أن له صانعاً، ومن ذلك ما يظهر في الأصباغ الموضوعة على جلود كثير من الحيوان وريشه ووبره وشعره، وكونه على رتبة واحدة لا تختلف كأذناب الطواويس وغيرها. وما يرى في ليف النخل من النسج المصنوع، وليس هذا البتة من فعل طبيعة. فصّح أنه فعل خالق أول واحد[2].

* * *

(١) ك: بجميع.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/٦٣-٦٩.

الفصل الثالث

في الكلام على من قال أن العالم لم يزل وله مع ذلك فاعل لم يزل

قال أبو محمد[1]: اعتمد أهل هذه المقالة على أن قالوا أن فعل الباري إنما هو جوده وحكمته وقدرته، وهو لم يزل جواداً حكيماً قادراً، فالعالم لم يزل، إذ علته لم تزل، فهذا فاسد بالدلالة التي قدمنا في حدوث العالم، ثم نقول إنما يلزم هذا من أقر بهذه من أن العالم علة.

وأما نحن فنقول: إنه لا علة لتكوين الله عز وجل، ثم نقول: إن المفعول هو المتنقل من العدم إلى الوجود، وهذا هو المحدث، وهم يقولون: إنه لم يزل، وهذا خلاف المعقول لأن الذي لم يكن ثم كان هو غير الذي لم يزل. فإن قال[2] قائل: لما كان الباري جل جلاله غير فاعل على قولكم، ثم صار فاعلاً فقد لحقته استحالة، وتعالى الله عن ذلك.

قلنا: هذا السؤال راجع عليكم لأنه إن كان عندكم أنه فعل بعد أن كان غير فاعل يوجب الاستحالة عليه، فإن فعله لما أحدث من الإعراض عندكم بعد أن كان غير محدث، وإعدام ما أعدم[3] منها بعد الوجود موجب عليه الاستحالة.

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٧١/١.

(٢) ت: فإن كان قال.

(٣) ت: عدم.

وأما نحن فنقول: إن الاستحالة ليست ما ذكرتم، وإنما هي حدوث شيء في المستحيل لم يكن فيه قبل ذلك صار به مستحيلاً عن صفته المحمولة فيه إلى غيرها وهذا منفي عن الله تعالى[1].

* * *

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٧١-٧٢.

الفصل الرابع

في الكلام على من قال إن للعالم خالقاً لم يزل، وإن النفس والمكان المطلق الذي هو الخلاء، والزمان المطلق الذي هو المدة لم تزل موجودة وأنها غير محدثة

[١٠] قال أبو محمد[١]: والنفس عند هؤلاء جوهر قائم بنفسه، حامل لأعراضه لا متحرك ولا منقسم ولا ممكن في مكان، والمكان المعهود ضد ما هو المحيط بالمتمكن من جهاته أو من بعضها. والزمان المعهود هو مدة وجود الفلك وما فيه من الحوامل والمحمولات. وهم يقولون: إن الزمان المطلق والمكان المطلق غير ما حددنا، وهما شيئان متغايران، ويكفي من بطلان قولهم إقرارهم بما لا يعهد بلا دليل، ولابد من إيراد البراهين على بطلان دعواهم، فيقال لهم: أخبرونا عن هذا الخلاء الذي أتيتم وقلتم إنه كان موجوداً قبل حدوث الفلك وما فيه، هل بطل بحدوث الفلك ما كان منه في مكان الفلك أو لم يبطل؟ فإن قالوا: لم يبطل، قيل: فهل انتقل عن ذلك المكان بحدوث الفلك فيه أو لم ينتقل. فإن قالوا: لم ينتقل وهو قولهم، قيل: فأين حدث الفلك؟ وقد كان في موضعه قبل حدوثه معنىً ثابتاً موجوداً قائماً بنفسه عندكم. فإن كان حدث في غيره فهاهنا مكان آخر إذاً غير الذي سميتموه خلاء.

وإن كان الفلك حدث فيه والفلك ملاء، ولم ينتقل الخلاء عندكم ولا بطل، فالفلك إذاً خلاءٌ وملاءٌ معاً وهذا محال. فإن قالوا بطل ما كان فيه في موضع الفلك أو

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٧٣-٧٨.

قالوا انتقل، فقد أوجبوا له النهاية ضرورة، إما من طريق الوجود بالبطلان، وإما من طريق المساحة بالنقلة. ويسألون عن هذا الخلاء الذي هو عندهم مكان لا متمكن فيه هل له مبدأ متصل بصفحات الفلك الأعلى أم لا. فإن قالوا: لا مبدأ له وهو قولهم قيل لهم إنَّ قول القائل مكان إنما يفهم منه ما يتمثل في النفس من المقصود بهذه اللفظة وموضعها في اللغة ليكون عبارة للتفاهم عن المراد بها أنها ساحة ولابد للساحة من الذرع ولابد للذرع من مبدأ فإن لم يكن له أول لم يكن عدد، وإذا لم يكن عدد لم يكن [١١] ذرع وإذا لم يكن ذرع لم يكن مساحة.

وإن قالوا: له مبدأ من هنالك وجبت له النهاية ضرورة. ويسألون أيضاً أمماس هذا الفلك أم غير مماس، وباين عنه أم غير باين؟ فإن قالوا: لا مماس ولا مباين فهذا أمر لا يعقل إلا في الأعراض وهم لا يقولون أن الخلاء عرض. وإن أثبتوا المماسة وجب إثبات النهاية.

قال أبو محمد(١): ومما يبطل به الخلاء أنا نرى الأرض والماء والأجسام الترابية من الصخور ونحو ذلك طباعها السفل أبداً وطلب المركز، ولا تفارق هذا الطبع فتصعد إلَّا بقهر يغلبها، ونجد النار والهواء طبعهما الصعود والبعد عن المركز، ولا يفارقان هذا الطبع إلا قسراً. فإذا زالت تلك الحركة القسرية رجعا إلى طبعهما. ونجد الإناء المسمى سارقه الماء يبقى الماء فيها صعداً ولا يسفل. ونجد الزرّافة ترفع التراب والزئبق والماء، ونجد إذا حفرنا بئراً امتلأ هواء وسفل الهواء حينئذ. ونجد المحجمة تمتص الجسم الأرضي إلى نفسها، فليس هذا إلا لأحد وجهين أم عدم الخلاء جملة كما نقول، وأما أن طبع الخلاء يجتذب هذه الأجسام إلى نفسه، كما يقول من يثبت الخلاء، وهذه دعوى بلا دليل، وهو عائد عليهم لأنه إذا اجتذب الأجسام ولابد فقد صار ملاء، والملاء موجود حاضر، والخلاء لا برهان عليه. وقولهم يُعلم بالمشاهدة وذلك أننا لم نجد مكاناً يبقى خالياً فقط دون متمكن، فصح الملاء بالضرورة. ثم نقول: إن كان خارج الفلك خلاء على قولكم، فلا يخلو من أن يكون من جنس هذا الخلاء الذي

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٨٤/١-٨٥.

تدعون أنه يجذب الأجسام بطبعه، أو من غير جنسه. فإن قالوا: من جنسه، فقد أقروا أن طبع هذا الخلاء الغالب لجميع الطبائع هو أن يجذب المتمكنات إلى نفسه فيمتلئ بها حتى أنه يحيل قوى العناصر عن طبائعه، فوجب أن يكون الخلاء الخارج عن الفلك كذلك ضرورة أيضاً، لأن هذه صفة طبعه. وإذا كان هذا هكذا فذلك الخلاء عندهم لا نهاية له، فالجسم المالئ له أيضاً لا نهاية[١٢] له وقد تقدم أنه لا يجوز وجود(١) جسم لا نهاية له فالخلاء باطل(٢).

* * *

(١) ساقطة من ت.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/٨٤-٨٥.



الفصل الخامس

في الكلام على من قال أن فاعل العالم ومدبره أكثر من واحد

قال أبو محمد[1]: افترق القائلون بذلك فرقاً، ثم ترجع هذه الفرق إلى فرقتين: إحداهما[2] تذهب إلى أن العالم غير مدبريه[3]، وهم القائلون بتدبير الكواكب السبعة وأزليتها، وهم المجوس، وهم يعظمون الأنوار والنيران. وقد يضاف إليهم الصابئون الذين يقولون بقدم الأصلين نحو قول المجوس. إلا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة والبروج الإثنى عشر ويصورونها في هياكلهم، ويقربون لها الذبائح. وهو كان أصل الأوثان في العرب حتى إلى[4] آل الأمر عبادتهم إياها. ويدخل في هذه الفرقة من وجه ويخرج من وجه النصارى لقولهم بالتثليث، وأن خالق الخلق ثلاثة وأما الذين يخرجون منه فقولهم أن الثلاثة واحد.

وأما الفرقة الثانية فإنها تذهب إلى العالم هم مدبروه لا غيرهم ألبتة، وهم الديصانية والمرقونية والمنانية القائلون بأزلية الطبائع الأربع، وأنها بسائط غير ممتزجة، ثم حدث الامتزاج، فحدث العالم بامتزاجها. فأما المنانية فإنهم يقولون بقدم الأصلين النور والظلمة. وأن النور والظلمة حيان، وأنهما غير متناهين إلا من جهة الملاقاة. وقال ماني: الظلمة حية. وقال ديصان: هي موات.

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٨٦-٩٤.

(٢) ك: أحديهما.

(٣) في ت، ك: مدبر به والمثبت من الفصل.

(٤) ساقطة من ت.

وقالت المرقونية[1] أيضاً كذلك إلا أنهم قالوا نور وظلمة لم يزالا، وثالث أيضاً بينهما لم يزل فهذه الفرق مطبقة على أن الفاعل أكثر من واحد، وعمدة ما عولوا عليه استدلالان أحدهما: استدلال المنانية والديصانية والمجوس والصابئة. ومن ذهب مذهبهم قالوا: وجدنا الحكيم لا يفعل الشر ولا يخلق خلقاً ثم يسلط عليه غيره، وهذا عبث[2] في المعهود. ووجدنا العالم ينقسم[١٣] قسمين كل قسم ضد الآخر كالخير والشر، والحياة والموت، والصدق والكذب، وغير ذلك. فعلمنا أن الحكيم لا يفعل إلا الخير وما يليق به فعله، وأن الشرور لها فاعل يليق بها.

والثاني: عوّل عليه من قال بتدبير الكواكب، ومن قال بالطبائع، قالوا لا يفعل الفاعل أفعالاً مختلفة إلا بأحد وجوه أربعة: إما أن يكون ذا قوى مختلفة، وإما بآلات مختلفة، وأما باستحالة، وأما بفعل في أشياء مختلفة. فلما بطلت هذه علمنا بذلك أن الفاعلين كثير، وأن كل واحد يفعل ما يشاكله.

والجواب عن الأول: هل يخلو علمكم بأن هذا شر وعبث من أحد وجهين، إما أن تكونوا علمتموه بسمع ورد لكم وخبر، وإما بضرورة العقل. فإن كان من الأول، قيل هل معنى السمع الآتي غير أن مبتدع الخلق سمي هذا الشيء شراً، وهذا خيراً، فلابد من نعم إذ هذا معنى لازم عند كل من قال بالسمع، فحينئذ إنما صار الشر شراً[3] لنهي الواحد الأول عنه وكذلك الخير لأمره به، فإذا كان هذا فقد ثبت أن من لا مبدع له، ولا أمر فوقه لا يكون شيء من فعله شراً إذ السبب في كونه شراً هو الأخبار ولا مخبر يلزم طاعته إلا الله تعالى. فإن قيل: فكيف[4] يفعل هو شيئاً قد أخبر أنه شر، قيل: هو تعالى ليس يفعل في الجسم فيما يشاهد غير الحركة والسكون، والحركة جنس واحد،

---

(١) كذا في الأصل، وفي ابن حزم، الفصل: ٩١/١: المزدقية وأشار المحقق إلى أن نسخة أ ونسخة ب من الفصل وردت بها اللفظة: المرقونية.

(٢) في الفصل: عيب.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) ت: كيف.

والسكون جنس واحد، وإنما أمر ببعضها ونهى عن بعضها، ولم يفعل هو تعالى الحركة على أنه متحرك بها، ولا السكون على أنه ساكن به، وإنما فعلها على سبيل الإبداع. وكذلك اعتقادات النفس ما نهيت عنه. وهذا كله غير موصوف به الباري.

وإن قالوا: علمنا ذلك ببديهة العقل، قيل: العقل قوة من قوى النفس، وداخلاً تحت الكيفية على الحقيقة أو تحت الجواهر. وإنما يؤثر فيما هو من شكله في باب الكيفيات فيميز بين خطائها وصوابها. وأما فيما هو فوقه وفيما لم يزل والعقل معدوم[١٤] وفي مخترع العقل فلا تأثير فيه له.

ويقال لهم: إن التزمتم أن يكون فاعل الشر عابثاً، وقررتم بذلك منع كون فاعل العالم واحداً فقد علمنا فيما بيننا أن تارك الشيء لا يغيره عابث ظالم، ولا يخلو فاعل الخير عندكم من أن يكون قادراً على تغيير الشر أولاً، فإن قلتم إنه قادر على تغييره ولم يغيره، فقد صار عندكم عابثاً، وإن قلتم أنه غير قادر فهو بلا شك عاجز ضعيف، وهذه صفة سوء عندكم[١].

قال أبو محمد[٢]: والمنانية تزعم أنَّ النور كان في العلو إلى ما لا نهاية له، وأن الظلمة في السفل إلى ما لا نهاية له، وأنهما متناهيان من جهة الملاقاة، وأن اللذة للنور خاصة، وأن الأذى للظلم خاصة.

قال أبو محمد[٣]: بطلان القول في عدم التناهي فقد أبطلناه. وأما قولهم بالعلو والسفل ففاسد لأن السفل لا يكون سفلاً إلا بالإضافة. وكذلك العلو فكل علو سفل لما فوقه حتى ينتهي إلى الصفحة العليا، وهم لا يقرون بها، وكل سفل فهو علو لما تحته حتى ينتهي إلى المركز وهم لا يقرون بها، فصح ضرورة أن في الظلمة على قولهم علواً، وفي النور سفلاً.

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/٩٤ ـ ٩٧.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/٩٧.

(٣) ابن حزم، الفصل: ١/٩٧ ـ ٩٨.

وأما قولهم في اللذة والأذى ففاسد، لأن اللذة لا تكون إلّا بالإضافة، وكذلك الأذى، فالإنسان لا يلتذ بما يلتذ به الحمار، ويتأذى بما [لا][1] تتأذى به الأفعى، فبطل قولهم.

وأما الجواب عن الثاني فهو استدلال فاسد لأنهم إنما عولوا فيه على الأقسام الموجودة في العالم. وقد قدمنا البراهين الضرورية على حدث العالم، وعلى أن محدثه لا يشبهه في شيء من الأشياء فلا سبيل إلى أن يدخل في شيء تحت هذه الأقسام.

ومما يدل على تناهي الأصلين أنهما عندهما جسمان، والجسم متناه ضرورة، أن نقول: لا يخلو كل جرم من الأجرام من أن يكون متحركاً أو ساكناً، فإن كان متحركاً فقد علمنا أن المسافة التي لا تتناهى لا تقطع أصلاً لا في زمان[١٥] متناهٍ ولا في زمان غير متناه، ثم لا تخلو حركته إما أن تكون باستدارة أو إلى جهة من الجهات، وأيا ما كان فهو متناه لذلك ضرورة لأنه نقله من مكان إلى مكان.

وإن قلتم: هو ساكن، قلنا اقطعوا من هذا الجرم قطعة بالوهم. فإذا توهموا ذلك سألناهم متى كان هذا الجرم أعظم أقبل أن يقطع منه أو بعد؟ فأيّامًا قالوا فقد أثبتوا النهاية إذ لا تقع الكثرة والقلة والتساوي إلا في ذي نهاية.

قال أبو محمد[2]: وكل ما ألزمناه من يقول بأن الأجسام لم تزل فهو لازم بعينه لمن يقول أن الكواكب السبعة والإثنى عشر برجاً لم تزل لأنها أجسام جارية تحت أقسام الفلك وحركته.

وأما من جعل الفاعل أكثر من واحد، وأنهم غير العالم كالمجوس والصابئين والمزدقية ومن قال بالتثليث من النصارى، فيدخل عليهم من الدلائل الضرورية، إنما ما كان أكثر من واحد فهو واقع تحت جنس العدد، وما كان واقعاً تحت جنس العدد، فهو نوع من أنواع العدد، وما كان نوعاً فهو مركب من جنسه العام له ولغيره، ومن فصل

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصول، والإضافة من الفصل.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٠١ ـ ١٠٣.

خصه ليس في غيره، فله موضوع وهو الجنس القابل لصورته وصورة غيره من أنواع ذلك الجنس وله محمول، وهو الصورة التي خصته دون غيره، فهو ذو موضوع وذو محمول، فهو مركب من جنسه وفصله، والمركب مع المركب من باب المضاف الذي لابد لكل

واحد منهما من الآخر،فأما المركب فإنما يقتضي وجود المركب من وقت ركبه[1]، وحينئذ يسمى مركباً لا قبل ذلك. وأما الواحد فليس عدداً[2].

ومن البراهين[3] على أن فاعل العالم ليس إلّا واحداً: أن العالم لو كان مخلوقاً لاثنين فصاعداً لم يخل من أن يكونا لم يزالا مشتبهين أو مختلفين، فأيا ما قالوا فقد أثبتوا معنىً فيهما أو في أحدهما به اشتبها أو به اختلفا. فإن نفوا ذلك فقد نفوا الاختلاف والاشتباه [١٦] معاً، ولا يجوز ارتفاعهما معاً أصلاً، لأن ذلك محال وموجب للعدم، لأن وجود شيئين لا يشتبهان في شيء ولا يختلفان بوجه من الوجوه محال، إذ في ذلك عدمهما، لأن هذه الصفة معدومة، وإذا كانت معدومة فحاملها معدوم، وهم قد أثبتوا وجودها فيلزمهم القول بوجود[4] معدوم في وقت واحد من وجه واحد وهذا محال.

وإذا أثبتموهما موجودين لم يزالا فقد أثبتوا لهما معاني قد اشتبها فيها، وهي كونهما مشتبهين في الفعل، مشتبهين في الوجود، مشتبهين في أن لا[5] يزالا. ولا يجوز أن تكون هذه الأشياء ليست غيرهما لأنها صفات عَمَّتهما: أعني اشتباههما في المعاني المذكورة، فإن كان[6] اشتباههما هو هما، فهما شيء واحد. وكذلك أيضاً يلزم في كونهما مختلفين في أن كل واحد منهما غير صاحبه، فإن كان هذا الاختلاف فيهما هو

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١٠٥/١: تركبه.
(٢) ابن حزم، الفصل: ١٠٤/١ ـ ١٠٥.
(٣) ك: البرهان.
(٤) ابن حزم، الفصل: ١٠٥/١: بموجود.
(٥) ابن حزم، الفصل: ١٠٥/١: لم.
(٦) ساقطة من ت.

غيرهما، فهاهنا ثالث. وهكذا أيضاً أبداً، وإن كان[١] التغاير هو هما، والاشتباه هو هما، فالتغاير هو الاشتباه، وهذا هو عين المحال وبالله التوفيق[٢].

[الملل الأربع][٣]

وأما الملل الأربع فقد قدمنا تعدادها، ونبدأ بالكلام على المجوس، إذ كانوا أقدمهم في سكن الأرض، ولسرعة ما هدم في مبانيهم النقض ونختم بالإسلام، إذ كان لها من مسك ختام، وبالله التوفيق، وهو يهدي إلى سواء الطريق.

[المجوس][٤].

قد قدمنا أنهم أهل ملة وكتاب.

قال أبو محمد[٥]: وأما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته، ثم قال: وليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت معجزته. قال الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٦] وقال عز وجل: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[٧].

وقالوا: إن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم. قال: وبرهان ذلك أن المنانية تنسب إليه [١٧] مقالتهم، والمرقونية تنسب إليه مقالتهم. وأقوال هؤلاء كلها متضاد لا سبيل أن يقول بها قائل واحد صادق ولا كاذب في وقت واحد.

وكذلك المسيح عليه السلام ينسب إليه الملكانية قولهم في التثليث، وتنسب إليه النسطورية قولهم أيضاً، وكذلك اليعقوبية. وهذا برهان ظاهر على كذب جميعهم عليهما

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٠٥.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصول والإضافة من المحققين.

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصول والإضافة من المحققين.

(٥) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٦ - ١٩٧.

(٦) سورة فاطر، الآية ٢٤٠.

(٧) سورة النساء، الآية ١٦٤.

بلا شك. قال: وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فيهما.

وكتاب المجوس وشريعتهم إنما كان طول مدة دولتهم عند المُوبذ، وعند ثلاثة وعشرين هربذاً، لكل هربذ سفر قد أفرد به لا يشاركه فيه غيره من الهرابذة، ولا من غيرهم، ولا يباح شيء من ذلك لأحد سواهم، ثم حصل فيه الخرم بإحراق الاسكندر لكتابهم أيام غلبته على دارا بن دارا. وهم مقرون بلا خلاف منهم أنه ذهب منه مقدار الثلث. ذكر ذلك تنسر الناسك وغيره من علمائهم.

وقد نقلت كواف المجوس المعجزات عن زرادشت كالصفر الذي أفرغ وهو مذاب على صدره فلم يضره، وقوائم الفرس التي غاصت في بطنه فأخرجها وغير ذلك[١].

قال[٢]: وممن قال أن المجوس أهل كتاب، علي بن أبي طالب، وحذيفة، وسعيد بن المسيب، وقتادة، وأبو ثور وجمهور أصحاب الظاهر. ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرّم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي، فإذا أخذها منهم هم أهل كتاب.

فأما مزدك وكان على عهد أنوشروان بن قباذ وكان يقول بوجوب تواسي الناس في النساء والأموال، قلت: ويكفي في بطلان مذهبه أن أنوشروان قتله برأى أهل ملته فإذ كفروه في شرعتهم لمخالفته لها نحن أولى بتكفيره. ومن احتج له أبطلت حجته بتكفير أهل ملته[١٨].

[اليهود]
فصل في الكلام على اليهود، وهم خمس فرق كما تقدم

وأما **السَّامرة** فيقولون أن مدينة القدس نابلس، وهي على ثمانية عشر ميلاً من القدس، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس، والتوراة التي بأيديهم غير التي بأيدي سائر

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٧ ـ ١٩٨.

اليهود، وهم يبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى عليه الصلاة والسلام، وبعد يوشع عليه السلام، كشمعون، وداود، وسليمان، وإشعيا، واليسع، والياس وغيرهم، ولا يقرون بالبعث البتة، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنه[1].

والصدوقية نسبوا إلى رجل يقال له صدوق، وهم يقولون من بين سائر اليهود أن العزير ابن الله، تعالى الله عن ذلك، كانوا بجهة اليمن[2].

والغانانية أصحاب غانان الداودي اليهودي، وتسميهم اليهود القَرَّائين والمين[3]. وقولهم أنهم لا يتعدون شرائع التوراة، وما جاء في كتب الأنبياء عليهم السلام، ويتبرأون من قول الأحبار. وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام، وهم من الأندلس بطليطلة وطلبيرة[4].

والربانية وهم الأشعنية. وهم القائلون بأقوال الأحبار، وهو جمهور اليهود[5].

والعيسوية هم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني، رجل من اليهود، كان بأصبهان[6]، قال ابن حزم[7]: بلغني أن اسمه كان محمد بن عيسى، وهم يقولون بنبوة عيسى بن مريم، ومحمد ﷺ ويقولون: إن عيسى بعث إلى بني إسرائيل على ما جاء في الإنجيل، وأن محمد ﷺ نبي أرسل بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل وسائر العرب. كما كان أيوب نبياً، وبلعام نبياً في بني مؤاب بإقرار من جميع اليهود.

وقال ابن حزم في مكان آخر[8]: وقدمنا هنا إذ كان منهما يجب تقديمه ومعناه

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٧٨.
(٣) في الأصول: العراس والمس والتصويب من الفصل.
(٤) ابن حزم، الفصل: ١/١٧٨.
(٥) ابن حزم، الفصل: ١/١٧٨.
(٦) في الأصول: كان ابن حزم، والتصويب من الفصل.
(٧) ابن حزم، الفصل: ١/١٧٩.
(٨) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٠.

أن التواتر منقطع عند اليهود والنصارى بخلاف المسلمين زادهم الله ثباتاً.

أما اليهود فلأن نقلهم لشريعة السبت [١٩] وسائر شرائعهم إنما يرجعون فيها إلى التوراة، وينقطع نقل ذلك. وتنقل التوراة إطباقهم على أن أوائلهم كفروا بأجمعهم وبرؤوا من دين موسى عليه السلام وعبدوا الأوثان علانية دهوراً طوالاً. ومن المحال أن يكون ملك كافر عابد أوثان هو وأمته كلها معه كذلك، يقتلون الأنبياء ويخيفونهم، ويقتلون من دعا إلى الله عز وجل يشتغلون بسبب أو بشريعة مضافة إلى الله تعالى[١].

أما النصارى فيقطع بهم عدم نقلهم إلَّا عن خمسة رجال فقط. فقد ظهر انقطاع التواتر عندهم[٢].

وأما المسلمون فإنهم على خلافهم، لاتصال حبل التواتر عندهم. ونقل المسلمين ينقسم إلى ستة أقسام:

فأولهما: ما ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلا. كنقل القرآن العظيم، وأن محمد ﷺ أتى به ربه عز وجل، وكذلك الصلوات الخمس في كل يوم في أوقاتها، وصيام شهر رمضان، والحج في وقته المعروف، وكالزكاة، وسائر الشرائع التي نطق بها القرآن، وكآياته من شق القمر، ودعاء اليهود إلى تمني الموت، والنصارى إلى المباهلة والعرب إلى المجيء بمثل القرآن، وسائر ما هو نص القرآن مقرؤ منقول، وليس عند اليهود ولا عند النصارى من هذا النقل شيء أصلاً كما تقدم القول.

ثم نقل الكافة عن مثلها حتى يبلغ الأمر إليه ﷺ ككثير من آياته ومعجزاته، وكمناسك الحج وزكاة البُرِّ والشعير والتمر وغير ذلك.

ثم ما ينقله الثقة عن الثقة من النبي ﷺ إلينا، وكل من النقلة معروف العين والعدالة والزمان والمكان، وهذا شيء خصَّ الله به الإسلام[٣].

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٠.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٠.

(٣) ابن حزم، الفصل: ٢/١١٩ - ٢٢١، وعلق ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢١ على الأقسام الثلاثة الأولى بقوله: «وهذه الأقسام الثلاثة هي التي نأخذ ديننا منها ولا نتعداها إلى غيرها».

ثم شيء نقله الكافة أو الواحد الثقة عن أمثالهم إلى أن يبلغ من ليس بينه وبين النبي ﷺ إلا واحد فأكثر، فسكت ذلك المبلوغ إليه عمن أخبره عن النبي ﷺ. قال ابن حزم[1]: وهذا يأخذ به كثير[٢٠] من المسلمين ولسنا نأخذ به. قال: ومن هذا النوع كثير من نقل اليهود وهو أعلى ما عندهم، إلا أنهم لا يقربون فيه من موسى عليه السلام، بل يقفون ولابدَّ بحيث بينهم وبين موسى أزيد من ثلاثين عصراً في أزيد من ألف وخمسمائة عام. وإنما يبلغون بالنقل إلى هلال وسماني وشمعون ومرعقيبا وأمثالهم.

قال: وأظن أن لهم مسألة واحدة يروونها عن نبي من متأخري أنبيائهم في نكاح الرجل ابنته إذا مات عنها أخوه.

قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق وحده على أن مخرجه من كذاب صح كذبه.

عاد إلى تتمة ما ينقسم إليه نقول المسلمين وهو:

الخامس منها: قال[2]: وهو ما ينقله كافة عن كافة أو ثقة عن ثقة حتى يبلغ إلى النبي ﷺ إلَّا أن في الطريق رجلاً مجروحاً بكذب أو غفلة أو مجهول الحال.

قال[3]: وهذا يقول به بعض المسلمين، ولا يحل عندنا القول به ولا تصديقه ولا الأخذ بشيء منه، وهذا صفة نقل اليهود والنصارى مما أضافوه إلى أنبيائهم لأنه يقطع أنهم كفار بلا شك ولامرية.

ثم نُقِلَ بأحد الوجوه المتقدمة حتى يبلغ ذلك إلى صاحب أو تابع أو أمام دونهما أنه قال كذا أو حكم بكذا غير مضاف ذلك إلى رسول الله ﷺ، كقول أبي بكر رضي الله عنه في سبي أهل الردة، وكضرب عمر الخراج بذلك، فمن المسلمين من يأخذ بهذا، ومنهم من لا يأخذ به. ولا يخلو فاضل من وهم[4].

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٢.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٢.

(٣) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٢.

(٤) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٢٢.

قلت: وقد ذهب بعض العلماء إلى أن قول الصحابي ليس بحجة، فأما إذا أيد بالإجماع كان كالنص. وقلَّ أن أمر أحد من الأربعة الراشدين بأمر لا نص عنده فيه حتى استشار، فإذا حصل الاجتماع عليه أمر به.

قال أبو محمد[1]: وقد ذكر فرق اليهود المتقدمة، ثم انقسم اليهود جملة على قسمين، قسم أبطلوا النسخ، ولم يجعلوه ممكناً، وقسم [٢١] أجازوه إلا أنهم قالوا أنه لم يقع.

قال[2]: وعمدة حجة من أبطل النسخ أن قالوا: أن الله يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهي عنه. ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً، والطاعة معصية. وعكس ذلك قال: لا نعلم لهم[3] حجة غير هذه وهي أضعف ما يكون لأن من تدبر أفعال الله تعالى تيقن بطلان قولهم، لأن الله يحيى ثم يميت ثم يحيى.

قال[4]: ثم نقول لهم: ما تقولون فيمن كان من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا ضروكم؟ أليس دماؤهم لكم حلالاً، وقتلهم طاعة، فلابد من نعم، فنقول لهم: فإن دخلوا في شريعتكم أليس قد حرمت دماؤهم عليكم، وصار قتلهم عندكم معصية بعد أن كان طاعة؟ فلابد من نعم. ثم إن عدوا في السبت قد عاد قتلهم حلالاً بعد أن كان حراماً؟ فلابد من نعم، وهذا إقرار ظاهر منهم ببطلان قولهم.

وهكذا القول في جميع شرائعهم لأنها إنما هي أوامر في وقت محدود بعمل محدود، فإذا خرج ذلك الوقت، عاد ذلك المأمور به منهياً عنه، كالعمل عندهم مباح في الجمعة محرم في السبت، ثم يعود مباحاً في الأحد، وكالصيام والقرابين وسائر الشرائع كلها، وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذي أنكروه[5].

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٧٩.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٨٠.

(٣) ت: له.

(٤) ابن حزم، الفصل: ١/١٨٠.

(٥) ابن حزم، الفصل: ١/١٨٠.

وأيضاً فإن جميعهم مقرون بأن شريعة يعقوب عليه السلام كانت غير الموسوية، وأن يعقوب تزوج ليا وراحيل ابنتي لابان، وجمعهما معاً، وهذا حرام في الموسوية. ولا فرق في العقول بين شيء أحلّه الله ثم حرمه، وبين شيء حرّمه الله ثم أحلّه[1].

قال[2]: وفي توراتهم البداء وهو أشد من النسخ، وذلك أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: سأهلك هذه الأمة، وأقدمك على أمة أخرى عظيمة، فلم يزل يرغب إلى الله في أن لا يفعل حتى أمسك عنهم، وهذا هو البداء بعينه والكذب المنفيات عن الله، لأنهم ذكروا أن الله [٢٢] أخبر أنه سيهلكهم ويقدمه على غيرهم، ثم لم يفعل تعالى الله عن هذا.

قال[3]: وأما الطائفة التي أجازت النسخ إلّا أنها أخبرت أنه لم يكن، فيقال لهم: بأي شيء علمتم نبوة موسى، ووجوب طاعته؟ فلا سبيل إلى أن يأتوا بشيء غير أعلامه الظاهرة، وبراهينه. فيقال لهم: إذا وجب التصديق له والطاعة لأمره لما أظهر من إحالة الطبائع، فلا فرق بينه وبين آخر أتى بمعجزاتٍ غيرها، وبإحالة الطبائع، وبضرورة العقل. فعلم إنما وجب لنوع فإنه واجب لأجزائه كلها، وبهذا يجب تصديق موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

قال[4]: وأما شغب من شغب منهم بأننا نؤمن بموسى، وهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ، فهم لا يخلون من أن يكونوا صدّقوا نبوة موسى من أجل تصديقنا نحن، ولولا ذلك لم يصدقوا به أو يكونوا إنما صدقوا به لما ظهر من الآيات فقط، فقد كان إنما صدقوا به من أجل تصديقنا نحن فواجب أن يصدقوا بمحمد ﷺ من أجل تصديقنا به وإلا فقد تناقضوا.

وإن كان إنما صدقوا به لما ظهر من الآيات فلا معنى لتصديق من صدقه، ولا

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٨١.
(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٨١.
(٣) ابن حزم، الفصل: ١/١٨٢.
(٤) ابن حزم، الفصل: ١/١٨٣.

لتكذيب من كذبه، والحق حق صدقه الناس أو كذبوه، والباطل باطل صدقه الناس أو كذبوه.

قال: وأيضاً فإنا آمنا بنبوة موسى الذي أنذر بنبوة محمد ﷺ وبالتوراة التي فيها الإنذار به وباسمه ونسبه وصفة أصحابه لا بنبوة من لم ينذر بالنبوة المحمدية(١).

قال(٢): فإن قال قائل: إن موسى عليه السلام قال لهم في التوراة: لا تقبلوا من نبي أتاكم بغير هذه الشريعة، قلنا: لا سبيل إلى(٣) أن يقول هذا بوجه من الوجوه، لأنه لو قال ذلك لكان مبطلاً لنبوة نفسه، وذلك أنه لو قال لهم(٤): لا تصدقوا من دعاكم إلى غير شريعتي، وإن جاء بآيات، فإنه يلزمه إذا كانت الآيات لا توجب تصديق [٢٣] غيره إذا أتى بها في شيء دعا إليه، فهي غير موجبة تصديق موسى عليه السلام فيما أتي به، إذ لا فرق بين معجزاته ومعجزات غيره، إذ بالآيات صحت الشرائع، ولم تصح الآيات بالشرائع.

قال(٥): وهذا الكلام المنسوب إلى موسى عليه السلام كذب موضوع ليس في التوراة شيء منه، وإنما فيها: من أتاكم يدّعي نبوة وهو كاذب فلا تصدقوه. فإن قلتم من أين نعلم كذبه من صدقه؟ فانظروا فإذا قال عن الله شيئاً ولم يكن كما قال فهو كاذب، قال وهذا نص التوراة.

قال(٦): وقد وجدنا صحة كل ما أخبر به النبي ﷺ عن غلبة الروم على كسرى، وإنذاره بقتل الكذاب العنسي، وبيوم ذي قار، وبخلع كسرى وبغير ذلك.

قال(٧): فإن قالوا: إن في التوراة أن هذه الشريعة لازمة لكم في الأبد، قلنا: هذا محال في التأويل، لأنه كذلك أيضاً فيها: إن هذه البلاد يسكنونها أبداً، وقد خرجوا

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١٨٣/١.
(٢) ابن حزم، الفصل: ١٨٩/١ - ١٩٠.
(٣) ساقطة من ت.
(٤) ساقطة من ت.
(٥) ابن حزم، الفصل: ١٩٠/١.
(٦) ابن حزم، الفصل: ١٩٠/١.
(٧) ابن حزم، الفصل: ١٩٠/١.

عنها. قال: فإن قالوا: فقد قال نبيكم: لا نبي بعدي، قيل لهم: ليس هذا الكلام مما ادعيتموه على موسى، لأننا قد علمنا من أخباره أنه لا سبيل إلى أن يظهر أحد آية بعده أبداً ولو جاز ظهورها لوجب تصديق من أظهرها، ولكنا قد أيقنا أنه لا تظهر آية على يد أحدٍ بعده بوجه من الوجوه.

قال[1]: فإن قالوا: كيف تقولون في الدجال، وأنتم ترون أنه يظهر له عجائب؟ فلهم أجوبة أظهرها ما قاله أصحاب الكلام، قالوا: إن الدجال إنما يدعي الربوبية، وفي نفس قوله بيان كذبه، فظهور الآية عليه ليس بموجب ضلال من له عقل. قال أبو محمد[2]: وأما قولنا فهو أن العجائب الظاهرة من الدجال إنما هي حيل من نحو ما سحره فرعون، وأعمال الحلاج، وأصحاب العجايب.

وقال[3]: وقد أخذ في معارضتهم في إقامة أدلة النبوة المحمدية. قال: مع ما في التوراة[٢٤] الإنذار البيِّن برسول الله ﷺ من قوله تعالى: سأُقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم أجعله على لسانه كلامي فمن عصاه انتقمت منه.

قال[4]: ولم تكن هذه الصفة لأحد غير محمد ﷺ، وأخوةُ بني إسرائيل هم بنو إسماعيل. قال: وقوله في السفر الخامس منها: جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير، واستعلى من جبال فاران، وسيناء هو موضع مبعث موسى، وساعير موضع عيسى، وفاران بلا شك هي مكة موضع مبعث محمد ﷺ وعليهم.

والرؤيا التي فسرها دانيال في أمر الحجر الذي رأى الملك في نومه الذي دق الصنم الذي كان بعضه ذهباً، وبعضه فضة، وبعضه نحاساً، وبعضه حديداً، وبعضه فخاراً، وخلطه كله وطحنه وجعله شيئاً، ثم رمى الحجر حتى ملأ الأرض، ففسره بأنه نبي يجمع الأجناس، ويبلغ ملك أمره ملء الآفاق، فهل كان نبي قط غير محمد ﷺ

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٠ - ١٩١.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٩١.

(٣) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٤.

(٤) ك: عليهم الصلاة والسلام.

جمع الأجناس كلها على اختلافها، واختلاف لغاتها، وأديانها، وممالكها، وبلادها، فجعلهم جنساً واحداً، ولغة واحدة، وأمة واحدة، وديناً واحداً، فإن العرب، والفرس، والنبط، والأكراد، والترك، والديلم، والجيل، والبربر، والقبط، ومن أسلم من الروم، والهند، والسودان، على كثرتهم كلهم ينطقون بلغة واحدة، وبها يقرءون القرآن، وقد صار ذلك كله أمة واحدة[1].

قال[2]: وأما العيسوية من اليهود فإنه يقال لهم: إذا صدقتم الكافة في نقل القرآن عن النبي ﷺ وفي نقل معجزاته وصحة نبوته، فقد لزمكم الانقياد لما في القرآن من أنه بعث إلى الناس كافة بقوله تعالى فيه آمراً له أن يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [25] ﴿بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[5]. وما فيه من دعاءه[6] اليهود إلى ترك ما هم عليه، والرجوع إلى شريعته، وهذا ما لا مخلص منه.

قال[7]: فإن اعترضوا بما في القرآن مما حُرِّم عليهم يعني اليهود وحضهم على التزام السبت، فإنما هو تبكيت لهم فيما سلف من أسلافهم الذين قفوا آثارهم. ويبين هذا نص القرآن في قوله عن عيسى عليه السلام أنه رسول الله إلى بني إسرائيل ليحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، وهذا نص جلي على نسخ شريعتهم وبطلانها، ثم ما لا ينكر من أنه حارب اليهود وقتلهم وسباهم، وألزمهم الجزية، وسماهم كفاراً إذ لم يرجعوا إلى الإسلام، وقبل إسلام من أسلم منهم، فلو لم يكن دينهم منسوخاً لما جبرهم على تركه وألزمهم الجزية والصغار.

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٤ ـ ١٩٥، والخبر في التوراة، سفر دانيال، الإصحاح ٢.
(٢) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٨٥.
(٥) سورة التوبة، الآية ٢٩.
(٦) ت: دعاء.
(٧) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٨.

قال[1]: ومن المحال أن يكون عند العيسويين رسولاً نبياً صادقاً ثم يجور ويظلم، فوضح فساد قولهم وتناقضه بيقين لا شك فيه، فصحت النبوة المحمدية بلا إشكال والحمد لله رب العالمين.

[النصارى]

وأما الكلام على النصارى، فقد قال تلو ما تقدم[2]: وكلما ذكرنا في هذا الباب يدخل على النصارى الذين يقولون بنبوة عيسى عليه السلام فقط من الأريوسية، والمقدونية، والبولقانية، سواء بسواء مع ما في الانجيل من قول المسيح: اللهم ابعث البارقليط ليعلم الناس أن ابن البشر إنسان.

قال[3]: وهذا غاية البيان لأن المسيح علم أنه سيغلو قومه فيه فيقولون أنه الله، وأنه ابن الله، فدعا الله ليبعث الذي يبين للناس أنه ليس كذلك، وإنما هو إنسان ولد امرأة من البشر، فهل أتى بعده نبي بين هذا إلا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهم ست طوائف: أريوسيون، وملكيون، ونسطوريون، ويعاقبه، ومارونيون، وبولقانيون. وقد قال أبو محمد[4] بعد أن بين أكاذيب اليهود فيما بأيديهم من توراتهم، ثم ذكر النصارى فقال: وأما فساد دينهم [٢٦] فلا إشكال فيه على من له مسكة عقل، ولسنا نحتاج إلى تكلف برهان في أن الأناجيل وسائر كتب النصارى ليست من عند الله تعالى، ولا من عند المسيح عليه السلام كما احتجنا إلى ذلك في توراة اليهود، لأن جمهور اليهود يزعمون أن التوراة التي بأيديهم منزلة من عند الله على موسى عليه السلام.

وأما النصارى فقد كفونا هذه المؤنة لأنهم لا يدعون أن الأناجيل منزلة على المسيح، ولا إن المسيح أتاهم بها، بل كلهم، أولهم عن آخرهم أريوسيهم وملكيهم

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١/١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) ابن حزم، الفصل: ٢/١١.
(٣) ابن حزم، الفصل: ٢/١١
(٤) ابن حزم، الفصل: ٢/١٢ ـ ١٣.

ونسطوريهم ويعقوبيهم ومارونيهم وبولقانيهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة[1].

فأولها: تاريخ ألفه متّى اللّاواني تلميذ المسيح بعد تسع سنين من رفع المسيح عليه السلام، وكتبه بالعبرانية في بلد يهوذا بالشام بخط متوسط.

والثاني: تاريخ ألفه مارقش الهاروني تلميذ شمعون بن توما المسمى باطره بعد اثنين وعشرين سنة من رفع المسيح، وكتبه باليونانية في بلد أنطاكية من بلاد الروم، ويقولون إن شمعون ألفه ثم محا اسمه من أوله، ونسبه إلى تلميذه مارقش بخط متوسط، وشمعون تلميذ المسيح.

والثالث: تاريخ ألفه لوقا الطبيب الأنطاكي تلميذ شمعون باطره بعد مارقش وكتبه باليونانية في بلد إفانه[2].

والرابع: تاريخ ألفه يوحنا بن سبذاي بعد المسيح ببضع وستين سنة، وكتبه باليونانية في بلد أشيه[3] بخط متوسط. قال: ويوحنا هذا هو ترجم انجيل متىَّ صاحبه من العبرانية إلى اليونانية[4].

ثم ليس للنصارى كتاب قديم يعظمونه بعده إلّا[5] والأفركسيس[6]، وهو كتاب ألفه لوقا الطبيب في أخبار الحواريين وأخبار صاحبه بولس البنياميني وسيرهم وقتلهم يكون نحو خمسين ورقة بخط مجموع.

وكتاب الوحي والإعلان[7] ألفه يوحنا بن سبذاي، وهو كتاب في[٢٧] غاية السخف والركاكة ذكر فيه ما رأى في الأحلام، وإذ أسري به.

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١٣/٢.

(٢) كذا في الأصول وفي الفصل: إقامة.

(٣) كذا في الأصول وفي الفصل: إستيه.

(٤) ابن حزم، الفصل/ ١٣/٢ ـ ١٤.

(٥) ساقطة من ت.

(٦) هو كتاب أعمال الرسل. وهو ضمن الكتاب المقدس.

(٧) هو كتاب رؤيا يوحنا اللاهوتي، وهو ضمن الكتاب المقدس.

والرسائل القانونية[1]، وهي سبع رسائل فقط، منها ثلاث رسائل ليوحنا بن سبذاي، ورسالتان لشمعون باطره، ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار، ورسالة ليهوذا بن يوسف تكون كل رسالة من ورقة إلى ورقتين، ورسائل بولس[2] تلميذ باطره وهو خمس عشرة رسالة تكون أربعين ورقة.

ثم كل كتاب لهم بعد ذلك لا خلاف بينهم إنه تأليف المتأخرين لمجامع البطارقة والأساقفة الكبار الستة وسائر مجامعهم الصغار، وفقهم في أحكامهم الذي عمله لهم ركريد الملك، وبه يعمل نصارى الأندلس. ثم لسائر النصارى أحكام آخر من عمل أساقفتهم ثم أخبار شهدائهم[3].

قال[4]: فجميع نقل النصارى راجع إلى ثلاثة: بولش ومارقش ولوقا، وهؤلاء لا ينقلون إلا عن خمسة وهم: باطرة، ويوحنا، ومتى، ويعقوب، ويهوذا.

قال[5]: وجميع الأناجيل الأربعة وبقية هذه الكتب عند جميع فرق النصارى على نسخة واحدة، ورتبة واحدة، لا يُمكَّن أحد أن يزيد فيها كلمة ولا ينتقص منها أخرى إلَّا افتضح عند جميع النصارى.

قال[6]: وأمر النصارى أضعف من أمر اليهود بكثير، لأن اليهود كانت أهل مملكة وجمع عظيم. وإنما دخله الداخلة عليهم في التوراة بعد سليمان عليه السلام، إذ ظهر فيهم الكفر وعبادة الأوثان، وقتل الأنبياء وحرق التوراة، فنهب البيت مرة بعد مرة إلى أن تلفت دولتهم على ذلك.

وأما النصارى فلا خلاف بينهم أنه لم يؤمن بالمسيح في زمانه إلا مائة وعشرون

---

(١) الرسائل موجودة في الكتاب المقدس بعد رسائل بولس.

(٢) مجموع رسائل بطرس في الكتاب المقدس، ثلاثة عشر رسالة.

(٣) ابن حزم، الفصل: ٢/١٤ ـ ١٥.

(٤) ابن حزم، الفصل: ٢/١٥.

(٥) ابن حزم، الفصل: ٢/١٦.

(٦) ابن حزم، الفصل: ٢/١٦ ـ ١٧.

رجلاً ونساءكن، ينفقن عليه، ثم كانوا إلى ثلاثمائة سنة بعده كل من ظهر منهم قتل، وفي خلال ذلك ذهب الانجيل المنزل إلَّا فصولاً يسيرة أبقاها الله حجة عليهم، ولم يظهروا حتى تنصر قسطنطين الملك(١).

قال(٢): وإنما كان أريوسا هو وابنه [٢٨] بعده يقولان: إن المسيح عبد مخلوق نبي فقط. قال: وكل دين هكذا، فمحال أن يصبح فيه نقل متصل لا لمعجز ولا غيره مما ينقله كافة عن كافة حتى يبلغ المشاهدة.

قال(٣): ومعتمد النصارى كله في التثليث، وأن المسيح هو الله أو ابن الله، واتحاد اللاهوت بالناسوت، إنما هو كله على أناجيلهم، وألفاظ تعلقوا بها مما في كتب اليهود كالزبور، وكتاب أشعيا، وكتاب أرميا، وكلمات يسيرة من التوراة وكتب سليمان، وكتاب زخريا.

وقد نازعتهم اليهود في تأويلها، فحصلت دعوى مقابلة لدعوى، وما كان هكذا فهو باطل، وقد تبين فساد تلك الكتب، وأنها مفتعلة مبدّلة للاختلاف في نصوصها، وانقطاع الطريق منهم إلى من نسبت إليه تلك الكتب بما لا يمكن أحد دفعه ألبتة(٤).

ولإقرار النصارى بأن أناجيلهم ليست [منزلة](٥) ولكنها كتب موافقة لرجال ألّفوها، فبطل كل تعلق لهم، وقال ما معناه: أنهم استندوا إلى التوراة التي بأيدي اليهود مع مخالفتهم لها، وتكذيبهم لنصها، ولا يصح الاحتجاج بتصحيح ما يكذب(٦).

قال(٧): ادعى علماء النصارى أنهم اعتمدوا على التوراة التي ترجمها السبعون

---

(١) ابن حزم، الفصل: ١٧/٢.
(٢) ابن حزم، الفصل: ١٧/١.
(٣) ابن حزم، الفصل: ١٨/٢.
(٤) ابن حزم، الفصل: ١٨/٢ ـ ١٩.
(٥) إضافة من الفصل.
(٦) ابن حزم، الفصل: ١٩/٢.
(٧) ابن حزم، الفصل: ٢١/٢ ـ ٢٢.

شيخا لبطليوس لا على التي كتب عزرا الوراق، واليهود مؤمنون بكلتا النسختين. والخلاف عند النصارى موجود فيهما لأن في توراة اليهود التي لا اختلاف فيها بين الربانية والغانانية والعيسوية منهم، إن آدم لما عاش ثلاثين ومائة سنة ولد [له ولد][1] كشبهه وجنسه وسماه شيث. وفي توراة اليهود أن شيث لما عاش خمسين ومائة سنة ولد إينوش، وفي توراة اليهود أن إينوش لما عاش تسعين سنة ولد قينان، وفي توراة اليهود أن قينان لما عاش سبعين سنة ولد مهلال وعند النصارى أن قينان عاش مائة سنة وسبعين سنة ولد [٢٩] مهلال.

وفي توراة اليهود أن مهلال لما عاش خمساً وستين سنة ولد يارد، واتفقت الطائفتان في عمر يارد إذ ولد له خنوخ، وأطال أبو محمد ابن حزم في هذا لإظهار تكذيب النصارى بما احتجوا به[2].

وقال بعد ذلك[3]: فتولد بين الطائفتين من الاختلاف المذكور زيادة ألف عام وثلاثمائة عام وخمسين عاماً عند النصارى في تاريخ الدنيا على ما هو عند اليهود في تاريخها، وهي تسعة عشر موضعاً. فوضح اختلاف التوراة. ومثل هذا من التكاذب لا يجوز أن يكون من عند الله تعالى أصلاً، ولا من قول نبي البتة، ولا من قول صادق عالم من عرض الناس، فبطل بهذا بلا شك أن تكون التوراة وتلك منقولة نقلاً يوجب صحة العلم، لكن نقلاً فاسداً مدخولاً مضطرباً.

قال[4]: وفي إنجيل متى: أن المسيح قال لهم: ليكن دعاؤكم على ما أصف: يا أبانا السماوي تقدس اسمك. ثم قال بعد ذلك: وقد علم أبوكم أنكم ستحتاجون إلى جميع هذا. وفي آخر الإنجيل أنه قال لهم: أنا ذاهب إلى أبي[5]، وأبيكم، إلهي وإلهكم.

---

(١) إضافة من الفصل.
(٢) ابن حزم، الفصل: ٢١/٢ ـ ٢٢.
(٣) ابن حزم، الفصل، ٢٣/٢ ـ ٢٤.
(٤) ابن حزم، الفصل: ٥١/٢.
(٥) ت: أمي.

قال: فما ترى للمسيح من البنوة لله تعالى إلا ما لسائر الناس ولا فرق، فمن أين خصوه بأنه ابن الله دون سائرهم كلهم إلّا إن كذبوه في هذا القول فليختاروا أحد الأمرين ولابد، ثم من أين خصوا كل من سوى المسيح بأن الله تعالى إلهه، ولم يقولوا أن الله إله المسيح، كما قال هو بلسانه فلابد ضرورة من الإقرار بأن الله هو إله المسيح، وإن سائر الناس أبناء الله تعالى، أو يكذبوا المسيح في نصف كلامهم، وحسبهم بهذا فساداً وضلالاً.

ثم قال[1]: وكثيراً ما يحكون في جميع الأناجيل في غير ما موضع أنه إذا أخبر المسيح عن نفسه، سمى نفسه ابن الإنسان، ومن المحال والحمق أن يكون إله ابن إنسان أو يكون ابن إله وابن إنسان معاً، وأن يلد إنسان إلهاً.

ثم قال[2]: وفي إنجيل يوحنا أن المسيح قال [٣٠] لهم: أنا رجل أدّيت إليكم الحق الذي سمعتموه عن الله[3]، فهذا إقرار بأنه رجل مؤدٍ ما سمع فقط. مع استشهادهم في إنجيل متى بقول أشعيا النبي في المسيح: أن الله تعالى قال فيه: هذا غلامي المصطفى وحبيبي الذي تخيرته[4]. فصحّ أنه نبي من الأنبياء وعبد.

قال[5]: واعلموا أنهم بأجمعهم متفقون على أن يصوروا في كنائسهم صوراً ثم يسجدون لها سجود عبادة،، ويصومون لها تديناً، وهذا هو عبادة الأوثان بلا شك، وهم ينكرون عبادة الأوثان، ثم يعبدونها علانية، وحجتهم في هذا حجة عباد الأوثان، وهي أنهم يتقربون بها إلى أصحاب تلك الصور لا إلى الصور بأعيانها.

واعلموا أنهم لم يزالوا بعد المسيح بأزيد من مائة عام يصومون في شهر كانون

---

(١) ابن حزم، الفصل: ٢/٥٣.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٢/١٩١.

(٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح ٨، الآية ٤٠ وفيه «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله».

(٤) إنجيل حتى، الإصحاح ١٢، الآية ١٧ ـ ١٨.

(٥) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٠٥.

الآخر إثر عيدالحميم[1] أربعين يوماً متصلة، ثم يفطرون، ثم يُعَيِّدون الفصح مع اليهود، اقتداءً بالمسيح إلى أن أبطل ذلك عليهم خمسة من البطاركة اجمعوا ونقلوا صيامهم، وفصحهم إلى ما هم عليه اليوم. فكيف ترون هذا الدين، ولعب أهله به وحكمهم بأن ما كان عليه المسيح والحواريون ضلالاً، ولا يختلفون في أن شرائعهم كلها إنما هي من عمل أساقفهم وملوكهم علانية، فكيف يلقى الله تعالى على دين بغير[2] المتدين به بلسانه، ويعلم بقلبه أنه ليس من عند الله تعالى، ولا مما جاء به نعوذ بالله من الخذلان[3].

قال أبو محمد[4]: وبقي لهم اعتراضان، أحدهما أن قالوا: قال الله عز وجل في كتابكم حكايةً عن المسيح عليه السلام إنه قال ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[5] الآية. وقال تعالى مخاطباً للمسيح عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾[6] قلنا: نعم هذا خبر حق، ووعد صدق، وإنما أخبر تعالى عن المؤمنين ولم يسمهم، ولا شك أن من ثبت عليه الكذب من باطره، ويوحنا، ومتىَّ، ويهوذا، ويعقوب، ليسوا منهم، لكنهم من الكفار المدعين له الربوبية[٣١].

وأما الموعودون بالنصر إلى يوم القيامة، المؤمنون بالمسيح عليه السلام، فهم نحن المسلمون المؤمنون به حقاً وبنبوته ورسالته[7]، لا من كفر به، وقال: إنه كذاب، أو قال: إنه إله أو ابن إله، تعالى الله عن ذلك.

والثاني أن قالوا: في كتابكم ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[8] وفيه ﴿هَلْ

---

(١) كذا في الأصول، وفي الفصل: الحجيج.

(٢) كذا في الأصول، وفي الفصل: يُقِرّ.

(٣) ابن حزم، الفصل: ٢٠٥/٢.

(٤) ابن حزم، الفصل: ٢٠٨/٢ ـ ٢٠٩.

(٥) سورة الصف، الآية ١٤.

(٦) سورة آلم عمران، الآية ٥٥.

(٧) ت: ورسالاته.

(٨) سورة الفجر، الآية ٢٢.

يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1] فهلّا قلتم في التوراة والإنجيل كما قلتم في كتابكم؟ قلنا: بين الأمرين فرق ظاهر إذ الذي في القرآن ظاهر لا يحتاج فيه إلى تأويل. إنما معنى وجاء ربك، ويأتيهم الله، هو أمر معلوم في اللغة التي بها نزل القرآن مشهور فيها بقول جاء الملك، وأتانا الملك، وإنما أتى جيشه وأمره، فليس فيما تلوتم أمر ينكر، وليس كذلك ما في توراتكم وأناجيلكم من التكاذب والتناقض[2].

وقال ما معناه[3]: إن قالوا كيف تحققون نقلكم لكتابكم وإنكم لمختلفون في قرآنكم، وبعضكم يزيد حروفاً وبعضكم يسقطها. وقد قال: إن عثمان أسقط ستة أحرف من المصحف حين[4] جمع الناس عليه، وإن مصحف ابن مسعود خلاف مصحفكم، وإن بعض الصحابة قرأ القرآن بقراءات لا يستحل القراءة بها، والرافضة تدعي تبديل القرآن، ثم نقض ذلك كله.

قال[5]: أما الاختلاف في القراءات فإننا وإن اختلفنا فيها فكلها متواترة، وأيها قرأنا به فهي قراءات صحيحة، وكلها مضبوطة معلومة لا زيادة فيها ولا نقص، وإنما عثمان فلم يسقط شيئاً، وكيف كان يقدر على ذلك لو أراده، وحاشاه، وهو ما ولي إلَّا والإسلام قد ملأ الحجاز والبحرين وعُمان واليمن ومصر والشام والعراق، وملئت بالمصاحف المساجد، وكثرت به القراءات، وعلم النساء والصبيان وإنما خشي رضي الله عنه أن يدس مبطلاً شيئاً فكتب مصاحف، فجمع عليها ليراجع فيما اختلف فيه.

وأما مصحف ابن مسعود، فلا خلاف فيه وإنه كقراءته [٣٢] وهي قراءة عاصم المشهورة المقرؤ بها. وأما ما قرأ به الصحابة مما لا نستحل نحن القراءة به فهذا حق، وإن بلغنا الغاية في تعظيمهم فلسنا نبعد عنهم الوهم والخطأ، ولا نقلدهم في شيء مما

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٠.
(٢) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٣) ابن حزم، الفصل: ٢/٢٠٩.
(٤) ساقطة من ت.
(٥) ابن حزم، الفصل: ٢/٢١٢.

قالوه، وإنما نأخذ عنهم ما أخبرونا به عن رسول الله ﷺ بما هو عندهم بالمشاهدة والسماع.

وأما عصمتهم من الخطأ والزلل فما قالوه برأي أو بظن فلا نقول بذلك، ولو أنكم أنتم فعلتم كذلك بأحباركم وأساقفتكم الذين بينكم وبين الأنبياء عليهم السلام لكنتم متبعين للحق المنزل مجانبين للخطأ المهمل، لكن لما لم[1] تفعلوا هكذا بل قلدتموه في كل ما شرعوه لكم هلكتم في الدنيا والآخرة[2].

وأما دعوى الروافض فإنهم ليسوا من المسلمين، وهم فرقة حدثت بعد النبي ﷺ بخمس وعشرين سنة، وهي طوائف أشدها غلّوا يقولون بإلهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأقلهم غلواً يقولون أن الشمس ردت له مرتين، فقوم هذا أقل مراتبهم في الكذب، ايستشنع منهم كذب يأتون به[3].

قال[4]: ومما يبين كذب الروافض أن عليا الذي هو عند أكثرهم إله خالق، وعند بعضهم نبي ناطق، وعند سائرهم إمامٌ معصوم، ولي الأمر وملك فبقي خمسة أعوام، وتسعة أشهر خليفة مطاعاً، ظاهر الأمر، ساكناً بالكوفة، مالكاً للدنيا ــ حاشى الشام ومصر ــ والعراق يقرأ في المساجد وفي كل مكان، وهو يؤم الناس به والمصاحف معه، وبين يديه، فلو رأى فيه تبديلاً كما تقول الرافضة كان يقر على ذلك، ثم ولي ابنه الحسن بعده، وهو عندهم كأبيه فجرى على ذلك، فكيف يسوغ لهؤلاء أن يقولوا أن في المصحف حرفاً زائداً أو ناقصاً مع هذا.

ولقد كان جهاد من حرَّف القرآن وبدّل الإسلام أو كد عليه من قتال أهل الشام الذين إنما خالفوه في رأي يسير رأوه ورأى خلافه فقط، فلاح [٣٣] كذب الرافضة ببرهان، والحمد لله تعالى[5].

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٢١١/٢.

(٣) ابن حزم، الفصل: ٢١٣/٢٠.

(٤) ابن حزم، الفصل: ٢١٦/٢.

(٥) ابن حزم، الفصل: ٢١٧/٢.

تتميم لما تقدم في ذكر:

قال في الصحاح[1]: الأمة الجماعة هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع، وكل جنس من الحيوان أمة. وفي الحديث لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها.

أمة السريان والصابئين:

قال ابن سعيد المغربي[2]: أمة السريان هي أقدم الأمم، وكان كلام آدم وبنيه بالسرياني، وملتهم هي ملة الصابئين، ويذكرون أنهم أخذوا دينهم عن شيث وأدريس، ولهم كتاب يعزونه إلى شيث، ويسمونه صحف شيث يذكر فيه مكارم الأخلاق ومحاسنها مثل الكرم والشجاعة والصدق والتعصب للغريب وما أشبه ذلك، ويذكر الرذائل ويأمر باجتنابها.

ولهم عبادات منها سبع صلوات، منهن خمس توافق صلوات المسلمين، والسادسة صلاة الضحى، والسابعة صلاة يكون وقتها في تمام السادسة من ساعات الليل، وصلواتهم كصلوات المسلمين من النية، وأن لا يخلطها المصلى بشيء من غيرها، ولهم الصلاة على الميت من غير سجود ولا ركوع، ويصومون ثلاثين يوماً، وإن نقص الشهر الهلال صاموا تسعاً وعشرين يوماً،وكان الصابئون يراعون في صومهم الهلال بحيث يكون الفطر، وقــد دخلت الشمس الحمل[3]، ويصومون من ربع الليل الأخير إلى غروب قرص الشمس.

ولهم أعياد عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة بيوت شرفها، والخمسة المتحيرة زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، ويعظمون بيت مكة، ولهم بظاهر حران مكان يحجونه، ويعظمون أهرام مصر، ويزعمون أن أحدها قبر شيث، والآخر قبر

---

(١) الجوهر ي، الصحاح: ١٣٨٤/٢ مادة أمم.

(٢) في الأصول أبو سعيد، والصواب ما أثبت، وينقل العمري في كتابه هنا عن كتاب ابن سعيد لذة الأحلام في تاريخ الأعجام. وهو في حكم المفقود. أنظر: أبو الفداء، المختصر: ١٤/١.

(٣) ك: الجهل.

إدريس، وهو خنوخ، والآخر قبر صابي بن إدريس الذي[1] ينسبون إليه، ويعظمون دخول الشمس برج شرفها[2].

قال ابن حزم[3]: والدين الذي انتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر، والغالب على الدنيا إلى أن[34] أحدثوا فيه الحوادث، فبعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام بالدين الذي نحن عليه الآن.

قال الشهرستاني[4]: والصابئون يقابلون الحنيفية، ومدار مذهبهم التعصب للروحانيين، كما أن مذهب الحنفاء[5] التعصب للبشر الجسمانيين.

ثم أمة القبط:

وهم من ولد حام بن نوح، وكان سكناهم بديار مصر، وكانوا أهل ملك عظيم، وعزٍّ قديم، واختلط بالقبط طوائف كثيرة من اليونان والعماليق والروم وغيرهم، وإنما صاروا أخلاطاً لكثرة من تداول عليهم، فإن أكثر من يملك مصر الغرباء. وكان القبط في سالف الدهر صابئة يعبدون الهياكل والأصنام، وكان منهم علماء بضروب[6] من علم الفلسفة وخاصة بعلم الطلسمات والنيرنجات والمزاهي المحرقة والكيمياء، وكانت مدينة ملكهم مدينة منف وهي على جانب النيل من غربيه، وكانت ملوكهم تلقب بالفراعنة، وقد تقدم ذكرهم[7].

أمة الفرس:

ومساكنهم وسط المعمور، ويقال لها أرض فارس، ومنها كرمان والأهواز وأقاليم

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١/١٠٧.

(٣) ابن حزم، الفصل: ١/٨٨.

(٤) الشهرستاني، الممل: ٢/٢٨٩.

(٥) ت: الحنيفا.

(٦) ك: يصرون.

(٧) أبو الفداء، المختصر: ١/١٠٨.

يطول ذكرها، وجميع ما دون جيحون من تلك الجهات يقال له إيران، وهي أرض الفرس. وأما ما وراء جيحون فيقال له توران، وهو أرض الترك.

وقد اختلف في نسب الفرس، فقيل: إنهم من ولد فارس بن إرم بن سام. وقيل: من ولد يافث، والفرس يقولون: إنهم من ولد كيومرت، وكيومرت عندهم هو الذي ابتدأ منه النسل مثل آدم عندنا. ويذكرون أن الملك لم يزل فيهم من كيومرت وهو آدم إلى الإسلام، خلا تقطع حصل من مدد يسيرة لا يعتدون به مثل تغلب الضحاك وفراسياب التركي، وملوك الفرس عند الأمم أعظم ملوك العالم. وكان لهم العقول الوافرة، وكان لهم من ترتيب المملكة ما لم يلحقهم فيه أحد من الملوك، وكانوا لا يولون ساقط البيت شيئاً من أمور الخاصة.

[٣٥] والفرس فرق كثيرة فمنهم الديلم، وهم سكان الجبال، ومنهم الجيل وهم يسكنون الوطاة التي بجبال الديلم وأرضهم ساحل بحر طبرستان، ومنهم الكرد، ومنازلهم شهرزور، وقيل: إن الكرد من العرب، وتنبطوا، وقيل: إنهم أعراب العجم(١).

وكان للفرس ملة قديمة، وكان(٢) يقال للدائنين بها الكيومرتيه، أثبتوا إلهاً قديماً وسموه يزدان، وإلهاً مخلوقاً من الظلمة محدثا وسموه أهرمن، ويزدان عندهم هو الله تعالى، وأهرمن هو إبليس، وأصل دينهم مبنياً على تعظيم النور وهو يزدان، والتحرز من الظلمة وهو أهرمن، ولما عظموا النور عبدوا النيران، وكان الفرس على ذلك حتى ظهر زرادشت، وكان على أيام بشتاسف ملك الفرس المقدم الذكر في الفصل الثاني، وأظهر زرادشت المعجزات لبشتاسف فقبل دينه ودخل فيه. ثم صارت الفرس على دينه، وذكر لهم زرادشت كتاباً زعم أن الله تعالى أنزله عليه، وزرادشت من أهل قرية من قرى أذربيجان، ولهم في خلق زرادشت وولادته كلام طويل أضربنا عنه لعدم فائدته(٣).

وقال زرادشت بالناري(٤) فإنه خالق النور والظلمة ومبدعهما، وهو واحد لا

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١٠٨/١.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) الشهرستاني، الملل: ٢٦١/٢ - ٢٦٦، أبو الفداء، المختصر: ١٠٨/١ - ١٠٩.

(٤) كذا في الأصل وفي الملل، والمختصر: الباري.

شريك له، وإن الخير والشر والصلاح والفساد إنما حصل من امتزاج النور بالظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم، ولا يزال المزاج حتى يغلب النور الظلمة، ثم يتخلص الخير إلى عالمه، والشر إلى عالمه، وقبلة زرادشت إلى المشرق حيث مطلع الأنوار.

وللفرس أعياد ورسوم فمنها النوروز، وهو اليوم الأول فيروزدينماه واسمه يوم جديد لكونه غرّة الحول الجديد، وبعده أيام خمسة كلها أعيادهم، ومن أعيادهم التيركان، وهو ثالث عشر تيرماه، ولما وافق اسم اليوم الثالث عشر اسم شهره صار عيداً، وكذلك كل يوم يوافق اسم شهره، فهو عيد ومنها المهرجان، وهو سادس [٣٦] عشر مهرماه، وفيه زعموا أن افريدون ظفر بالساحر الضحاك وحبسه في جبل بيماوند، ومنها الفروزدجان، وهو الأيام الخمسة الأخيرة من أبان ماه تضع المجوس فيها الأطعمة والأشربة لأرواح موتاهم على زعمهم. ومنها ركوب الكوسج، وهو أنه كان يأتي في أول فصل الربيع رجل كوسج راكب حمار، وهو قابض على غراب، وهو يتروح بمروحة، ويودع الشتاء وله ضريبة يأخذها، ومتى وجد بعد ذلك اليوم ضرب. ومنها السذق، وهو العاشر من بهماه، ويوقد في ليلته النيران، ويشرب حولها. ومنها الكنبهارات، وهي أقسام مختلفة لأيام السنة في أول كل قسم منها خمسة أيام هي الكنبهارات. زعم زرادشت أن في كل يوم خلق الله تعالى نوعاً من الخليقة من سماء وأرض وماء ونبات وحيوان وأنس. فتم خلق العالم في ستة أيام(١).

أمة اليونان:

قال أبو عيسى(٢): المنقول عن أصحاب السير أن اليونان نجموا من رجل اسمه اللن ولد سنة أربع وسبعين من مولد موسى عليه السلام، وكان أوميرس الشاعر اليوناني موجوداً

---

(١) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٦٦، أبو الفداء، المختصر: ١/١٠٩.

(٢) أبو عيسى هو: أحمد بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم، له مصنف البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان، ذكر فيه التواريخ القديمة، وهو في حكم المفقود، ومنه ينقل العمري. انظر: النديم، الفهرست: ٢٣٣، ياقوت، معجم الأدباء: ١،٣٦٩، أبو الفداء، المختصر: ١/١٣.

سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى وهو تاريخ ظهر أمة اليونان واشتهارهم ولم(1) يعلموا قبل ذلك(2).

قال: وكانوا أهل شعر وفصاحة، ثم صارت فيهم الفلسفة [في زمن](3) بختنصر. قال: وهذا منقول من كتاب كوراس اليوناني الذي رد فيه على لليان الذي ناقض الإنجيل(4).

وقد نقل الشهرستاني(5): أن أبيدقليس كان في زمن داود النبي عليه السلام. وكذلك فيثاغورس كان في زمن سليمان بن داود، وأخذ الحكمة من معدن النبوة. وكانت وفاة سليمان بن داود لمضي خمسمائة وخمس وستين(6) سنة من وفاة موسى، وكان أبيدقليس وفيثاغورس فيلسوفين مشهورين من اليونانيين. فقول أبي عيسى أن الفلسفة إنما ظهرت من اليونان في زمن بخت نصر غير مطابق لما نقله الشهرستاني، فإن بخت نصر بعد[٣٧] سليمان عليه السلام بأربعمائة سنة.

وقال ابن سعيد المغربي(7): إن بلاد اليونان كانت على الخليج القسطنطيني من شرقية وغربية إلى البحر القسطنطيني، وهو خليج بين بحر الروم وبحر القرم، واشتهر بحر القرم في قديم الزمان ببحر نِيْطش(8).

قال: واليونان فرقتان، فرقة يقال لهم الإغريقيون وهم اليونانيون الأول، والفرقة الثانية يقال لهم اللطينيون، وقد اختلف في نسب اليونان، فقيل: إنهم من ولد يافث، وقيل: إنهم من جملة الروم من ولد صوفر بن العيص بن يعقوب عليه السلام، وكانت ملوك

---

(١) ت: ولو.
(٢) أبو الفداء، المختصر: ١٠٩/١.
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصول، والإضافة من أبي الفداء، المختصر: ١٠٩/١.
(٤) أبو الفداء، المختصر: ١٠٩/١.
(٥) ورد في الأصول: الشهرستاني. والخبر في الشهرستاني، الملل: ٣٧٩/٢، ٣٨٥.
(٦) «خمس وستين» ساقطة من ت.
(٧) في الأصول: أبو سعيد المغربي، والصواب ما أثبت.
(٨) أبو الفداء، المختصر: ١١٠/١.

اليونان المقدم ذكرهم من أعظم الملوك، ودولتهم من أفخم الدول، ولم يزالوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم، فدخلت اليونان في الروم ولم يبق لهم ذكر(١).

قال: وكانت بلادهم في الربع الشمالي المغربي يتوسطها الخليج القسطنطيني، وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم مثل العلوم المنطقية والطبيعة والرياضة والإلهية، وكانوا يسمون العلم الرياضي جومطريا، وهو المشتمل على علم الهيئة والهندسة والحساب واللحون والإيقاع وغير ذلك. فكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلسوفاً وتفسيره محب الحكمة، لأن فيلو(٢) محب، وسوف الحكمة(٣).

أمة اليهود:

اليهود قوم موسى بن عمران عليه السلام، وسيأتي ذكره وذكر يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام وذكر أولاده الاثني عشر الذين هم أسباط بني إسرائيل، وكل بني إسرائيل من نسلهم. وأمة اليهود أعم من بني إسرائيل لأن كثيراً من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهوداً، ولم يكونوا من بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه الملة، وغيرهم دخيل فلذلك يقال لكل يهودي إسرائيلي(٤).

وأما اسم اليهود، فقد قال الشهرستاني في الملل والنحل(٥): هاد(٦) الرجل أي رجع وتاب[٣٨] وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾(٧)، أي رجعنا وتضرعنا.

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١١٠/١.

(٢) ك: فلو.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١١٠/١.

(٤) هذا تنبه جيد من قبل العمري لمسألة أن اليهود ليسوا جميعهم من ولد يعقوب عليه السلام بل هم خليط من مجموعة من الأمم، لا نستطيع بعد اختلاطهم تبين أبناء يعقوب عليه السلام منهم.

(٥) الشهرستاني، الملل: ٢٣٠/٢، وذكر أبو الفداء، المختصر: ١١٣/١ أن البيروني أدق في تفسير اسم اليهود من الشهرستاني، وأنه مأخوذ من يهذوا أحد الأسباط لأن الملك استقر في ذريته.

(٦) ت: هذا.

(٧) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

وكتابهم التوراة، وقد اشتملت على أسفار: فالسفر الأول فيه مبتدأ الخلق، ثم ذكر الأحكام والحدود والأحوال والقصص والمواعظ والأذكار في سِفْرٍ سِفْر[1]، وأنزل الله على موسى الألواح أيضاً، وهي شبه مختصر ما في التوراة[2].

وقال ابن ظفر في خير البشر بخبر البشر[3]: وليس في التوراة ذكر القيامة ولا الدار الآخرة، ولا فيها ذكر البعث، ولا الجنة ولا النار، وكل جزاء فيها فإنما هو معجل في الدنيا، فيجزون على الطاعة بالنصر على الأعداء، وطول العمر، وسعة الرزق، ويجزون على الكفر والمعصية بالموت، ومنع القطر، والحميات، وأن ينزل عليهم بدل المطر الغبار والظلمة، وليس فيها ذم الدنيا ولا الزهد فيها، ولا صلاة معلومة، بل الأمر بالبطالة والقصف[4] واللهو[5].

ومما تضمنته التوراة أن يهوذا بن يعقوب في زمان نبوته زنى بامرأة ابنه وأعطاها عمامته وخاتمه رهناً على جدي هو أجرة الزنا، وهو لا يعرفها، فأمسكت رهنه عندها، وأرسل إليها بالجدي، فلم تأخذه، وظهر حملها، وأخبر يهوذا بذلك فأمر بها أن تحرق. فأرسلت إليه بالرهن تعرف يهوذا أنه هو الذي زنى بها فتركها، وقال: هي أصدق[6].

ومما تضمنته أيضاً: أن روبيل بن يعقوب وطئ سرية أبيه وعرف بذلك أبوه[7]، ومما تضمنته أيضاً أن أولاد يعقوب من أمته كانوا يزنون بنساء أبيهم، وجاء يوسف وعرف أباه بخبر إخوته القبيح[8]. ومما تضمنته أن راحيل أخت ليا وكان الأختان

---

(١) عدد أسفار التوراة تسع وثلاثين سفراً تبدأ بسفر التكوين وتنتهي بسفر ملاخي.

(٢) الشهرستاني، الملل: ٢٣١/٢.

(٣) هو محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي الصقلي (ت٥٦٥هـ) وكتابه في حكم المفقود.

(٤) كذا في الأصول، وفي المختصر لأبي الفداء: القذف.

(٥) أبو الفداء، المختصر: ١١٣/١.

(٦) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٥٨.

(٧) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٣٥.

(٨) لم نجد في التوراة هذا الخبر بل الذي في التوراة وسفر التكوين الإصحاح ٣٧٠: أن يوسف بلغ والده عن أخوته بنميمتهم الرديئة.

المذكورتان قد جمع بينهما يعقوب في عقد نكاحه. وكان ذلك حلالاً في ذلك الزمان، فاشترت راحيل من أختها وضرتها ليا مبيت ابن ليا، وهو روبيل ليطأها بنوبتها من يعقوب[١]. وقد تضمنت من نحو ذلك كثيراً أضربنا عنه.

ورجعنا إلى كلام [٣٩] الشهرستاني. قال[٢]: واليهود تدعي أن الشريعة لا تكون إلّا واحدة، وهي ابتدأت بموسى وتمت له، وأما ما كان قبل موسى فإنما كان حدوداً عقلية، ولم يجيزوا النسخ أصلاً، ولم يجيزوا بعده شريعة أخرى، قالوا: والنسخ في الأوامر بداء، ولا يجوز البداء على الله تعالى.

وافترقت اليهود فرقاً كثيرة. فالربانيون[٣] منهم كالمعتزلة فينا، والقراءون كالمجبرة والمشبهة فينا، ومن فرق اليهود الغانانيون نسبوا إلى رجل منهم يقال له غانان بن داود[٤]، وكان رأس جالوت أي الحاكم على اليهود بعد خراب بيت المقدس الخراب الثاني، فإنه لما ذهب الملك منهم بعد بخت نصر، صار الحاكم في القدس عليهم يسمى بهردوس[٥]، وكان والياً من جهة الفرس، ثم صار من جهة اليونان، ثم صار من جهة أغسطس، ومن بعده من ملوك الروم حتى غزاهم طيطوس وأبادهم، وخرّب بيت المقدس الخراب الثاني على ما تقدم ذكره[٦]، وتفرقت اليهود في البلاد، ولم يعدلهم بعد ذلك رياسة يعتد بها، وصار منهم بالعراق، وتلك النواحي جماعة، وكان لهم كبير منهم يرجعون إليه، فصار اسم ذلك الكبير الذي يرجعون إليه رأس الجالوت[٧].

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٣٠.

(٢) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٣٢.

(٣) ك: كالربانيون.

(٤) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٣٢ ـ ٢٣٨.

(٥) في الأصول: بعردوس.

(٦) لم يقدم العمري معلومات عن بني إسرائيل قبل هذا الموضع، ويبدو أنه نقل العبارة عن أبي الفداء لأنه ينقل عنه هنا حرفياً، وأبي الفداء قدم في كتابه الحديث عن بني إسرائيل قبل الحديث عن فرقتهم.

(٧) أبو الفداء، المختصر: ١/١١٤.

فمن مذهب الغانانية أنهم يصدقون المسيح في مواعظه وإشاراته، ويقولون: إنه لم يخالف التوراة البتة، بل قررها ودعا الناس إليها، وهو من أنبياء بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة. لكنهم لا يقولون برسالته، ومنهم من يقول: إن عيسى لم يدع أنه نبي مرسل، ولا أنه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى، بل هو من أولياء الله تعالى المخلصين، وإن الإنجيل ليس كتاباً منزلاً عليه وحياً من الله تعالى، بل هو جميع أحواله، نسخه أربعة من أصحابه، واليهود ظلموه أولاً حيث كذبوه، ولم يعرفوا دعواه وقتلوه آخراً، ولم يعرفوا محله [٤٠] وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا في مواضع كثيرة وهو المسيح(١).

وأما السامرة فمنهم فرقة يقال لها الدستانية وتسمى هذه الفرقة أيضاً القانية ومنهم فرقة يقال لها كوسانية، والدستانية يقولون إنما الثواب والعقاب في الدنيا. وأمّا الكوسانية فيقرون بالآخرة وعقابها وثوابها(٢).

ولليهود أعياد وصيام، فمنها: الفسخ(٣) وهو الخامس عشر من نيسان، وهو العيد الكبير، وهو أول أيام الفطير السبعة، ولا يجوز لهم فيها أكل الخمير لأنهم أمروا في التوراة أن يأكلوا الفطير فيها. وآخر هذه الأيام الحادي والعشرون من الشهر المذكور. والفسخ يدور من ثاني عشر آذار إلى خامس عشر نيسان، وسبب ذلك أن بني إسرائيل لما تخلصوا من فرعون وحصلوا في التيه اتفق ذلك ليلة الخامس عشر من نيسان اليهود والقمر تام الضوء، والزمان زمان ربيع، فأمروا بحفظ هذا اليوم و(٤)في أواخر هذه الأيام غرق فرعون في بحر السوب وهو القلزم(٥).

ولهم عيد العنصرة، وهو بعد الفطير بخمسين يوماً، ويكون في السادس من سيون. وفيه حضر مشايخ بني إسرائيل مع موسى إلى طور سيناء فسمعوا كلام الله من الوعد والوعيد فاتخذوه عيداً.

---

(١) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٣٨.
(٢) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣) كذا في الأصول والصواب الفصح.
(٤) الواو ساقطة من ت.
(٥) أبو الفداء، المختصر: ١/١١٤.

ومن أعيادهم[1] عيد الحنكة، ومعناه التنظيف، وهو ثمانية أيام، أولها الخامس والعشرون من كسليو[2]، يسرجون في الليلة الأولى سراجاً، وفي الثانية اثنين وكذلك حتى يسرجوا في الثمانية ثمانية سرج، وهو تذكار أصغر ثمانية أخوة قبل ملوك يونان، فإنهم كان قد تغلب عليهم ملك اليونان ببيت المقدس، وكان يفترع البنات قبل الإهداء إلى أزواجهن، وكان له سرداب قد أخرج منه حبلين عليهما جلجلان، فإذا احتاج إلى امرأة حرّك الأيمن فتدخل عليه، فإذا فرغ منها حرّك الأيسر فيخلى سبيلها.

وكان في بني [٤١] إسرائيل رجل له ثمانية بنين وبنت واحدة، فتزوجها إسرائيلي وطلبها، فقال له أبوها: إن أهديتها إليك افترعها هذا الملعون، ووبخ بنيه بذلك، فانفوا منه، ووثب الصغير منهم فلبس ثياب النساء، وخبأ خنجراً تحت ثيابه وأتى باب الملك على أنه أخته، فلما حرّك الجرس أدخل عليه، فحين خلا به قتله، وأخذ رأسه وحرّك الحبل الأيسر، وخرج فخلى سبيله، فلما ظهر قتله للملك ظهر فرح بني إسرائيل بذلك وسرورهم، واتخذوه عيداً في ثمانية أيام تذكاراً بالأخوة الثمانية.

ومن أعيادهم المظال وهي سبعة أيام، أولها خامس تشري الأول يستظلون فيه بالخلاف والقصب وغير ذلك[3]، وهي فريضة على المقيم دون المسافر، وأمروا بذلك تذكاراً بإظلال الله تعالى إياهم بالغمام في التيه، وآخر المظال وهي حادي عشر[4] تشرى يسمى عرابا، وتفسيره شجرة الخلاف، وغد عرابا يسمى التبريك وتبطل فيه الأعمال، ويزعمون أن التوراة فيه استتم نزولها، ولذلك يتبركون فيه بالتوراة.

وليس في صياماتهم فرض غير صوم الكبور وهو عاشر يوم من تشرى اليهود، وابتداء الصوم من اليوم التاسع قبل غروب الشمس بنصف ساعة إلى بعد غروبها من اليوم

---

(١) ت: أعياد.

(٢) هو الخامس والعشرين من تشرين الأول.

(٣) «وغير ذلك» ساقطة من ت.

(٤) ك: حادي عشري.

العاشر بنصف ساعة تمام خمس وعشرين ساعة، وكذلك غيره من صياماتهم النوافل والسنن[1].

وأما النصارى:

وهم أمة المسيح عليه السلام، قال الشهرستاني في كتاب الملل والنحل قال[2]: وللنصارى في تجسد الكلمة مذاهب، فمنهم من قال: أشرقت على الجسد إشراق النور على الجسم، ومنهم من يقول: انطبعت انطباع النقش في الشمعة، ومنهم من يقول تدرع اللاهوت بالناسوت، ومنهم من يقول: مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء.

واتفقت النصارى على أن المسيح قتلته اليهود وصلبوه، ويقولون: إن المسيح بعد أن قتل وصلب عاش، فرأى شخصه [٤٢] شمعون الصفا وكلمه وأوصى إليه ثم فارق الدنيا ورفعه الله إلى السماء[3].

قال[4]: وافترقت النصارى اثنين وسبعين فرقة، وكبارهم ثلاث فرق: الملكانية، والنسطورية واليعقوبية، أما الملكانية فهم أصحاب ملكا الذي ظهر ببلاد الروم واستولى عليها، فصار غالب الروم ملكانية وهم يصرحون بالتثليث، وعنهم أخبر الله تعالى بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾[5].

وصرحت الملكانية أن المسيح ناسوت كلي، وهو قديم أزلي من قديم أزلي، وقد ولدت مريم إلهاً أزلياً، والقتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت معاً، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله تعالى وعلى المسيح حقيقة، وذلك لما وجدوا في الإنجيل إنك الابن الوحيد، ولما رووا عن المسيح أنه قال حين يصلب: اذهب إلى أبي[6] وآتيكم،

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١/١١٤ ـ ١١٥

(٢) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٤٥.

(٣) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٤٥.

(٤) الشهرستاني، الملل: ٢/٢٤٧ ـ ٢٥٦ وفيه الكلام على فرق النصارى الثلاثة.

(٥) سورة المائدة، الآية ٧٣.

(٦) «إلى أبي» ساقطة من ت.

وجرَّموا أريوس[١] لما قال القديم هو الله تعالى، والمسيح مخلوق.

واجتمعت البطارقة والمطارنة والأساقفة بالقسطنطينية بمحضر من قسطنطين ملكهم، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، واتفقوا على هذه الكلمة اعتقاداً ودعوة، وذلك قولهم: نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن إيسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وكل شيء، الذي من أجلنا وأجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وتولد من مريم البتول، وصلب ودفن، ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بالقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس، روح الحق الذي يخرج من أبيه لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية، وبقيام أبداننا وبالحياة الدائمة أبداً. هذا هو الاتفاق الأول على هذه الكلمات، ووضعوا شرائع النصارى عندهم [٤٣] واسم الشريعة الهيمانوت.

وأما النسطورية فهم[٢] أصحاب نسطورس وهم عند النصارى كالمعتزلة عندنا، وخالفت النسطورية الملكانية في اتحاد الكلمة، فلم يقولوها، بل إن الكلمة أشرقت على جسد المسيح كإشراق الشمس على البلور، وقالت النسطورية أيضاً: إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته خلافاً للملكانية.

وأما اليعقوبية فهم أصحاب يعقوب البردعاني، وكان راهباً بالقسطنطينية[٣]، قالوا: إن الكلمة انقلبت لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح[٤].

قال ابن حزم[٥]: واليعقوبية يقولون: إن المسيح هو الله قتل وصلب، وأن العالم

---

(١) في الأصول: أرموس.

(٢) في الأصول: فهو.

(٣) في الأصول: بالقسطنية.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل: ٢٤٨/٢ - ٢٥٦.

(٥) ابن حزم، الفصل: ١١١/١.

بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، وعنهم أخبر القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

وقال ابن سعيد في كتابه: البطارقة للنصارى بمنزلة الأئمة أصحاب المذاهب للمسلمين، والمطارنة مثل القضاة، والأساقفة مثل المفتين، والقسيسون بمنزلة القراء، والجاثليق بمنزلة الإمام الذي يؤم في الصلاة، والشمامسة بمنزلة المؤذنين وقومة المساجد[2].

وأما صلوات النصارى، فهي سبع عند الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء ونصف الليل، يقرءون فيها بالزبور المنزل على داود تبعاً لليهود، والسجود[3] في صلاتهم غير محدود، وقد يسجدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة، ولا يتوضئون للصلاة، وينكرون الوضوء على المسلمين واليهود، يقولون الأصل طهارة القلب[4].

وقال الخرقي في نهاية الإدراك في دراية الأفلاك: إن للنصارى أعياداً وصيامات، فمنها صومهم الكبير، وهو تسعة وأربعون يوماً، أولها يوم الاثنين، وهو أقرب اثنين إلى الاجتماع الكائن فيما بين اليوم الثاني من شباط إلى اليوم الثامن من آذار، فأي اثنين كان أقرب إليه، إما[5] قبل الاجتماع[٤٤] وإما بعده، فهو رأس صومهم، ثم وجدت ضابطاً لرأس صومهم أصح مما ذكر، وهو أن ينظر إلى الديخ وهو سادس كانون الثاني في أي شهر هو من الشهور الغربية، ثم ينتقل إلى سابع عشرين الشهر الغربي الذي يليه من حين رؤية الهلال، فإن كان يوم الاثنين فهو رأس صومهم، وإلى ثاني اثنين كان أقرب إليه قبله أو بعده فهو رأس صومهم، وفطرهم أبداً يكون يوم الأحد الخمسين من هذا الصوم. وسبب تخصيصهم هذا الوقت بالصوم أنهم يعتقدون أن البعث والقيامة يكون في مثل

(١) سورة المائدة، الآية ١٧.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١١٦/١ نقلاً عن ابن سعيد.

(٣) في الأصول: المسجود.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١١٧/١.

(٥) ك: إنما.

يوم الفصح، وهو اليوم الذي قام فيه المسيح من قبره بزعمهم(١).

ومن أعيادهم الشعانين الكبير، وهو يوم الأحد الثاني والأربعين من الصوم، وتفسير الشعانين، التسبيح، لأن المسيح دخل في يوم الشعنينة المذكور إلى القدس راكب أتان يتبعها جحش، فاستقبله الرجال والنساء والصبيان، وبأيديهم ورق الزيتون وقرءوا بين يديه التوراة إلى أن دخل بيت المقدس واختفى عن اليهود يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وغسل يوم الأربعاء أيدي أصحابه الحواريين وأرجلهم، ومسحها في ثيابه، وكذلك يفعله القسيسون بأصحابهم في هذا اليوم، ثم أفصح في يوم الخميس بالخبر، وصار إلى منزل واحد من أصحابه، ثم خرج المسيح ليلة الجمعة إلى الجبل فسعى به يهوذا، وكان أحد تلامذته إلى كبار اليهود وأخذ منهم ثلاثين درهماً رشوة ودلهم عليه، فألقى الله تعالى شبهه على يهوذا المذكور، فأخذوه وضربوه، ووضعوا على رأسه إكليلاً من الشوك، وأنالوه كل مكروه وعذبوه بقية تلك الليلة أعني ليلة الجمعة إلى أن أصبحوا، فصلبوه بزعمهم أنه المسيح على ثلاث ساعات من النهار المذكور، وتسمى جمعة الصلبوت، وصلب معه لصان على جبل يقال له الجمجمة، واسمه بالعبرانية كاكله، وماتوا على مازعموا في الساعة التاسعة ثم استوهب يوسف النجار [٥٥] وهو ابن عم مريم، المسيح من قائد اليهود هيردوس واسمه فيلاطوس. وكان ليوسف المذكور منزلة ومكانة عنده فوهبه إياه فدفنه يوسف في قبر كان أعده له، وزعمت النصارى أنه لبث في القبر ليلة السبت ويوم السبت وليلة الأحد ثم قام صبيحة يوم الأحد الذي يفطرون فيه، ويسمون النصارى ليلة السبت بشارة الموتى بقدوم المسيح(٢).

ولهم: الأحد الجديد، وهو أول أحد بعد الفطر، ويجعلونه مبدأ الأعمال وتاريخاً للشروط والقبالات، ولهم السلاقا ويكون يوم الخميس بعد الفطر بأربعين يوماً فيه تسلّق المسيح مصعداً إلى السماء من طور سيناء، ولهم عيدالقبطي قسطي، وهو يوم الأحد بعد

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١١٧/١ نقلاً عن الخرقي.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١١٧/١ ـ ١١٨.

السلاقا بعشرة أيام، واسمه مشتق من الخميس بلسانهم، وفيه تجلى المسيح لتلامذته وهي السليحيون، ثم تفرقت ألسنتهم وتوجهت كل فرقة إلى موضع لغتها، ولهم الديخ وهو سادس كانون الثاني، وهو اليوم الذي غمس فيه يحيى ين زكريا للمسيح في نهر الأردن. ولهم عيد الصليب، وهو مشهور، ولهم الميلاد، وفي الليلة المذكورة ولدت مريم للمسيح في قرية من القدس تسمى بيت لحم(١).

وأما الإنجيل فهو كتاب يتضمن أخبار المسيح من ولادته إلى وقت خروجه من هذا العالم، كتبه أربعة نفر من أصحابه وهم متى، كتبه بفلسطين بالعبرانية، ومرقوس كتبه بالروم باللغة الرومية، ولوقا كتبه بالإسكندرية باللغة اليونانية، ويوحنا كتبه بأفسيس باليونانية أيضاً، ولهم صوم السليحين، وهو ستة وأربعون يوماً أولها يوم الاثنين تالي القبطي قسطي بعد الفطر الكبير بخمسين يوماً، ولهم فيه خلاف، ولهم صوم نينوى ثلاثة أيام، أولها يوم الاثنين الذي قبل الصوم الكبير باثنين وعشرين يوماً، ولهم صوم العذارى وهو ثلاثة أيام أولها يوم الاثنين يتلو الديخ [٤٦] وفطره يوم الخميس(٢).

وأما الأمم التي دخلت في دين النصارى فمنها:

أمة الروم

قال أبو عيسى: وهذه الأمة على كثرتها، وعظم ملوكها، واتساع بلادها، إنما نجمت من ولد العيص بن إسحاق بن الخليل عليهم السلام، وكان أول ظهورهم من سنة ست وسبعين وثلاثمائة لوفاة موسى، وساروا إلى البلاد المعروفة ببلاد الروم وسكنوها، وحينئذ ابتدأت الروم توجد(٣).

ومن كتاب ابن سعيد المغربي: إن الروم يعرفون ببني الأصفر، وهو روم بن عيص على أحد الأقوال. وقال في الكامل وغيره: إن الروم كانت تدين بدين الصابئه ويعبدون

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١١٨/١.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١١٨/١.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١١٨/١.

أصناماً على أسماء الكواكب، وما زالت الروم وملوكها ورعيتها كذلك حتى تنصر قسطنطين وحملهم على دين النصرانية فتنصروا عن آخرهم[1].

ومنها:

الأرمن

وكانت بلادهم ارمينية وقاعدة مملكتهم خلاط، فلما ملكها المسلمون صارت الأرمن رعية فيها، ثم تغلّب الأرمن على الثغور، وملكوا من المسلمين طرسوس والمصيصة، واستولوا على تلك البلاد التي تعرف اليوم ببلاد سيس، وسيس مدينة ولها قلعة حصينة، وهي كرسي مملكة الأرمن في زماننا هذا[2].

ومنها:

الكرج

وبلادهم مجاورة لبلاد خلاط، آخذة إلى الخليج القسطنطيني وممتدة إلى نحو الشمال. ولهم جبال منيعة، والكرج خلق كثير، وقد غلب عليهم دين النصارى، ولهم قلاع حصينة، وبلاد متسعة، وهم في زماننا هذا مصالحون للتتر، وبيت الملك عندهم محفوظ متوارث يليه الرجال والنساء من ذلك البيت[3].

ومنها:

الجركس

وهم على بحر نيطش من شرقيه، وهم من ولد يافث وقد غلب عليهم دين النصارى[4].

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١١٨/١.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

ومنها:

الروس

ولهم بلاد في بحر نيطش، وهو أيضاً من ولد يافث وقد غلب عليهم دين النصارى[١].

ومنها:

البلغار

منسوبون إلى المدينة التي يسكنونها، وهي في شمالي بحر نيطش. وكان الغالب عليهم النصرانية، ثم أسلم منهم جماعة[٢] [٤٧].

ومنها:

الألمان

وهي من أكثر النصارى، يسكنون في غربي القسطنطينية إلى الشمال، وملكهم كثير الجنود، وهو الذي سار إلى صلاح الدين بن أيوب في مائة ألف مقاتل، فهلك ملك الألمان المذكور، وغالب عسكره في الطريق قبل أن يصلوا إلى الشام على ما يذكر في أخبار صلاح الدين[٣].

ومنها:

البرجان

وهم أيضاً أمم كثيرة طاغية قد فشا فيها التثليث، وبلادهم واغلة في الشمال وأخبارهم وسيرهم منقطعة عنا لبعدهم وجفاء طباعهم[٤].

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١١٩/١.

ومنها:

الفرنج

وهم أمم كثيرة، وأصل قاعدة بلادهم فرنجة، ويقال فرنسه، وهي مجاورة لمدينة جزيرة الأندلس من شمالها، ويقال لملكهم الفرنسيس، وهو الذي قصد ديار مصر، وأخذ دمياط، ثم أسره المسلمون، واستنقذوا دمياط منه، ومنّوا عليه بالإطلاق، وذلك بعد موت الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب على ما يذكر في سنة ثمان وأربعين وستمائة للهجرة إن شاء الله تعالى، وقد غلب الفرنج على معظم جزيرة الأندلس، ولهم في بحر الروم جزائر مشهورة مثل سقلية، وقبرس، واقريطش وغيرها[١].

ومنها:

الجنوية

منسوبون إلى جنوة، وهي مدينة عظيمة من غربي القسطنطينية على بحر الروم[٢].

ومنهم:

البنادقة

وهم أيضاً طائفة مشهورة، ومدينتهم تسمى البندقية، وهي على خليج يخرج من بحر الروم وتمتد نحو سبعمائة ميل في جهة الشمال والغرب، وهي من أعمال جنوة، وبينها وبين جنوة في البحر مسيرة شهرين لأنهم يخرجون من شعب البحر التي على طرفها البندقية وقدرها سبعمائة ميل إلى بحر الروم مشرقاً، ثم يسيرون إليه مغرباً إلى جنوة[٣].

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١/١١٩.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١/١١٩.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٠.

وأما رومية

فهي مدينة عظيمة تقع غربي جنوة والبندقية، وهي مقر خليفتهم واسمه الباب وهي شمال الأندلس(١).

ومنها:

الجلالقة

وهم أشد من الفرنج[٤٨] وهم أمة يغلب عليها الجهل والجفاء، وشأنهم أنهم لا يغسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم حتى تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بغير استئذان، وهم كالبهائم ولهم بلاد كثيرة في شمالي الأندلس(٢).

ومنها:

الباشقرد

وهم أمة كثيرة ما بين بلاد الألمان وبلاد فرنجة، وغالبهم نصارى، وفيهم مسلمون، وهم شرسوا الأخلاق(٣).

وأما أمم الهند

فهم فرق كثيرة. قال الشهرستاني: من فرقهم **الباسوية**، زعموا أن لهم رسولاً ملكاً روحانياً نزل بصورة البشر فأمرهم بتعظيم النار والتقرب إليها بالطيب والذبائح، ونهاهم عن القتل والذبح بغير النار، وسن لهم أن يتوشحوا بخيط يعقدونه من مناكبهم إلى تحت شمائلهم، وأباح لهم الزنا، وأمرهم بتعظيم البقر والسجود لها، ويتضرعون في التوبة إلى التمسح بها(٤).

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١٢٠/١، هذا ولابد من التنويه إلى أن العمري، ذكر في الجزء الثاني من المسالك مخطوط [سزكين]: ١١٢ ـ ١٢٣ معلومات غاية في الأهمية والتوسع عن ممالك أوروبا وملوكها وجغرافية بلادها وبالنقد المستعمل فيها، وكل تلك المعلومات استقاها من مصادر شفوية موثوقة برأيه.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١٢٠/١.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١٢٠/١.

(٤) الشهرستاني، الملل: ٧١٧/٣.

قال: ومنهم:

اليهودية

ومن مذهبهم أن لا يعافوا شيئاً، لأن الأشياء جميعها صنع الخالق، ويتقلدون بعظام الناس، ويمسحون رؤوسهم وأجسادهم بالرماد، ويحرمون[1] الذبائح والنكاح وجمع الأموال[2]. ومنهم **عبدة الشمس**، ومنهم **عبدة القمر**، ومنهم **عبدة الأصنام** وهم معظمهم، ولهم أصنام عدة كل صنم لطائفة، ويكون لذلك الصنم شكل الآخر بأن يكون ذلك الصنم بأيدٍ كثيرة أو على هيئة امرأة ونحو ذلك[3].

ومنهم:

عباد الماء

ويقال لهم الجلهلينية، ويزعمون أن الماء ملك، وهو أصل كل شيء، فإذا أراد الرجل عبادته تجرّد وستر عورته، ثم يدخل الماء إلى وسطه، فيقيم فيه ساعتين أو أكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغاراً ويلقيها في الماء وهو يسبح ويقرأ، وإذا أراد الانصراف حرّك الماء بيده ثم أخذ منه فنقط على رأسه ووجهه ثم يسجد وينصرف[4].

ومنهم:

عباد النار

ويقال لهم الأكبواطرية، وصورة عبادتهم أن يحفروا في الأرض اخدوداً مربعاً، ويأججوا النار [٤٩] فيه، ثم لا يدعون طعاماً لذيذاً، ولا شراباً لطيفاً إلّا طرحوه في تلك النار تقرباً إليها، وحرموا إلقاء النفوس فيها خلافاً لطائفة أخرى[5].

---

(١) في الأصول: ويحرسون والمثبت من الملل والنحل.

(٢) الشهرستاني، الملل: ٧١٨/٣ وفيه اسمهم «الباهودية».

(٣) الشهرستاني، الملل: ٧٢٢/٣ ـ ٧٢٣.

(٤) الشهرستاني، الملل: ٧٢٧/٣.

(٥) الشهرستاني، الملل: ٧٢٨/٣.

ومنهم:

البراهمة

أصحاب الفكرة وهم أهل العلم بالفلك والنجوم، ولهم طريقة في إحكام النجوم تخالف طريقة منجمي الروم والعجم، وذلك أن أكثر أحكامهم باتصالات الثوابت[1] دون السيارات. وإنما سموا أصحاب الفكرة لأنهم يعظمون أمر الفكر، ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمعقول، ويجتهدون حتى يصرفوا الفكر عن المحسوسات، فإذا تجرد الفكر عن هذا العالم تجلّى له ذلك العالم، فربما يخبر عن المغيبات، وربما يوقع الوهم على حي فيقتله، وإنما يصرفون الفكر عن المحسوسات بالرياضة البليغة المجهدة، وبتغميض[2] أعينهم أياماً. والبراهمة لا يقولون بالنبوات وينفونها بالكلية، ولهم على ذلك شبه مذكورة في الملل والنحل[3].

قال ابن سعيد المغربي ونقله عن المسعودي: إن الهنود لا يرون إرسال الريح من بطونهم، والسعال عندهم أقبح من الضراط، والجشاء أقبح من الفساء[4].

ومما نقله عن المسعودي أيضاً: أن الهنود يحرقون أنفسهم، وإذا أراد الرجل منهم ذلك أتى إلى باب الملك فاستأذنه في إحراق نفسه، فإذا أذن له ألبس ذلك الرجل أنواع الحرير المنقوش، وجعل على رأسه إكليلاً من الريحان، وضربت الطبول والصنوج بين يديه، وقد أججت له النيران، ويدور كذلك في الأسواق وحوله أهله وأقاربه حتى إذا أدنى[5] من النار أخذ خنجراً بيده، وشق به جوفه ثم يهوي بنفسه في النار[6].

قال: والزنا فيما بينهم مباح. قال: ويعظمون نهر كنك، وهو نهر عظيم يجري في حدود الهند من الشرق إلى الغرب، وهو حاد الإنضباب، وللهنود رغبة في إتلاف

---

(١) ك: النوابت.

(٢) ك: وبغميض.

(٣) الشهرستاني، الملل: ٣/٧٠٦ ـ ٧٠٩.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢١ نقلاً عن ابن سعيد.

(٥) ك: دنى.

(٦) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢١.

نفوسهم بالتغريق في هذا النهر، ويقتلون أنفسهم على شطه أيضاً، ويتهادون ماءه كما يتهادى المسلمون ماء[٥٠] بئر زمزم[١].

ولهم ممالك:

فمنها: مملكة المانكير، وهي من أعظم ممالك الهند، وهي على بحر اللان الذي عليه السند، ولا يدرك لهذا البحر قعر، وهو أول بحار الهند من جهة الغرب. وهذه المملكة أقرب ممالك الهند إلى بلاد الإسلام، وهي التي كان يكثر محمود بن سبكتكين غزوها حتى فتح منها بلاد كثيرة، ومن مدنها العظام مدينة لهاور، وهي على جانبي نهر عظيم مثل بغداد[٢].

قال: ويلي مملكة المانكير، **مملكة القنوج**، وهي مملكة بلادها الجبال، وهي منقطعة عن البحر، وكل من ملكها يسمى نوده، ولأهل هذه المملكة أصنام يتوارثون عبادتها، ويزعمون أن لها مائتي ألف سنة[٣].

قال: ويجاور هذه المملكة، مملكة قمار، وهي التي ينسب إليها العود القماري، وهو على البحر، وأهل هذه المملكة يرون تحريم الزنا من بين أهل الهند[٤].

قال ابن سعيد ـ ورواه عن المسعودي ـ : إن ملكها يسمى زهم. قال: ويجاريه من جهة البحر ملك الجزر المسمى بالمهراج[٥].

قال: وآخر ممالك الهند من جهة المشرق **مملكة بنارس**، وهي تلي بلاد الصين، وهي مملكة طويلة، وعرضها نحو عشرة أيام، وجزائر بحر الهند في نهاية الكثرة، وهي في البحر قبالة هذه الممالك، ولها ملوك قد أكثر المصنفون فيها الكلام مما لا يليق بهذا المختصر[٦].

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١٢١/١.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١٢١/١.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١٢١/١.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١.

(٥) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١ نقلاً عن ابن سعيد.

(٦) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١.

وأما أمة السند:

وهم من غربي الهند، وبلاد الهند قسمان، قسم على جانب البحر، ويقال لتلك البلاد اللان، ومن مشاهير مدن هذا القسم المولتان والمنصورة والدبيل والمسلمون غالبون على هذا القسم.

الثاني في البر إلى جانب الجبل وبلاد كثيرة الوعر، ويقال للبلاد التي في هذا القسم، القشمير[١] وهي في أيدي الكفار، وأهلها يعبدون الأوثان مثل الهنود. وكل من ملك السند يقال له رتبيل[٢].

وأما أمم السودان

وهم من ولدحام، قال ابن سعيد: وأديان السودان [٥١] مختلفة فمنهم مجوس، ومنهم من يعبد الحيات، ومنهم أصحاب أوثان. قال: وقد روي عن جالينوس أنهم مخصوصون بعشر خصال، وهي: تفلفل الشعر، وخفة اللحا، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد اللون، وشق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب[٣]، فمن أعظم أممهم:

الحبش: وهي[٤] بلاد تقابل الحجاز، وبينهما البحر، وهي بلاد طويلة عريضة، وبلادهم في جنوب النوبة وشرقيها، وهم الذين ملكوا اليمن قبل الإسلام، وخصيان الحبشة أفخر الخصيان. ويجاور الحبشة من الجنوب الزيلع، فالغالب عليهم دين الإسلام[٥]. ومن أمم السودان:

النوبة: وهم يجاورون الحبشة من جهة الشمال والغرب، والنوبة في جنوب حدود

---

(١) ت: القسمين.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١. ويجب التنويه هنا إلى أن العمري تناول ممالك الهند والسند بالتفصيل في الجزء الثالث.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١.

(٤) ساقطة من ك.

(٥) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١.

مصر، وكثيراً ما يغزوهم عسكر مصر. ويقال إن لقمان الحكيم من النوبة، وأنه ولد بأيلة، ومنهم ذوالنون المصري وبلال بن حمامه[1].

ومن أممهم:

البجا: وهمْ شديدو السواد عراة، ويعبدون الأوثان، وهم أهل أمن وحسن مرافقة للتجار. وفي بلادهم الذهب، وهم فوق الحبشة إلى جهة الجنوب على النيل[2]. ومن أممهم:

الدمادم: وبلادهم على النيل فوق بلاد الزنج، والدمادم تتر السودان، فإنهم خرجوا عليهم كما فعل التتر بالمسلمين، وهم مهملون في أديانهم، ولهم أمثال[3] وأوضاع مختلفة، وفي بلادهم الزرافات، وفي أرض الدمادم يفترق النيل إلى جهة مصر وإلى الزنج[4]. ومن أممهم:

الزنج: وهم أشد السودان سواداً، ويحاربون راكبين البقر، ويعبدون الأوثان، وهم أهل بأس وقساوة، والنيل ينقسم فوق بلادهم عن رجل المقسم[5].

ومن أممهم:

التكرور: وهم على غربي النيل، وبلادهم جنوبية غربية، وببلادهم يتكون الذهب، وهم كفار مهملون، ومنهم مسلمون[6]. ومن أممهم:

الكانم: وأكثرهم مسلمون، وهم على النيل، وهم على مذهب مالك[7].

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١٢٢/١.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١٢٣/١.

(٣) كذا في الأصول، في المختصر: ولهم أوثان، وهو الصواب.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١٢٣/١.

(٥) أبو الفداء، المختصر: ١٢٣/١.

(٦) أبو الفداء، المختصر: ١٢٣/١.

(٧) أبو الفداء، المختصر: ١٢٣/١.

وأما مدينة [٥٢] غانة فإنها من أعظم مدن السودان، وهي في أقصى جنوب الغرب، ويسافر التجار من سجلماسة إلى غانة. وسجلماسة مدينة بالمغرب الأقصى بعيدة، ويسيرون منها إلى غانة في مفازة لا يوجد فيها الماء نحو اثنى عشر يوماً، ويحملون إليها الملح والتين والنحاس والودع، ولا يجلبون منها إلَّا الذهب العين(١).

وأما أمم الصين

فبلاد الصين طويلة عريضة طولها من المشرق إلى المغرب أكثر من شهرين، وعرضها من بحر الصين في الجنوب إلى سد يأجوج ومأجوج في الشمال، وقد قيل: إن عرضها أكثر من طولها. ويشتمل عرضها على الأقاليم السبعة، وأهل الصين أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلاً، وأحذق الناس في الصناعات، وهم قصار القدود، عظام الرؤوس، وهم أهل مذاهب مختلفة، فمنهم مجوس وأهل أوثان ونيران.

قال(٢): ومدينتهم الكبرى يقال لها جمدان، يشقها نهرها الأعظم، وهم أحذق الناس بالنقش والتصوير، بحيث يعمل أحدهم بيده ما يعجز أهل الأرض عنه. والصين الأقصى يقال له صين الصين، وهو نهاية العمارة من جهة الشرق، وليس وراءه غير البحر المحيط، ومدينته العظمى يقال لها السيلى، وأخبارهم منقطعة عنا(٣).

وأما بنو كنعان:

وهم أهل الشام. قال ابن سعيد: وإنما سمي الشام شاماً لسكنى سام بن نوح، وسام اسمه بالعبرانية شام، بشين معجمة. وقيل: تشامت بنو كنعان، فسمي شاماً(٤).

وكنعان هو ابن **مازيغ** بن حام، وكان كنعان من جملة الذين اتفقوا على بناء

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٣. هذا وقد توسع العمري في الحديث عن ممالك المسلمين في بلاد السودان توسعاً كبيراً في الجزء الثالث من موسوعته، وقد صدر بتحقيقنا.

(٢) الإشارة «قال» تعود إلى ابن سعيد، فعليه يعتمد العمري وأبي الفداء في هذه المادة.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٣.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٤.

الصرح، فلما بلبل الله ألسنتهم في أواخر سنة ستمائة وسبعين للطوفان، وتفرقوا، نزل كنعان بالشام، ونزل في جهة فلسطين، وتوارثها بنوه، وكان كل من ملك بني كنعان يلقب جالوت إلي أن[1] قتل داود جالوت آخر ملوكهم، وكان اسمه كلياد كما ذكره البيروني في أواخر كتاب الجواهر. فتفرقت بنو كنعان، وسار منهم طائفة إلى[٥٣] المغرب وهم البربر[2].

وأما البربر:

فقد اختلف فيهم اختلافاً كثيراً، فقيل إنهم من ولد فارق بن بيصر بن حام، والبربر يزعمون أنهم من ولد قيس عيلان، وصنهاجة من البربر ويزعمون أنهم من ولد إفريقيس بن صيفي الحميري، وزناتة منهم تزعم أنها من لخم، والأصح أنهم من ولد كنعان، وأنه لما قتل ملكهم جالوت، وتفرقت بنو كنعان قصدت منهم طائفة بلاد المغرب وسكنوها وهم البربر وقبائل البربر كثيرة جداً[3]، فمنهم:

كتامة: وبلادهم الجبال من المغرب الأوسط، وكتامه الذين أقاموا دولة الفاطميين مع أبي عبدالله الشيعي.

ومنهم صنهاجة: ومنهم ملوك إفريقية بنو بلكين بن زيري.

ومن قبائل البربر **زناته:** وكان منهم ملوك فاس وتلمسان وسجلماسة، ولهم الفروسية والشجاعة المشهورة[4].

ومن البربر، المصامدة: وسكناهم في جبل درن، وهم الذين قاموا بنصر المهدي بن تومرت، وبهم ملك عبدالمؤمن وبنوه بلاد المغرب، واتفق[5] من المصامدة قبيلة

---

(١) ساقطة من ت.
(٢) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٤.
(٣) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٤.
(٤) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٤.
(٥) كذا في الأصول، وفي المختصر: وانفرق، وهو الصواب.

هناتة، وملك منهم إفريقية والمغرب الأوسط، أبو زكرياً يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص. ثم خطب لولده أبي عبدالله بن يحيى بالخلافة. واستمر الحال على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة على ما سيذكر(١).

ومن قبائل البربر، **برغواطه**، ومنازلهم في تامستا وجهات سلا على البحر المحيط. والبربر مثل العرب في سكنى الصحارى ولهم لسان غير العربي. قال ابن سعيد المغربي: ولغاتهم ترجع إلى أصول واحدة وتختلف فروعها حتى لا يفهم بعضهم من بعض إلا بترجمان(٢).

وأما أمة عاد

فهم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكانت عاد في نهاية من عظم الأجساد والتجبر، ونزل عاد لما تبلبلت الألسن في حضرموت، وأرسل الله تعالى إلى بني عاد هوداً نبياً حسبما تقدم، فلم يستجيبوا له، وكانوا أهل قوة وبطش. وكان لهم في الأرض آثار [٥٤] عظيمة حتى قال لهم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾(٣).

وبلاد عاد يقال لها الأحقاف، وهي بلاد متصلة باليمن وبلاد عُمان، وصار الملك في بني عاد. وأول من ملك منهم شداد بن عاد، ثم ملك بعده من بنيه جماعة، وقد كثر الاختلاف في ذكرهم. وجميع ما ذكر من ذلك مضطرب غير قريب للصحة، فأضربنا عنه(٤).

وأما العمالقة

فهم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام، ولما تبلبلت الألسن نزلت العمالقة بصنعاء

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٤.

(٢) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٤.

(٣) سورة الشعراء، الآيات ١٢٨ ـ ١٣٠.

(٤) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٥.

اليمن، ثم تحولوا إلى الحرم، وأهلكوا من قاتلهم من الأمم، وكان من العمالقة جماعة في الشام، وهم الذين قاتلهم موسى عليه السلام، ثم يوشع بعده فأفناهم، وكانت منهم فراعنة مصر، وكان منهم من ملك يثرب وخيبر(١).

قال صاحب الأغاني(٢): وكان سبب سكنى اليهود خيبر وغيرها من الحجاز أن موسى عليه السلام أرسل جيشاً إلى قتال العمالقة أصحاب خيبر ويثرب وغيرهما من الحجاز، وأمرهم موسى أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحداً، فسار ذلك الجيش، وأوقع بالعمالقة، واستبقى منهم ابن ملكهم، ورجعوا به إلى الشام، وقد مات موسى، فقالت لهم بنو إسرائيل: قد عصيتم وخالفتم فلا نأويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها، وقتلنا أهلها، فرجعوا إلى يثرب وخيبر وغيرهما من الحجاز. واستمرت اليهود بتلك البلاد حتى نزلت عليهم الأوس والخزرج لما تفرقوا من اليمن بسبب سيل العرم.

وقيل إن اليهود إنما سكنوا الحجاز لما تفرقوا حين غزاهم بخت نصر، وخرب بيت المقدس والله أعلم(٣).

وأما أمم العرب وأحوالهم:

فقال الشهرستاني في الملل والنحل(٤): والعرب الجاهلية أصناف، فصنف أنكروا الخالق والبعث، وقالوا: بالطبع المحيي والدهر المفني كما أخبر عنهم التنزيل: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[٥٥](٥).

وصنف اعترفوا بالخالق، وأنكروا البعث، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾(٦).

وصنف عبدوا الأصنام، وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل، فكان ودّ لكلب وهو

---

(١) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٥.

(٢) الأصفهاني، الأغاني: ٢٢/٣٤٣.

(٣) أبو الفداء، المختصر: ١/١٢٥.

(٤) الشهرستاني، الملل: ٣/٦٥١ ـ ٦٥٢.

(٥) سورة الجاثية، الآية ٢٤.

(٦) سورة ق، الآية ١٥، والخبر في الشهرستاني، الملل: ٣/٦٥٣.

بدومة الجندل[١]، وسُوَاع لهذيل[٢]، ويغوث لمذحج ولقبائل من اليمن[٣]، ونَسْر[٤] لذي كلاع بأرض حمير[٥]، ويَعُوق لهمدان[٦]، واللات لثقيف بالطائف[٧]، والعزى لقريش وبني كنانة[٨]، ومناة للأوس والخزرج[٩]، وهبل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة[١٠]، وكان أساف ونائله على الصفا والمروة[١١].

وكان منهم من يميل إلى اليهودية، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يميل إلى الصابئة، ويعتقدون في أنواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك إلّا بنَوءٍ من الأنواء، ويقول مطرنا بنو كذا[١٢].

وكان منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجن، وكانت علومهم الأنساب والأنواء والتواريخ، وتعبير الرؤيا. وكانت الجاهلية تعمل أشياء جاء الإسلام بتقريرها، منها عدم حل نكاح البنات والأمهات. فكان أقبح ما يصنعونه الجمع بين الأختين، وكانوا يعيبون المتزوج بزوجة أبيه، ويسمونه الضيزون[١٣].

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام: ١٥، وذكر ابن الكلبي، الأصنام: ٥٦، وصفه فقال: تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذبر [نقش] عليه حلتان، متزر بحلة، مرتدٍ بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل.

(٢) ابن الكلبي، الأصنام: ٩، وذكر أنه أول الأصنام عبادة عند العرب، وأنَّ مقره بُرهاط من أرض ينبع.

(٣) ابن الكلبي، الأصنام: ١٠.

(٤) ت: وتفسر.

(٥) ابن الكلبي، الأصنام: ١١.

(٦) ابن الكلبي، الأصنام: ١٠، وقال إن مقره في قرية لهمدان تسمر خَيْوان بينها وبين صنعاء ليلتان.

(٧) ابن الكلبي، الأصنام: ١٦ ووصفها فقال عنها: وكانت صخرة مربعة، وكان سدنتها من ثقيف بنوعتَّان بن مالك.

(٨) ابن الكلبي، الأصنام: ١٧، ومقرها في وادي حراض قرب مكة.

(٩) ابن الكلبي، الأصنام: ١٣، وقال إن مقرها على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل.

(١٠) ابن الكلبي، الأصنام: ٢٧، وهو أعظم أصنام العرب كان في جوف الكعبة لا كما ذكر العمري على ظهرها، وكان على شكل رجل مصنوع من عقيق أحمر ما عدا اليد اليمنى فمصنوعة من ذهب.

(١١) ابن الكلبي، الأصنام: ٩.

(١٢) الشهرستاني، الملل: ٦٥٩/٣ ـ ٦٦٠.

(١٣) كذا في الأصول، والصواب: الضيزن، والخبر في الشهرستاني، الملل: ٦٦٠/٣ ـ ٦٧٦.

وكانوا يحجون البيت ويحرمون، ويعتمرون ويطوفون ويسعون، ويقفون المواقف كلها، ويرمون الجمار، وكانوا يكبسون في كل ثلاثة أعوام شهراً، ويغتسلون من الجنابة، ويداومون على المضمضة والاستنشاق، وفرك الرأس والسواك والاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الأبط، وحلق العانة، والختان، وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى، وسيأتي ذكر أحسابهم وقبائلهم إن شاء الله تعالى[1].

* * *

(١) الشهرستاني، الملل: ٧٠٢/٣.

[فرق المسلمين]

وأما الكلام على فرق المسلمين، وهي ملة الحق، وأمة الهدى، وهي الناسخة للملل، واللازم حكم دعوتها للأمم، فاعلم أنها تعم كل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وبرئ مما سوى ذلك من الأديان المخالفة، والملل المباينة [٥٦] لثبوت نبوة سيدنا محمد ﷺ، وأنه لا نبي بعده. فأما ثبوت نبوته فلما أتى به من المعجزات، وهي الأمور الخارقة للعادة المقرونة بالتحدي مع عدم المعارضة. وأما كونه لا نبي بعده، فأخباره بذلك بعد أن ثبتت نبوته، ولا يكون النبي إلَّا صادقاً، فثبت أن لا نبي بعده. وأما معجزاته ﷺ[1] الخارقة وبراهينه الساطعة التي نقلها الكواف عنه فهي بحر لا يدرك آخره ولا ينفد جوهره.

قال ابن بطال في شرح البخاري[2]: اجتمع لي من معجزات رسول الله ﷺ ما يبلغ ألف معجزة وسيأتي في ذلك ما فيه غنىً وغناء إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) «صلى الله عليه وسلم» ساقطة من ت.

(٢) كتاب ابن بطال في شرح صحيح البخاري مطبوع في عشرة مجلدات، مؤسسة الرشد، السعودية، ولم نتمكن من تخريج النص الذي عزاه له العمري منه.



[معجزات الرسول ﷺ]

فلنذكر الآن قطرة من هذا البحر، فمنها:

القرآن الذي أنزله الله وتحدى به جميع الخلائق أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، وعلم أنهم لم يعارضوه ولا أتوا به بسورة من مثله من حيث بعث وإلى اليوم الأمر على ذلك. وكان الكفار من أحرص الناس على أبطال قوله، مجتهدين بكل طريق يمكن، فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة في مدة عشرين سنة، وهي تبطل دعوته أن آتوا بمثله ولا يأتون، علم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها فإنه مع وجود هذا الداعي التام إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور. فهذا يوجب علماً يقيناً لكل أحد يعجز جميع أهل الأرض على أن يأتوا بمثله، وإعجازه من وجوه متعددة ليس من جهة واحدة من جهة اللفظ ومن جهة النظم، فإن نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، فإنه[1] ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الرسائل ولا الخطابة ولا نظمه يشبه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ومن عارضه فلم[2] يأت إلا بما يضحك منه. ومن جهة معانيه التي أمر بها ومعانيه التي أخبر بها عن الغيوب، ومن جهة ما بيّن فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية. ومن أضعف الأقوال قول[٥٧] من يقول أنه معجز بالصرفة. وللرد على هذا القول مكان ليس هذا مقامه[3].

ومنها المعجزات المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير وحراسة السماء بالشهب الحراسة

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ت: فما.

(٣) الصرفة: تعني إن الله تعالى صرف الخليقة عن الإتيان بمثل القرآن، فهو بالتالي لا عجز عن التقليد لئن الله لو لم يصرف الناس عن الإتيان بمثل القرآن لأتوا بمثله. وأول من بدأ هذا القول الجاحظ والنظام انظر: محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن: ٥٧ وما بعدها.

الثانية لما بعث ولمعراجه إلى السماء وهي أنواع:

الأول: ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر كما ذكره الله تعالى وصعوده إلى السماء ليلة المعراج، وهذا ما تواترت به الأحاديث وصدق به القرآن[1].

الثاني: آيات الجو كاستسقائه ﷺ واستصحابه وطاعة السحاب له، ونزول المطر وانتصاره بالصبا وغير ذلك.

الثالث: آيته في الحيوان من الأنس والجن والوحوش والأنعام، من ذلك ما رواه أحمد[2] في مسنده عن يعلى بن مرة قال: ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله ﷺ بينما نحن نسير معه إذ مررنا ببعير، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه بالأرض، فوقف عليه النبي ﷺ فقال: أين صاحب هذا البعير، الحديث. قال ثم سرنا من منزلنا منزلاً، فقال النبي ﷺ: انطلق إلى هاتين الشجرتين فقل لهمها إن رسول الله ﷺ يقول لكما أن تجتمعا، فانطلقت، فقلت لهما ذلك، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها، فالتقيا جميعاً، فقضى رسول الله ﷺ حاجته من ورائهما. ثم لما فرغ عادت كل واحدة منها مكانها. وأتته امرأة بصبي لها به لمم، فقالت: يا رسول الله إن ابني به لمم منذ سبع سنين يأخذه كل يوم مرتين، فتفل النبي ﷺ في فيه وقال: اخرج عدو الله، أنا رسول الله فبرأ.

وروى الدارمي[3] عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مسح صدره ودعى فنع نعة خرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي.

وعنه[4] قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فدخل رجل غيضة، فأخرج منها بيضة حمرة، فجاءت الحمرة ترف على[58] رأس رسول الله ﷺ وأصحابه فقال: أيكم

---

(1) البخاري، الصحيح: ٧٦٥، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٣٦).

(2) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٨٩/٢٩، حديث رقم (١٧٥٤٨) وهو عن يعلى بن مرة الثقفي أحد أفاضل الصحابة،وعلق الشيخ شعيب الأرنؤوط على الحديث بقوله:إسناده ضعيف لجهالة عبدالرحمن بن عبدالعزيز

(3) الدارمي، السنن: المقدمة/١٠.

(4) الدارمي، السنن: المقدمة/١١.

فجع هذه؟ فقال رجل من القوم: أنا أخذت بيضتها، فقال: رده رحمة لها.

وروى الحاكم في صحيحه[1]عن سفينة مولى رسول ﷺ قال: ركبنا البحر في سفينة، فانكسرت السفينة، فركبت لوحاً من ألواحها، فطرحني في أجمة فيها أسد، فلم يرعني إلا به، فقلت: يا أبا الحرث أنا مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه وغمز بمنكبيه[2] شقي، فما زال يغمزني ويهديني الطريق حتى وضعني على الطريق، فلما وضعني على الطريق همهم فظننت أنه يودعني.

وفي الصحيحين[3] عن أنس بن مالك قال: كان بالمدينة فزع، فاستعار رسول الله ﷺ فرساً لأبي طلحة، وكان يقطف. فلما رجع قال: وجدنا فرسكم، فكان بعد ذلك لا يجارا.

وعن عبدالله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم، وحدثني حديثاً لا أحب أن أحدثه لأحد من الناس، قال: وكان أحب ما اشتتر به هدفاً أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح رأسه فسكن. قال: لمن هذا الجمل فجاء فتى من الأنصار، فقال: هو لي يا رسول الله، فقال له: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إليّ أنك تجيعه[4].

روى مسلم[5] بعضه وبقيته على شرطه، ورواه أبو داود[6]، والآيات في هذا النوع كثيرة.

---

(١) الحاكم، المستدرك: ٦١٩/٢ (كتاب التاريخ).

(٢) ك: بمنكبه.

(٣) البخاري، الصحيح: ٦٢٦، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم (٢٩٦٩) والذي فيه أن الرسول ﷺ قال: «لم تراعوا أنه لبحر» فما سبق بعد ذلك اليوم.

(٤) أحمد، المسند: ٢٧٤/٤، حديث رقم (١٧٤٥) وعلق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط بقوله: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) مسلم، الصحيح: ١٧٢، كتاب الحيض، حديث رقم (٧٠٠).

(٦) أبو داود، السنن: ٥٩١، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٥٤٩).

الرابع: آثاره في الأشجار والخشب، ففي الصحيحين[1] عن جابر قال: كان المسجد مسقوفاً على جذوع النخل، فكان رسول الله ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع المنبر، فكان عليه، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت الشعار حتى جاء إليه، فوضع عليه يده، فسكت، وفي رواية: فصاح الجذع صياح الصبي.

وروى الترمذي[2] عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة [٥٩] فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله.

الخامس: في الماء والطعام والثمار الذي يكثر ببركته، وهذا باب وسيع نذكر منه ما تيسر. ففي الصحيحين[3] عن أنس أن النبي ﷺ دعا بماء فأتي بقدح زجاج، فجعل القوم يتوضئون فحزرت ما بين السبعين إلى الثمانين. وفي رواية دعا بقدح وأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه[4]. وفي صحيح البخاري[5] عن جابر قال: عطش ونحن بالحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ فجهش الناس نحوه. قال: ما لكم، قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده الكريمة في الركوة فجعل الماء يثور من بين أصابعه كأمثال العيون. فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

وفي صحيح مسلم[6] عن سلمة، قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة خيبر، فأمرنا أن نجمع ما في أزوادنا يعني من التمر، فبسط نطعاً فنثرنا عليه أزوادنا. قال: فتمطيت وتطاولت فحزرته كربضة شاه، ونحن أربع عشرة مائة. قال: فأكلنا، ثم تطاولت فنظرته فحزرته كربضة شاه.

---

(١) البخاري، الصحيح: ٧٥٥، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٥٨٥).

(٢) الترمذي، السنن: ٥/٥٥٣، حديث رقم (٣٦٢٦).

(٣) البخاري، الصحيح: ٧٥٣، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٥٧٤).

(٤) البخاري، الصحيح: ٧٥٣، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٥٧٣).

(٥) البخاري، الصحيح: ٧٥٣، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٥٧٦).

(٦) مسلم، الصحيح: ٨٥٣، كتاب اللقطة، حديث رقم (١٧٣٩).

وفي صحيح البخاري[1] عن جابر أن أباه استشهد وترك ديناً، وترك ست بنات، فلما حضر جِذَاذ النخل، قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أحد[2] وترك ديناً كثيراً وإني أحب أن يراك الغرماء. قال: اذهب فاجعل كل تمرة ناحية، ففعلت ثم دعوته، فلما نظروا إليه كأنما أغروا[3] بي تلك الساعة. فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات ثم جلس عليه، ثم قال: ادع لي أصحابك، فما زال يكيل لهم حتى أدى والله عن والدي أمانته، وأنا أرضى أن يؤدي الله عن والدي ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة واحدة. فسلم الله البيادر كلها حتى إني لأنظر إلى البيدر [٦٠] الذي كان ﷺ كأنها لم تنقص تمرة واحدة.

السادس: تأثيره في الأحجار وتصرفه فيها وتسخيرها له، ففي صحيح البخاري[4] عن أنس قال: صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فقال: أسكن وضربه برجله، فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان. وفي الصحيحين[5] عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: إني لأعرف حجراً كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن.

السابع: تأييد الله له بالملائكة، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[6] وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ إلى ﴿مُسَوِّمِينَ﴾[7]. وقد تواتر

في الحديث[8] ما رآه الصحابة من قتال الملائكة للمشركين، وما كانت سيماهم

---

(١) البخاري، الصحيح: ٥٨٧، كتاب الوصايا، حديث رقم (٣٧٨١).

(٢) ساقطة من ت.

(٣) الأصول: اغمروا، والتصحيح من البخاري.

(٤) البخاري، الصحيح: ٧٧٧، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٩٩).

(٥) لم نعثر على الحديث في الصحيحين، والحديث في الترمذي، السنن: ٥٥٣/٥، حديث رقم (٣٦٢٤).

(٦) سورة الأنفال، الآية ٩.

(٧) سورة آل عمران، الآيتان ١٢٤ - ١٢٥.

(٨) ك: الأحاديث.

ولغتهم في قولهم أقدم حيزوم مما يطول ذكره. وسيأتي إن شاء الله تعالى عند الانتهاء في عمود النسب إليه ﷺ، ما فيه مستمتع وإن كان لا يقنع مقنع في ذكر خصائص شرفه وكمال مواهبه. وإنما نقف للعجز لا لبلوغ الغاية، وندع البحر الروي وإن لم ينفع أدنى الري، وهيهات هيهات الإحاطة، وإنما يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، ومن تيقن الفجر ما لاح على الأفق.

* * *

فصل

[افتراق الأمة]

افترقت الأمة بعد نبيها ﷺ على فرق كثيرة كما أخبر الله تعالى في قوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(1). وقال رسول الله ﷺ: وأنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً(2). وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلو جحر ضب خرب لدخلتموه(3). وإذا تقرر هذا لقد اختلف العلماء في هذا الاختلاف هل هو محصور على أقوال:

الأول[٦١] إنه لا يمكن حصره(4) إذ فرق الأهواء أكثر من أن تحصر وأن يحاط بها، وهو قول جماعة من المتكلمين وضعفوا الحديث الوارد في الحصر، وقد ضعفه ابن حزم(5).

الثاني: إن أصول الأهواء محصورة دون فروعهم، وهذا مقتضى كلام ابن حزم.

قال الإمام أبو محمد(6): فرق المقرين بملة الإسلام خمسة وهي: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج. ثم افترقت كل من هذه على فرق.

---

(١) سورة هود، الآيتان ١١٨ - ١١٩.

(٢) الطبراني، معجم الشاميين: ٢٥٤/١، حديث رقم (٤٣٧) وفيه استقصاء تخريجه.

(٣) الحديث أخرجه الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٦٧٢/٢.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ابن حزم، الفصل: ٢٦٥/٢.

(٦) ابن حزم، الفصل: ٢٦٥/٢.

الثالث: إنها محصورة في ثلاث وسبعين كما اخبر رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي[1]وأبو داود[2] والحاكم في صحيحه[3] عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ : افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة. وروى أبو داود[4] عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة سيفترقون على ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة. لكن لم يتكامل وجودها إلى الآن.

قال أبو المظفر طاهر بن محمد الاسفراييني، قال بعض أهل التحقيق: لم يتكامل وجود هذه الفرق من أهل البدع، وإنما وجد بعضهم، وستوجد بقيتهم قبل يوم القيامة، فإن ما أخبر به الرسول كائن لا محالة.

الرابع: أنها محصورة لكن تبلغ كثيراً من العدد بما يزيد به على المائة، وأكثر من ذلك، وهذا قول الأشعري وغيره، ممن ألف في ذلك. وقد ذكره الأشعري في المقالات[5] والشهرستاني في الملل والنحل[6].

الخامس: قال الشهرستاني[7]: وأهل الأهواء ليس تنضبط مقالاتهم في عدد معلوم وأهل الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد.

السادس: إن الثلاث [٦٢] وسبعين فرقة بأجمعها في الرافضة دون غيرهم، منهم

---

(١) الترمذي، السنن: ٥/٢٥، حديث رقم (٢٦٤٠).

(٢) أبو داود، السنن: ١٠٥١، كتاب السنة، حديث رقم (٤٥٩٦)

(٣) الحاكم المستدرك: ١/٦، ١٢٨.

(٤) أبو داود، السنن: ١٠٥١، كتاب السنة، حديث رقم (٤٥٩٧).

(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١/٦٥.

(٦) الشهرستاني، الملل: ١/ ٤.

(٧) الشهرستاني، الملل: ١/٤.

واحدة على الحق، واثنتان وسبعون في النار. وهذا قد ادعاه بعض الشيعة، وهذا القول أحسن الأقوال.

السابع: إنها موجودة الآن، وقد تكلم بها جماعة من العلماء كأبي المظفر الاسفراييني وغيره. وقال أبو طالب في كتابه قوت القلوب: أصول فرق الأهواء أربعة: القدرية والجهمية والروافض والخوارج. وتفرقت كل فرقة من هؤلاء ثمانية عشر فرقة.

وقال يوسف بن أسباط: أصول البدع أربعة، كل فرقة ثمانية عشر، فلذلك اثنتان وسبعون فرقة[1]. وقال جعفر بن حميد: قلت لعبدالله بن المبارك: على كم افترقت؟ قال: الأصل أربعة فرق الشيعة والحرورية والقدرية والمرجئة. فالشيعة ثلاثة وعشرون، والحرورية إحدى وعشرون، والقدرية ستة عشر، والمرجئة ثلاثة عشر[2]. واختار ابن حامد الحنبلي أيضاً وجودها الآن، ولكن الذين جمعوا في ذلك بينهم خلاف في تعدادها، والوقوف على أعيانها المطابقة لمراد الحديث عسر، وها أنا أذكر من ذلك بتيسير الله تعالى وبه الحول والقوة.

* * *

---

(١) الآجري، الشريعة: ١٧.

(٢) ابن بطة، الإبانة: ١٠٨/١ ـ ١٠٩، ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٣٥٠/٣.



الفرقة الأولى

المرجئـــــــة

والكلام هنا من وجوه أحدها في مواجب التسمية بهذا الاسم. قال الخلال في كتابه السنة[١]: سئل إسحاق بن راهويه: لم سميت المرجئة؟ فقال: لأنهم لا يرجئون الذنوب إلى الله تعالى، ويقولون: المؤمن مغفور له وهو في الجنة. وغيرهم يردون الذنوب إلى الله تعالى، فقيل لإسحاق: فلم قيل لهم مرجئة؟ وهم لا يرجئون الذنوب؟ فقال: قال النضر بن شميل: إنما سموا بهذا الاسم لأنهم يقولون بخلافه، بمنزلة المحكمة، وهم يقولون لا حكم إلا لله، وبمنزلة القدرية وهم يقولون بخلاف القدر. ولو أن رجلاً تبلد أرضاً لسمي أرضياً. وقال الخطابي: إنما سموا مرجئة لأنهم قالوا: نحن مؤمنون حقاً، ولم يرجئوا الأمر[٦٣] في ذلك إلى الله تعالى.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تهذيب الأثار[٢]: إن قال لنا قائل: من المرجئة؟ وما صفتهم؟ قيل: هم موصوفون بإرجاء أمرٍ مختلف فيما ذلك الأمر، فأما الأمر الذي سميت به المرجئة مرجئة، فحدثني عبدالله بن عمر قال: سمعت إبراهيم بن موسى يقول: سئل ابن عُيَيْنَة عن الإرجاء، فقال: الإرجاء على وجهين: قوم أرجوا أمر علي وعثمان فقد مضى أولئك، وأما المرجئة اليوم فهم قوم يقولون الإيمان قول بلا عمل، فلا تجالسوهم ولا تؤاكلوهم ولا تصلوا معهم.

وروي عن الفضيل بن عياض أنه كان يقول: أهل الأرجاء يقولون قول بلا

---

(١) الخلال، السنة: ١٧/٤.

(٢) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٦٥٨/٢ ـ ٦٥٩.

عمل[1]. قال ابن جرير[2]: أو من آخر العمل والطاعة عن الإيمان مُرجئهما عنه، فهو مرجئ، غير أن الأغلب من استعمال أهل المعرفة بمذاهب المختلفين في الديانة في دهرنا هذا[3] أن هذا إنما يستعمل فيمن كان قوله إن الإيمان قول بلا عمل، وفيمن كان مذهبه أنَّ الشرائع ليست من الإيمان، وأنَّ الإيمان إنما هو التصديق بالقول دون العمل للصدق بوجوهه.

الثاني في أول من ابتدع هذا القول

قال اللالكائي[4] في كتاب السنة له: قال أيوب السجستاني: أنا أكبر من المرجئة، أول من تكلم في الأرجاء رجل يقال له الحسن بن محمد. وقال زادان أتينا الحسن بن محمد، فقلنا: ما هذا الكتاب الذي وضعت، وكان هو الذي أخرج المرجئة، قال: كتاباً يا أبا عمر لوددت أني كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب أو أضع هذا الكتاب.

الثالث في نبذة مما ورد في ذمهم

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: صنفان من أمتي ليس لهم نصيب في الإسلام، القدرية والمرجئة. رواه أبو داود والترمذي[5]، وصححه ابن جرير[6].

وروى اللالكائي[7] عن ابن عباس أنه قال: اتقوا الإرجاء فإنه شعبة من النصرانية. وقال معاذ بن جبل: لعنت القدرية والمرجئة على [٦٤] لسان سبعين نبياً آخرهم محمد ﷺ.

---

(١) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٢/٦٦٠.

(٢) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٢/٦٦١.

(٣) «دهرنا هذا» الإشارة هنا إلى زمان الطبري لأن العمري ينقل عنه.

(٤) اللالكائي، شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ٢/٨٤٨، ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٣/٣٩٥.

(٥) الترمذي، السنن: ٤/٣٩٥، كتاب القدر، حديث رقم (٢١٤٩)، اللالكائي، شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ٢/٥٦٦، وقال مخرج أحاديثه نشأت المصري الحديث ضعيف.

(٦) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٢/٦٥٣ ـ ٦٥٤.

(٧) اللالكائي، شرح اعتقاد وأصول أهل السنة: ٢/٨٣٧.

وقال إبراهيم النخعي: تركت المرجئة الذين أرق من ثوب سابري. وقال سعيد بن جبيرهم يهود القبلة. وقال علي بن الحسين: ما ليل بليل، ولا نهار بنهار أشبه من المرجئة باليهود[١].

وحكى بعض السلف قال: اختصم قدري وحروري ومرجئ، فقال كل واحد منهما ديني أصوب من دينكما. قال: فتراضو إلى أول من يستقبلوا فاستقبلهم أعرابي على بعير له، فقالوا له: إنا قد اختلفنا، وقد تراضينا بأول من نلقاه، فكنت أنت. قال: فأناخ بعيره ثم أخذ كساء كان تحته وطواه ثم جلس عليه، فقال: اجلسوا بين يدي، ثم قال للحروري: ما تقول؟ قال: ازعم أن كل من عصى الله فقد كفر واستحل دمه، فقال: أنت رجل سوء تحضر على العباد ما وسع عليهم من التوبة.

ثم قال للقدري: ما تقول؟ قال: ازعم إنما عمل العباد من خير فمن الله، وما عملوا من شر فليس لله فيه مشيئة. فقال: أنت أكفر من هذا، أتزعم أن تريد شيئاً فلا يعمله العباد، ويعمل العباد شيئاً لا يريده الله، تنّح. وقال للمرجي: ما تقول؟ قال: أزعم أن من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن لا يضره شيء. فقال الأعرابي: ما في الثلاثة أكفر منك حين شهدت لهذين أنهما مؤمنان.

الرابع في الكلام على فرقهم في الإيمان إذ يتم الكلام فيه.

الفرقة الأولى: قال الأشعري[٢]: تزعم أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله ورسوله وبجميع ما جاء من عند الله فقط. وإنما سمي المعرفة من الإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة فليس بإيمان. وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به. وهذا يحكى عن جهم بن صفوان.

الفرقة الثانية: يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر به هو الجهل به

---

(١) اللالكائي، شرح اعتقاد أصول أهل السنة: ٨٣٨/٢، ٨٣٩، ٨٤١، ونسب القول الأخير لمحمد بن علي بن الحسين لا لأبيه علي.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٣/١.

فقط، وإن قول القائل: إن الله ثالث ثلاثة ليس بكفر، ولكن لا يظهر إلَّا من كافر. وزعموا أن الصلاة ليست بعبادة الله، وإنه لا عبادة إلا الإيمان به، وبهذا قال[٦٥] أبو الحسن الصالحي(١).

الفرقة الثالثة: يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة به والخضوع له، وهو ترك الاستكبار عليه والمحبة لله، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن. وزعموا أن إبليس كان عارفاً بالله غير أنه كفر باستكباره وهذا قول قوم من أصحاب يونس السمري(٢).

الفرقة الرابعة: وهم أصحاب أبي شمس ويونس. يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والخضوع له، والمحبة له بالقلب والإقرار به أنه واحد ليس كمثله شيء ما لم يقم عليه حجة الأنبياء. فإن كانت قامت عليه حجة الأنبياء والإيمان بهم والتصديق لهم، والمعرفة بما جاء من عند الله غير داخل في الإيمان، ولا يسمون كل خصلة إيماناً، فإذا اجتمعت بأجمعها أسموها إيماناً(٣).

الفرقة الخامسة: أصحاب أبي يونان يزعمون أن الإيمان هو الإقرار بالله ورسوله ما كان لا يجوز في العقل إلا أن يفعله، وما كان حائزاً في العقل أن لا يفعله فليس ذلك من الإيمان(٤).

الفرقة السادسة: يزعمون أن الإيمان هو المعرفة بالله ورسوله وفرائضه المجمع عليها، والخضوع له بجميع ذلك كالإقرار باللسان، ومن جهل شيئاً من ذلك فقامت عليه الحجة أو عرفة، ولم يقم به كفر، ولم يسم خصلة من ذلك إيماناً(٥).

الفرقة السابعة: الغيلانية أصحاب غيلان، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والمحبة

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٤/١.
(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٤/١ ـ ٢١٥.
(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٥/١.
(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٦/١.
(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٦/١.

والخضوع والإقرار بما جاء به الرسول ﷺ، وبما جاء من عند الله(1).

الفرقة الثامنة: أصحاب محمد بن شبيب، يزعمون أن الإيمان الإقرار بالله والمعرفة بأنه واحد ليس كمثله شيء، والإقرار والمعرفة بأنبياء الله ورسله، وبجميع ما جاءت به من عند الله بما نص عليه المسلمون، ونقلوه عن رسولهم ممالا اختلاف(2) الاختلاف فيه بينهم ولا منازع. وإن كل خصلة تكون إيماناً وإنه يتبعض(3).

الفرقة التاسعة: يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير [٦٦] كمن قال: إن الله حرّم لحم الخنزير غير أنه لا يدري لعل الخنزير الذي حرمه ليس هو بهذه العين، إنه مؤمن(4).

الفرقة العاشرة: أصحاب أبي معاذ التومني يزعمون أن الإيمان ترك ما عظم من الكفر، وهو اسم لخصال إذا تركها التارك أو ترك خصلة منها كان كافراً. فتلك الخصلة التي يكفر بتركها ويترك خصلة منها إيمان، ولا يقال للخصلة منها إيمان(5).

الفرقة الحادية عشرة: أصحاب بشر المريسي، يقولون: إن الإيمان هو التصديق، لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وما ليس بتصديق فليس بإيمان. ويزعم أن التصديق يكون بالقلب وباللسان جميعاً وإليه كان يذهب ابن الراوندي، وبعض علماء الكوفة(6).

الفرقة الثانية عشرة: أصحاب محمد بن كرام، يقولون: إن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان، وإن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة. نقل هذه المقالات بأجمعها أبو الحسن الأشعري(7).

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٧/١.

(٢) ت: مما الاختلاف.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٨/١.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢١٩/١.

(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢٢١/١.

(٦) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢٢٢/١.

(٧) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢٢٣/١.

الفرقة الثالثة عشرة: قال إمام الحرمين في شامله[1]: من المرجئة طائفة صارت إلى أن المؤمن لا يعاقب على زلّة في العقبى، ولكن يعاقبه الله في الدنيا بالأسقام والهموم والغموم والنقص من الأموال والأنفس ولا تخترمهم المنية إلا وهم ممحصون. وحكى غيره من العلماء هذا القول عن طائفة منهم تسمى الخالدية.

الخامس في الكلام على حججهم والجواب عنها

وليعلم أنا لو استقصينا مقالة كل فرقة من هذه الفرق على حدة، ومما احتجت به على قولها، والرد عليها، وإبطال ما شقيت لطال ذلك، واحتمل أسفاراً. لكن نذكر أصول أقوالهم في ذلك، وما احتجوا به، ونجيب عنه بما فيه مغنى مع الاختصار بحول الله وقوته، فنقول حاصل أقوالهم ترجع إلى أربع مقامات:

الأول: إن الإيمان المطلوب هو التصديق بالقلب حسب، وهذا القول قد قال به جماعة من العلماء كالأشعري وأبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين، والرازي وغيرهم. وذكروا النزاع في ذلك مع السلف. واحتجوا على ذلك بحجج منها ما احتج به القاضي أبو بكر الباقلاني. قال: أجمع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان هو التصديق بالقلب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[2] أي بمصدق. ومنه فلان يؤمن بالشفاعة أي يصدق بها، فوجب أن الإيمان بالشريعة هو الإيمان في اللغة لأن الله ما غير اللسان وما قلبه. ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بنقله. فدل على أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان اللغوي[3].

وقال الرازي: لا نزاع في أن أصل الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق بالرسول في كلما علم مجيء الرسول به ضرورة. وهذه عمدة حججهم، وللسلف ومن وافقهم من أهل

---

(١) كتاب الشامل في أصول الدين للإمام أبي المعالي عبدالملك الجويني إمام الحرمين (ت٤٧٨هـ) وصلنا ناقصاً غير مكتمل (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م) والمواد التي نقلها العمري عنه من المفقود من كتابه.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٧.

(٣) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ١٢١/٣.

الكلام كأبي عبدالله بن طاهر شيخ القاضي أبي بكر، وأبي العباس القلانسي، وأبي علي الثقفي في قولهم إن الإيمان تصديق باللسان وعمل بالأركان، وعقد بالجنان فلهم عن هذه الحجة في قصر الإيمان على ما ذكروه وجوه من الأجوبة أحدها مع الإجماع قال أبو محمد بن حزم[1]: وأما قولهم أن الإيمان في اللغة التي نزل بها القرآن هو التصديق فليس كما قالوا على الإطلاق وما سمي التصديق قط بالقلب دون التصديق باللسان إيماناً في لغة العرب وما قال قط عربي إن من صدق بشيء بقلبه وأعلن التكذيب به بلسانه أنه يسمى مصدقاً به أصلاً ولا مؤمناً البتة وكذلك ما سمّي قط التصديق باللسان دون التصديق بالقلب إيماناً في لغة العرب أصلاً على الإطلاق ولا يسمى تصديقاً في لغة العرب ولا إيماناً مطلقاً إلَّا من صدّق بالنبي بقلبه ولسانه معاً [٦٨].

الثاني: مقابلة هذا الإجماع بعكسه قال أبو إسحاق الإسفراييني في كتاب الأسماء والصفات: اتفقوا على أن ما يستحق به المكلف اسم الإيمان في الشريعة أوصاف كثيرة وعقائد مختلفة، وإن اختلفوا فيها على تفصيل ذكروه[2].

الثالث: أنه يبعد أن يكون المراد بالإيمان في اللغة التصديق، وذلك أن يقال للمخبر صدقته وصدّقه، ولا يقال أمنته ولا آمنه، بل يقال أمّن له كما قال الله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[4].

الرابع: إن كل مخبر غير مشاهدة[5] أو غيب، يقال له صدقت كما يقال له كذبت. فمن قال السماء فوقنا، قيل له صدق. وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب. قال أبو العباس بن تيمية[6]: لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن

(١) ابن حزم، الفصل: ٣/٢٢٨.
(٢) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٣/١٤٤.
(٣) سورة العنكبوت، الآية ٢٦.
(٤) سورة يونس، الآية ٨٣ والخبر في ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٣/٢٩٢.
(٥) ت: غير شاهد.
(٦) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٣/١٥٠.

مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت أنه يقال أمنا له، كما يقال صدقناه.

الخامس: إن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق، فإنه من المعلوم[1] في اللغة أن كل مخبر يقال له صدقت أو كذبت، ولا يقال لكل مخبر أمنا له أو كذبناه، ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب. بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر. يقال هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب. فلو قال: أنا أعلم إنك صادق ولكن لا أتبعك لنوع هذا أو لموالاة أو غير ذلك كما كان كثير من الكفار فإنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه حسداً من عند أنفسهم كما أخبر الله تعالى عنهم. فلا يقال في هؤلاء أنهم يؤمنون، فإذا كان الكفر يكون تكذيباً، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب، فلابد أن يكون الإيمان تصديقاً مع موافقة وموالاة.

السادس: إنه لو سُلّم أن الإيمان في اللغة هو التصديق، فمعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق بكل شيء بل بشيء مخصوص، وهو ما أخبر به الرسول فيكون حينئذ الإيمان في كلام الشارع أخصّ من الإيمان في اللغة. ومعلوم[٦٩] أن الخاص تنضم إليه قيود لا توجد في جميع العام كالحيوان إذا وجد بعض أنواعه، وهو الإنسان كان فيه المعنى العام ومغني اختص به وذلك المجموع ليس هو المعنى العام.

السابع: إن التصديق أعم من أن يكون بالقلب أو بالعمل. فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

وقال ابن جرير في تهذيب الآثار[2]: وإذا وعد الرجل وعداً، وقال قولاً، ثم أنجز وعده وحقق بالفعل قوله، قيل: صدق فلان قوله بفعله، ولا يدفع ذلك ذو معرفة بكلام العرب، وفي ذلك الدلالة على صحة القول بأن الإيمان التصديق، فإذا كان الإيمان في كلامها التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان وبفعل الجوارح، فتصديق القلب العزم والإذعان، وتصديق اللسان الإقرار، وتصديق الجوارح السعي والعمل.

---

(١) ت: العلوم.

(٢) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس: ٦٨٥/٢.

وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة[1]: أن عبدالملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل فأجابه عنها، سألت عن الإيمان، فالإيمان هو التصديق أن يصدق العبد بالله وملائكته، وما أنزل من كتاب، وما أرسل من رسل، وباليوم الآخر. وسألت عن التصديق، والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن.

المقام الثاني

من قولهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأنه مساو، وقد وافقهم على هذا الأشعري وأبو بكر الباقلاني وغيرهما كالرازي وابن حزم، واحتجوا على ذلك بأنه لما كان اسماً لتصديق الرسول في كلما علم بالضرورة مجيئه به صار هذا مما لا يقبل الزيادة والنقصان والتصديق لا يتفاوت الناس فيه، وجنح إلى هذه الحجة أبو محمد بن حزم[2]. قال: والتصديق بالشيء أي شيء كان لا يمكن البتة أن يكون فيه زيادة ولا نقص، وكذلك التصديق بالتوحيد والنبوة لا يمكن البتة أن يكون فيه[3] زيادة ولا نقص لأنه لا يخلو كل معتقد بقلبه[٧٠] أو مقر بلسانه بأي شيء أقر وأي شيء اعتقد من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها:

إما أن يصدق بما اعتقد وأقر، وإما أن يكذب بما اعتقد فمن المحال أن يكون الإنسان مكذباً بما يصدق به، ومن المحال أن يشك أحد فيما يصدق به، فلم يبق إلا أنه يصدق بما اعتقد بلا شك، ولا يجوز أن يكون تصديق واحد أكثر من تصديق آخر، لأن التصديق إذا دخلته داخلة فبالضرورة يدري كل ذي حس سليم أنه قد خرج عن التصديق، ولابد وحصل في الشك لأن معنى التصديق إنما هو أن يقطع ويوقن بصحة وجود ما صدق به ولا سبيل إلى التفاضل في هذه الصفة، فإن لم يقطع ولا أيقن بصحته فقد شك فيه فليس مصدقاً به، وإذا لم يكن مصدقاً به فليس مؤمناً به.

---

(١) المروزي، كتاب الصلاة: ١٠٨.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٢٣٢/٣.

(٣) ت: فيها.

وللسلف القائلين بزيادته ونقصانه عن هذا أجوبة:

أحدها: أنه معارض لظاهر القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[3].

الثاني: معارضته للسنة، ففي الصحيح[4] عن النبي ﷺ أنه قال: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وقال رسول الله ﷺ: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وفي الصحيحين[5] عن النبي ﷺ أنه قال: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

وفي صحيح مسلم[6]: من جاهدهم فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان[٧١] حبة خردل.

الثالث: معارضته لأقوال الصحابة رضي الله عنهم. والرواية عنهم بذلك أكثر من أن تحصر. قال أبو الدرداء: الإيمان يزيد وينقص[7]. وقال عمر: هلموا نزداد إيماناً[8]. وقد زعم غير واحد أن هذا إجماع السلف من الصحابة والتابعين كإسحاق بن راهويه وغيره[9].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

(٣) سورة التوبة، الآية ١٢٤. والخبر في ابن حزم، الفصل: ٢٣٥/٣.

(٤) البخاري، الصحيح: ٢٤، كتاب الإيمان، حديث رقم (٤٤).

(٥) مسلم، الصحيح: ٥٢، كتاب الإيمان، حديث رقم (٧٨).٠

(٦) مسلم، الصحيح: ٥٢، كتاب الإيمان، حديث رقم (٨٠).

(٧) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٨٠٤/٢.

(٨) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٨٠١/٢.

(٩) انظر أقوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين في اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٨٠١/٢ ـ ٨٢٠.

وكذلك ذكر أبو عبيد في رسالته من كان يقول بذلك. وعدَّ جماعة من طبقات الصحابة والتابعين، وتابعهم إلى زمنه من غير خلاف.

وقال ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي[1]: سمعت حَرْملة يقول: اجتمع حفصٌ الفرد ومِصْلاق الإباضي عند الشافعي فتكلما في مسألة الإيمان في الزيادة والنقص، فخالف حفص الفرد في ذلك فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، فطحن حفصاً وقطعه.

وأجاب ابن حزم[2] عما ورد في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة من زيادة الإيمان ونقصه بأنه محمول على الأعمال، والأعمال الصالحة عنده من الإيمان، فالزيادة والنقص راجع إليها لا إلى التصديق.

وأما من يقول أن الأعمال غير داخلة في الإيمان فالجواب عليهم عما ذكرنا عسر.

وقال الرازي: والبحث لغوي، فلكل واحد من الفرق نصوص، والتوفيق أن يقال الأعمال من ثمرات التصديق، فكلما دلّ على أن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان، وما دلّ على كونه قابلاً لهما فهو مصروف إلى الإيمان الكامل.

الرابع: أن يقال لهم ولابن حزم قولكم إن التصديق لا يقبل الزيادة ولا النقصان ممنوع، فإن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب إذ في تفاوت العمليات قولان مشهوران. وقول ابن حزم أنه لا تفاضل في القطعيات منعه غيره واحد كالطوسي وغيره.

وفي تفاوت المعرفة روايتان عن أحمد، والفرق بين العلم الضروري وبين العلم الواقع بالبصر لا يجهل [٧٢] تفاوته واحد.

الخامس: أنه يلزم منه ما هو مكابرة للعقل، وذلك أن يكون إيمان أفاضل البشر

---

(١) ابن أبي حاتم، مناقب الشافعي: ١٩٢.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٢٣٣/٣.

كالرسل والأنبياء والملائكة كإيمان من يكون متلبساً بالمعاصي من آحاد البشر، وإنما إيمانهما بالله متساويين. وقد عمل أبو المعالي جواباً عن هذه القاصمة بأن قال: الذي يفضل به إيمانه عن إيمان من عداه هو استمرار تصديقه، وعصمة الله إياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب.

والتصديق عرض من الأعراض لا يبقى وهو، متوالي النبي ﷺ ثابت لغيره في بعض الأوقات وزائل عنه في أوقات الفترات فثبت للنبي[1] ﷺ أعداد من التصديق لا يثبت لغيره إلا بعضها، فيكون إيمانه كذلك أكثر وأفضل.

قال: ولو وصف الإيمان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيماً، وضعف هذا الجواب لا يخفى على ذي بصيرة إذ يقتضي أن يكون حين ثبوت الإيمان لغير النبي ﷺ يكون مساوياً لإيمانه حين ذك، ومعاذ الله منه.

المقام الثالث

قولهم إن الأعمال غير داخلة في الإيمان، بل هي ثمرته. وهذا قول الأشعري، والقاضي أبي بكر، والرازي، إمام الحرمين وغيرهم. واحتجوا على ذلك بحجج منها: قال الرازي: إن هذه الطاعات لو كان جزءاً من مسمى الإيمان شرعاً لكان اقتران الإيمان بالطاعة تكريراً، وبالمعصية نقصاً. لكنه باطل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2] وبقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[3].

وأجاب السلف عن هذه الحجة بأجوبة **أحدها** أن يقال: أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لأن به لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب في عدم جميع أعمال الجوارح، فمتى نقصت الأعمال الواجبة الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب. فصار الإيمان متناولاً للازم والملزوم، وإن كان أصله ما في القلب [٧٣] وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد به أن لا يكتفي بإيمان القلب بل لابد من العلماء

---

(١) ك: النبي.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٧٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

ثم من العلماء من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولاً. ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصاً له لئلا يظن أنه لم يدخل. وهذا في كلما عطفت فيه خاص على عام.

الثاني: أن القرآن ورد بسلب الإيمان عمن لم يعمل كقوله تعالى[1]: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[4].

الثالث: ما ورد في السنة من دخول الأعمال الصالحة في الإيمان. ففي الصحيحين[5] عن النبي ﷺ أنه قال: الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

وفي الصحيح[6]: أن النبي ﷺ قال لوفد عبدالقيس: آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمس ما غنمتم.

وفي الصحيحين[7] عن الصوم ﷺ أنه قال: المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وغير ذلك من الأحاديث مما يطول إيراده.

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) سورة السجدة، الآية ١٥.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٥.

(٤) سورة النور، الآية ٦٢.

(٥) مسلم، الصحيح: ٤٨، كتاب الإيمان، حديث رقم (٥٨) وجزء منه في البخاري، الصحيح:١٦، كتاب الإيمان، حديث رقم (٩).

(٦) البخاري، الصحيح: ١٥٨٨، كتاب التوحيد، حديث رقم (٧٥٥٦).

(٧) في البخاري، الصحيح: ١٦، كتاب الإيمان، حديث رقم (١٠): المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وروى ابن حزم عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان وتصديق بالعمل[1].

الرابع: إجماع العلماء، قال الشافعي في كتاب الأم في باب النية: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونيّة لا يجزي واحد من الثلاث إلا بالآخر[2]. وقال ابن عبدالبر: أجمع أهل الفقه[٧٤] والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية.

وقال الزهري: كنا نقول الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل قريبان لا ينفع أحدهما إلّا بالآخر. وقال وكيع بن الجراح: أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل. وقال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في شرح الإرشاد لأبي المعالي بعد أن ذكر قول أصحابه قال: وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها. قال الرازي: قال السلف: الإيمان اسم للتصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام هذه تسمية من كان يقول الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. ثم ذكر العلماء من السلف على طبقاتهم ببلدانهم إلى زمنه، ثم قال آخر ذلك: وهؤلاء جميعاً يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وهو قول أهل السنة المعمول به عندنا. وكذلك ادعى الإجماع على أن الإيمان قول وعمل أبو ثور[3].

المقام الرابع

قولهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا يفيد مع الشرك طاعة. وهذا القول مما أنفرد به المرجئة، ولم يوافقهم عليه أحد وهو فاسد سخيف. والدليل على فساده وجوه:

أحدها: قال إمام الحرمين في الشامل: ومما يوضح فساد أصولهم أن نقول المسلم إذا زنى وسرق وقطع الطريق تقام عليه الحدود إجماعاً، ولو كانت زلاته محيطة بإيمانه

(١) الحديث أخرجه الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٦٨٣/٢ ـ ٦٨٤ عن علي بن أبي طالب.
(٢) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٧٥٨/٢.
(٣) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٣٠٨/٣، ٣٨٧.

لما استحق به[1] عقاباً، فإن تعسف متعسف وزعم أن الحدود ليست بمعاقبة لمقارفي الكبائر سقطت مناظرته ودحضت حجته، وانتسب إلى خرق الإجماع، ورد نصوص الكتاب، فإن المسلمين مجمعون على أن السارق معاقب على سرقته بالقطع. ولذلك نفيت عقوبات الأبدان عمن لا تكليف عليه كالصبيان والمجانين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾[2]، فاقتضى ذلك كون الحد جزاءاً وتنكيلاً بالمحدود [75] وهذا لا محيص لهم عنه.

الثاني: قال أيضاً يقال لهم معشر المرجئة هل تسلمون لنا أن قُطَّاع الطريق السعاة في الأرض المتهجمين على قتل الأنفس وانتهاك الحرمات يوبخون ويذمون ويواجهون بالملامة والتقريع، فإن أبوا ذلك وقالوا لا ملام عليهم فقد راغموا الاتفاق وخرقوا الإجماع والإطباق، وإن سلموا كونهم ملومين مذمومين، فاللائمة ضرب من العقاب، ولذلك لا يلام مقدم على مباح فأنى يستقيم مع ذلك سقوط العقاب على الزلات ولا مخلص لهم عن ذلك.

الثالث: معارضة هذا القول لظاهر القرآن. قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾[4] وقال تعالى: ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[7].

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٨.

(٣) سورة النساء، الآية ١٢٣.

(٤) سورة الفرقان، الآية ١٩.

(٥) سورة النساء، الآية ٢٩ ـ ٣٠ ومن «وقال تعالى لا تأكلوا ...نارا» ساقطة من ت.

(٦) سورة الأنفال، الآية ١٦.

(٧) سورة النساء، الآية ١٤.

الرابع: معارضته السنة، ففي الصحيح[1] عن النبي ﷺ أنه قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون. وفيه عن النبي ﷺ : من قتل نفسه بحديدة عذب بها يوم. وفي السنن[2] عن النبي ﷺ أنه قال: من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة. قيل وما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار أو صديدهم.

الخامس: يسألون فيقال لهم القرآن عندكم تضمن[3] النهي عن ملابسة أمور غير الكفر أم لا؟ فإن قالوا: لا، كابروا العيان، وأنكروا القرآن، وسقطت مكالمتهم. وإن قالوا: نعم، ورد ذلك في القرآن، قيل لهم: لو أسقطنا العقاب رأساً عن مرتكب هذه الأمور لكان إغراءً لهم بما نهاهم عنه إذ في نصب الوعيد ردعاً للمكلفين عن المعاصي.

قال أبو الوفاء[4] بن عقيل: ألا ترى إلى مخافة الأنبياء والصحابة مع جلالة رتبتهم[٧٦] كيف بلغ بهم الخوف إلى نحول الأجسام وتغير الألوان، والخروج عن الأهل والأوطان، وألا ترى مقالة معشر الأنبياء عليهم السلام يوم القيامة، سلم، سلم. قال الله تعالى مدحاً لهم: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[5].

فصل

وأما قول محمد بن كرم: إن الإيمان إقرار باللسان حسب، وإن المنافقين كانوا مؤمنين حقاً[6]، فهو معارض لنص القرآن، وهو كافٍ في دفع قوله وإفساده. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⑧﴾[7] فقد نفى الله الإيمان عن المنافقين، فمن سماه مؤمناً فقد عاند القرآن وفي هذا مقنع.

---

(١) البخاري، الصحيح: ٢٨٦، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٣٦٣)، مسلم، الصحيح: ٧٣، كتاب الإيمان، حديث رقم (٢١٧).

(٢) أبو داود، السنن: ٨٤٩، كتاب الأشربة، حديث رقم (٣٦٨٠).

(٣) تضيف ك بعدها: عندكم.

(٤) ت: أبو الفا.

(٥) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

(٦) ابن حزم، الفصل: ٣/٢٢٧.

(٧) سورة البقرة، الآية ٨.

الفرقة الثانية من الأصول

الخوارج الحرورية

وسماهم أناس المحكمة والكلام عليهم من وجوه:

أحدها: في تسميتهم بذلك: أما تسميتهم بالخوارج فإنهم كانوا يرون الخروج على أمة محمد ﷺ وعلى الخلفاء منهم بذنوب تصدر منهم، ورأوا أنهم بذلك كفار، ودارهم دار حرب. وقال أبو منصور التميمي(١): إنما سموا الخوارج لخروجهم على علي. وأما تسميتهم بالحرورية فلنزولهم بحروراء. وأما المحكمة فلتقليبهم الحكم كما تقدم.

الوجه الثاني: في أول من ابتدع هذا الرأي.

قال أبو المظفر الاسفراييني: أول من أبدعه عروة بن حدير أخو مرداس الخارجي. وقيل: إن أول من قاله يزيد بن عاصم المحاربي. وقيل: إنه رجل من بني يشكر كان مع علي بصفين. فلما اتفق الفريقان على التحكيم ركب وحمل على أصحاب علي فقتل منهم واحداً ثم حمل على أصحاب معاوية وقتل منهم واحداً. ثم نادى في العسكرين إنه بريء من علي ومعاوية، وإنه خرج من حكمهما، فقتله رجل من همدان. ثم إن جماعة ممن كان مع علي على حرب صفين استمعوا منه هذا واستقرت في قلوبهم تلك الشبهة ورجعوا مع علي إلى الكوفة ثم فارقوه وخرجوا إلى حروراء. وكانوا اثني عشر ألف رجل من المقاتلة ومن [٧٧] ها هنا سميت الخوارج حرورية(٢).

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٢٠٧/١ ـ ٢١٢، الشهرستاني، الملل والنحل: ١٠٦/١.

الوجه الثالث: في نبذة مما ورد في ذممهم:

ففي الصحيحين[1] عن النبي ﷺ أنه قال: خرج من هذه الأمة قوم يحقّر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد، فمن أدركهم منكم فليقتلهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة.

وقال أحمد بن حنبل: صحّ من عشرة أوجه عن النبي ﷺ أنه قال: الخوارج كلاب النار[2]. وروى الطلمنكي عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾[3]. قال هم الخوارج.

وقال أبو العالية: ما أدري أي النعمتين أعظم، نعمة أنعمها علي فأنقذني بها من الشرك إلى الإسلام، أو نعمة أنعمها علي فعصمني بها من الحرورية.

وقال قتادة في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال إن لم تكن الحرورية فلا أدري من[4] منهم؟ وفي السنن[5]: أنه لما أتي برأس الأزارقة فنصب على درج دمشق جاء أبو أمامة، فلما رآهم دمعت عيناه، فقال: كلاب النار ثلاث مرات، هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء. قيل له: أسمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم.

وقال مصعب بن سعد: كنت أملي على أبي المصحف فمر بهذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾[6] فقلت: أهم الحرورية؟ قال: هم أهل الكتاب، ولكن

(١) البخاري، الصحيح: ١٤٦٣، كتاب استتابة المرتدين، حديث رقم (٦٩٣١)، وكتاب المناقب (٣٦١١)، مسلم، الصحيح: ٤٧٤ ـ ٤٧٦، كتاب الزكاة، حديث رقم (٢٤١٩) و (٢٤٢٧).

(٢) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٥١٢/٢٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٧.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) الترمذي، السنن: ٢١٠/٥، حديث رقم (٣٠٠٠)، الآجري، الشريعة: ٣٨.

(٦) سورة الكهف، الآية ١٠٣.

الحرورية الذين ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

الوجه الرابع: في الكلام على فرقهم

قال الأشعري[2]: أصول قول الخوارج أربعة: الأزارقة، والأباضية، والصفرية، والنجدات، ثم من ذلك تشعبت الفرق.

الفرقة الأولى: الأزارقة

ينسبون إلى نافع بن الأزرق، يزعمون أن كل كبيرة كفر، وأن الدار دار كفر، يعنون دار كلفتهم، وأن كل مرتكب كبيرة ففي النار خالداً مخلداً[3].

الفرقة[٧٨] الثانية[4]: الإباضية

زعموا أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده، فمن عرف الله ثم كفر بما سواه من الرسل أو جنة أو نار، أو عمل بجميع الخبائث من قتل أو زنا فهو كافر. وإن دار مخالفيهم دار توحيد إلا عسكر السلطان فإنه دار كفر[5].

الفرقة الثالثة: الصُّفْرية

أصحاب زياد بن الأصفر، قالوا: بجملة مذهب الخوارج في التكفير، ويزعمون أن مخالفيهم مشركون، والسيرة فيهم السيرة في أهل حرب رسول الله ﷺ الذين حاربوه من المشركين[6].

الفرقة الرابعة: النجدات

يزعمون أن الدين أمران: أحدهما معرفة الله ومعرفة رسله عليهم السلام، وتحريم

---

(١) «أن يوصل» ساقطة من ت.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٧.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٨٣/١.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٧٤/١.

(٥) ن: الثالثة.

(٦) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٨٣/١.

(٧) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٩٤، الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٨٢/١.

دماء المسلمين وأموالهم، وتحريم الغصب والإقرار بما جاء من عند الله جملة. فهذا واجب وما سوى ذلك فالناس معذورون في جهالته حتى تقوم عليهم الحجة في جميع الخلال. ومن استحل شيئاً من طريق الجهاد مما لعله محرم فمعذور على حسب ما يقول الفقهاء من أهل الاجتهاد.

قالوا: ومن ثقل عن هجرتهم فهو منافق، ويستحلون دماء أهل المقام عنهم وأموالهم. وزعموا أن من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة ثم أصرّ عليها فهو مشرك، وإن زنا وسرق وشرب الخمر وهو غير مصر فهو مسلم[١].

الفرقة الخامسة: العجاردة

أصحاب عبدالله بن عجرد، يقولون بقول الخوارج في التكفير، ويختصون بإنكار كون سورة يوسف من القرآن، وإنما هي قصة من القصص[٢].

الفرقة السادسة:

قال الأشعري[٣]: ومن الخوارج طائفة يقولون ما كان من الأعمال عليه حد واقع فلا يتعدى بأهله الاسم الذي لزمهم به الحد وليس بكفر وليس أهله به كافرين كالزنا والقذف، وهم قذفة زناة، وما كان من الأعمال ليس[٤] عليه حد كترك الصلاة والصيام، فهو كفر، وأزالوا اسم الإيمان في الوجهين جميعاً.

الفرقة السابعة: البيهسية

أصحاب أبي بيهس الهيضم بن جابر. ومن قوله: إن الإيمان[٧٩] هو العلم بالقلب دون القول والعمل. وحكي عنه الإقرار والعلم جميعاً[٥].

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٧٥/١.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٧٨/١.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٨٣/١.

(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٩١/١، الشهرستاني، الملل والنحل: ١٢٢/١.

وقال الشهرستاني[1]: وعامة البيهسية على أن العلم والإقرار والعمل كالإيمان. وذهب قوم إلى أنه لا يحرم شيء سوى ما في قوله:{قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً[2] الآية. قال ابن عبدالبر: وقد قصر هذه الآية على المذكور فيها.

الفرقة الثامنة: العوفية

ومن قولهم: إنه إذا كفرت الإمام كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد[3].

الفرقة التاسعة: الأخنسية

أصحاب أخنس بن قيس. حكى عنهم أنهم يرون تزويج المسلمات من الكفار الذين هم أصحاب الكبائر عندهم إذا كانوا من فوقهم، وهم على أصول الخوارج في جميل الشمائل.

الفرقة العاشرة: الميمونية

قال الكرابيسي: ومن قولهم: جواز نكاح بنات البنين وبنات الأخوة وبنات بني الأخوة. وباقي قولهم على أصول قول الخوارج[4].

الفرقة الحادية عشرة: الصلتية

أصحاب عثمان بن أبي الصلت، والذين تفردوا به أنه إذا استجاب لنا الرجل وأسلم توليناه وبرئنا من أطفاله لأنه ليس لهم إسلام حتى يدركوا فيدعوا إلى الإسلام فيقبلونه[5].

الفرقة الثانية عشرة: الزيدية[6]

أصحاب يزيد بن أبي أنَيسة زعم أن الله سيبعث رسولاً من العجم، وينزل عليه

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل: ١٢٢/١.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٤٥.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٩٢/١.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٧٧/١، ١٧٨.

(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٧٩/١.

(٦) كذا في الأصول، والصواب: اليزيدية.

كتاباً قد كتب في السماء، ينزل عليه جملة واحدة، وينزل عليه شريعة محمد ﷺ. وقال: إن أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كفار مشركون، وكل ذنب صغير أو كبير فهو شرك[1].

الفرقة الثالثة عشرة: الثعالبة

أتباع ثعلبة بن مشكان، يقولون: بإمامة عبدالكريم بن عجرد، يقولون: إنه كان الإمام إلى أن خالفه ثعلبة في حكم الأطفال فصار على زعمهم كافراً، وصار ثعلبة إماماً[2].

قال أبو المظفر الاسفراييني: وكان سبب خلافهم أن رجلاً من العجاردة خطب بنت ثعلبة، فقال له: إظهر مهراً وقدره. فبعث الخاطب إلى أم البنت[٨٠] وقال: هل بلغت هذه البنت؟ وهل قبلت الإسلام؟ فإن كانت بالغة وللإسلام قابلة لم أبال إن أصدقها كم كان، فقالت الأم: هي مسلمة ولا أدري أهي بالغة أم لا، فلما بلغ ثعلبة الخبر، إختار أن لا يتبرأ من أطفال المسلمين، وخالف ابن عجرد وتبرأ كل منهما من صاحبه[3].

الفرقة الرابعة عشرة: المعبدية

وهؤلاء يقولون بإمامة معبد الجهني بعد ثعلبة، وخالف معبد الثعالبة بأن قالوا يجوز أخذ الزكاة من العبيد ودفعها إليهم. وزعم أن من لم يوافقه في هذه المقالة فهو كافر وأتباعه يكفرون جملة الثعالبة، والثعالبة يكفرونهم[4].

الفرقة الخامسة عشرة: الحفصية

أصحاب أبي حفص بن أبي المِقْدَام. وكان يزعم أن بين الإيمان والشرك خصلة واحدة وهي معرفة الله وحده، فمن عرفه ثم كفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار، أو

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١/١٨٤، البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٤٨.
(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١/١٨٠، البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٠١.
(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٠١.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٠٢.

ارتكب كبيرة من الكبائر من زنا أو سرقة أو شرب خمر ونحوها، فهو كافر لكنه برئ من الشرك، وبرئت الإباضية منه، وتبعه قوم على هذا[1].

الفرقة السادسة عشرة: الخازمية

زعموا أن فيما تفردوا به أن الولاية والعداوة صفتان لله عز وجل في ذاته، وأن الله يتولى العباد على ما هم صائرون إليه، وإن كانوا في أكثر أحوالهم مؤمنين[2].

الوجه الخامس: في ذكر بعض حججهم والجواب عنها مختصراً

لأنا لو أخذنا في الرد على كل فرقة من هؤلاء الفرق لطال ذلك. لكنا نذكر الآن ما هم عليه متفقون من الرأي الفاسد، وما احتجوا به والجواب عنه.

قال أبو المظفر الإسفراييني: وكل الخوارج متفقون على أمرين لا مزيد عليهما في الكفر والبدعة. أحدهما: إنهم يزعمون أن علياً وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين، وكل من رضي بالحكمين كفروا كلهم.

والثاني: يزعمون أن كل من أذنب ذنباً من أمة محمد ﷺ فهو كافر، ويكون في النار خالداً مخلداً [٨٠] قالوا: والدليل على صحة قولنا الكتاب والسنة والمعقول، وكلما ذكروه من الأدلة في ذلك فهو عليهم لا لهم كما سنبينه[3]. ويأبى كتاب الله أن يدل على الباطل بل ينفيه ويتركه هشيماً تذروه الرياح. ولكن كما قيل.

وكل يدعون وصال ليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

أما ما شغبوا به من الكتاب فقوله تعالى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}[4]. قالوا: وهذه صريحة في أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، والجواب من وجهين:

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٠٤.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١/١٧٩.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) سورة المائدة، الآية ٤٤.

أحدها: أنه لا يعارض[1] قولنا فيمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله، معارضاً له كان كافراً. وأما أن يؤول ذلك لنوع هوى أو لجهل فلا يكفر بذلك. قال محمد بن نصر المروزي[2]: الكفر كفران، كفر هو جحد الله وما قال فذاك يزيل عن المسلم الإقرار بالله والتصديق به وبما قال.

والثاني: كفر عمل وهو ضد الإيمان الذي هو عمل. ألا ترى إلى قوله ﷺ «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»[3]. قالوا: فإذا لم يؤمن فقد كفر، ولا يجوز غير ذلك إلا أنه كفر من جهة العمل.

الوجه الثاني: إن حملهم هذه الآية على هذا المراد مخالف لإجماع السلف، ومراغماً له. قال ابن عباس: هو به كفر وليس كمن كفر بالله، ولكنه كفر لا ينقل عن الملة. وقال عطاء: كفر دون كفر. وكذلك قال طاوس وغيره من العلماء[4].

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْأِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[5]. قال إمام الحرمين: وجه استدلالهم بها أن الله ذكر الإيمان وقابله بالكفر والفسوق، فدل ذلك على أن الفسوق والعصيان يناقضه كما يناقضه الكفر.

والجواب من وجوه:

أحدها: إنها حجة عليهم، بيان ذلك أن الله فرق بين الكفر والفسوق والعصيان، فدل على التغاير، إذ واو العطف في لسان العرب الأصل أن تكون للتغاير [٨٢] بين المعطوف والمعطوف عليه.

الثاني: أجاب محمد بن نصر المروزي[6] قال: لما كانت المعاصي بعضها كفر،

---

(١) ك: إن ذلك لا يعارض.

(٢) محمد بن نصر المروزي، كتاب الصلاة: ١٦٦.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، الصحيح: ١٢٩١، كتاب الأدب، حديث رقم (٦٠١٦).

(٤) محمد بن نصر المروزي، كتاب الصلاة: ١٦٨.

(٥) سورة الحجرات، الآية ٧.

(٦) محمد بن نصر المروزي، كتاب الصلاة: ١٦٩ - ١٧٠.

وبعضها ليس بكفر فرّق بينهما وجعلها ثلاثة أنواع، نوع منها كفر، ونوع فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر. ولما كان الطاعات كلها داخلة في الإيمان ليس شيء بخارج عنه منها لم يفرق بينها فدل ذلك على أن من المعاصي ما ليس هو بكفر بالتفرقة بينهما.

الثالث: أن يقال لهم، بل القرآن يدل على خلاف قولكم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾[1].

قال ابن حزم[2]: فابتدأ الله بخطاب أهل الإيمان من كان منهم من قاتل أو مقتول ونصّ تعالى على أن القاتل عمداً والمقتول أخوان وقد قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[3] فصح أن القاتل عمداً مؤمن بنص القرآن، وحكم له بإخوة أهل الإيمان. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾[4]، قوله: فأصلحوا بين أخويكم، فأثبت لهم الأخوة مع وجود الاقتتال.

الوجه الرابع: قال ابن حزم[5]: لو كان ارتكاب الكبائر مخالفاً لدين الإسلام لوجب قتال متركبها. فإن الله تعالى[6] أمر بقتال المشركين جملة ولم يستثن منهم أحداً إلا كتابياً يغرم الجزية أو رسولاً حتى يؤدي رسالته ويرجع إلى مأمنه، أو مستجيراً يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه. وأمر رسول الله ﷺ بقتل من بدّل دينه. فمن قال إن صاحب الكبيرة كافر، يقال له: من زنا وسرق وشرب الخمر وأكل مال اليتيم أتقتلونه كما أمر رسول الله ﷺ فيمن بدل دينه أم لا تقتلونه؟ ومن قولهم جميعاً أنهم لا يقتلونه وإنما في

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٨.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٣/٢٨٠.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٤) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٥) ابن حزم، الفصل: ٣/٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٦) ساقطة من ت.

بعض ذلك حدود معروفة من قطع يد [٨٣] أو رجل أو جلد مائة أو ثمانين. وفي بعض ذلك أدب فقط. وهذا انقطاع ظاهر وبطلان لقولهم.

فصل

وأما ما احتجوا به من السنة فمنه قوله ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرقها وهو مؤمن[١] الحديث.

ووجه الدلالة من ذلك أن الشارع ﷺ سلب عليه الإيمان بملابسة هذه المعاصي. وإذا سلب عنه الإيمان كان متلبساً بضده وهو الكفر. والجواب من وجوه:

أحدها: أنكم مخالفون لهذا الخبر من وجهين:

الأول: أن أخبار الآحاد لا يجيزون الاحتجاج بها إن لم يبلغ مرتبة المتواترات القطعيات، وهذا ليس منها[٢].

الثاني: إن الحديث إنما دل على سلب الإيمان عنه حين ملابسة الفعل دون ما بعد ذلك، وأنتم تخالفون ذلك، وتسلبون عنه الإيمان حين ملابسة الفعل وبعده، والحديث دال على خلاف ذلك[٣].

الوجه الثالث: إنه إذا سلب عنه اسم الإيمان خرج منه إلى الإسلام. وقد أخذ بهذا طائفة من العلماء.

الرابع: أنه قد تقدم أن الكفر كفران، كفر[٤] هو جحد الله، وذاك يزيل عن الملة، وكفر هو عمل هو ضد الإيمان الذي هو عمل ينفي الإيمان عنه فنفي الإيمان عنه إنما هو لنفي الإيمان العملي واختاره محمد بن نصر المروزي.

---

(١) البخاري، الصحيح: ١٤٣٨، كتاب الحدود، حديث رقم (٦٨٠٩).
(٢) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٦٠٦/٢.
(٣) الطبري، تهذيب الآثار (مسند ابن عباس): ٦٤٠/٢.
(٤) ساقطة من ت.

فصل

حمل الحديث على نفي الإيمان الكامل المطلق لا مطلق الإيمان، وهذا اختاره أبو بكر بن أبي شيبة وغيره. والجواب وأما ما احتجوا به من العقل، قال إمام الحرمين: ومما كثر تشعيبهم به أن قالوا: لو كان الإيمان تصديقاً لوجب الحكم بإيمان من يقتل نبياً أو يستخف به، أو يسجد بين يدي وثن، فإن هذه الأعمال لا تضاد المعرفة. فلما أجمعنا على تكفير من صدر منه هذه الأفعال دل على أن الإيمان لا يرجع إلى تصديق القلب، بل يكفر بارتكاب المحرمات. والجواب من وجوه [٨٤]:

أحدها: أن يقال بل[١] ما ذكره يضاد المعرفة الحقيقية إذ لو عرف الرب معرفة تليق به لم تصدر منه هذه الأفعال القبيحة. وأي إيمان لهذا وأي معرفة له وهو يسجد لغير الله ويقتل رسله. فمن زعم أن هذا مؤمن بالله إيماناً كاملاً ومصدقاً به وهو يفعل ذلك فقد كابر العقل والحس.

الثاني: أن النبي ﷺ جعل صلاح الأعمال الظاهرة دالة على صلاح القلب وفسادها دلالة على فساده، ففي السنن أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه، فالرسول استدل بالأعمال الظاهرة على الأعمال الباطنة. وفي الصحيح[٢] أن النبي ﷺ قال: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

قال أبو هريرة: القلب كالملك والأعضاء جنود، وإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، فمن زعم أن القلب يكون مؤمناً صالحاً وأن باقي الجسد فاسد يكون شركاً وكفراناً، فقد عارض الشريعة كما ترى.

الثالث: إن هذا القول مخالف لإجماع المسلمين. قال أبو عمر الطلمنكي: أجمع المسلمون كلهم قبل حدوث الحرورية وحدوث المعتزلة أن أصحاب الكبائر مؤمنون بإيمانهم، فاسقون بكبائرهم. ثم أحدثوا المذهبين الذين خالفوا فيهما المسلمين أجمعين. فالاعتصام بالإجماع فرض حتى يزله إجماع مثله، وهذا لا سبيل إليه.

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) البخاري، الصحيح: ٢٦، كتاب الإيمان، حديث رقم (٥٢).

الفرقة الثالثة من الأصول

الروافض، ويسمون الخشبية والشيعة

والكلام عليهم من وجوه:

الأول في سبب هذه التسمية

فصل:

قال إمام الحرمين: ومما صعب موقعه على الخوارج أن يقال لهم قد وصف الله آدمعليه السلام بالمعصية فقال ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[1]. فهل تحكمون بأنه كفر أم لا؟ فإن قضيتم بذلك جاهرتم بالكفر الصراح، وانسللتم عن ربقة الدين وإن أثبتم ذلك نقضتم مذهبكم. وقد يأبى معظم الخوارج من وصفهعليه السلام بذلك. ولهذا ينقض أصلهم نقضاً صريحاً [٨٥].

قال غير واحد: سموا بهذا الإسم لما رفضوا زيد بن علي بن الحسين في خلافة هشام، وكانوا قبل ذلك يسمون الخشبية لقولهم إنا لا نقاتل بالسيف إلَّا مع إمام معصوم، فقاتلوا بالخشب، ولهذا جاء عن الشعبي أنه قال: ما رأيت أحمق من الخشبية. وكان سبب رفضهم لزيد بن علي أن الذين بايعوه، قالوا له: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: أثنى عليهما جدي علي، وقال فيهما حسناً. وإنما خروجي على بني أمية فإنهم قاتلوا جدي علياً، وقتلوا جدي حسيناً، فخرجوا عليه ورفضوه[2].

---

(١) سورة طه، الآية ١٢١.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٣٧/١.

وقال أبو الحسن الأشعري[1]: سموا شيعاً لأنهم شيعوا علياً وقدموه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ.

الثاني: في أول من أبدع هذه البدع للروافض

ذكر أبو العباس بن تيمية أنه عبدالله بن سبأ، وذكر غيره غير ذلك.

الثالث: في نبذ مما ورد في ذمهم.

قال الطلمنكي: ما فتشت رافضياً قط إلا وجدته زنديقاً. وقال عباس الدوري: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام يقول: عاشرت الناس وكلمت أهل الإسلام، فما رأيت قوماً أوسخ وسخاً، ولا أضعف حجة، ولا أحمق من الرافضة.

وقال الطلمنكي: قال علي: سيكون بعدنا أقوام ينتحلون مودتنا، يكذبون علينا، مارقة آية ذلك إنهم يسبون أبا بكر وعمر. وقال الشعبي: ما رأيت أحمق من الخشبية، لو كانوا من الطير لكانوا رخماً، ولو كانوا من البهائم لكانوا حمراً، والله لو طلبت منهم أن يملأ لي هذا البيت ذهباً على أن أكذب على علي لأعطوني، والله ما كذبت عليه أبداً.

وقال أيضاً: أحذركم هذه الأهواء المضلة وشرها الرافضة، لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة ولكن مقتاً لأهل الإسلام، وبغياً عليهم ولو أخذنا فيما ورد في ذمهم [٨٦] لطال ذلك. وقد ذكر غير واحد لهم أوصافاً أشبهوا فيها اليهود نحواً من أربعين صفة ليس هذا مقام بسطها.

الرابع: في الكلام على فرقهم

الفرقة الأولى: الجارودية

أتباع أبي الجارود. وقال أبو المظفر: كان من مذهبه أن النبي ﷺ نص على علي بالإمامة بالصفة لا بالإسم. وكان من مذهبه أن الصحابة كفروا كلهم بتركهم بيعة علي،

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٦٥/١.

ومخالفتهم النص الوارد عليه. وكان يقول إن الإمام بعده الحسين بن علي وتكون الإمامة بعدهم شورى في أولادهما[١].

الفرقة الثانية: السليمانية

أتباع سليمان بن جرير الزيدي. وكان يقول: إن الإمامة شورى متى عقدها اثنان من خيار الأمة لمن يصلح لها فهو إمام على الحقيقة، وكان يقر بإمامة أبي بكر وعمر، ويجوّز إمامة المفضول وكان يقول إن الصحابة تركوا الأصلح بتركهم بيعة علي، فإنه كان أولى بها، وكان إعراضهم عنه خطأ لا يوجب كفراً ولا فسقاً. وهم يكفرون عثمان بسبب ما أخذ عليه من الأحداث. ويكفرهم أهل السنة بتكفيرهم عثمان[٢].

الفرقة الثالثة: البُترية

وهم أتباع كثير النَّواء المقلب بالأبتر، وهو قول هؤلاء كقول السليمانية، يتوقفون في عثمان، ولا يقولون فيه خيراً ولا شراً. وهذا قول نسب إلى الحسن بن صالح بن حي[٣].

الفرقة الرابعة: الكيسانية

أتباع المختار بن أبي عبيد الذي كان يطلب ثأر الحسين بن علي وكان يقتل كل من ظفر ممن كان قاتله بكربلاء[٤].

قال أبو المظفر الاسفراييني: وهم فرق بالجملة يجمعهم القول بنوعين من البدعة:

أحدهما: تجويز البداء على الله.

الثاني: قولهم بإمامة محمد بن الحنفية[٥].

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٤١/١.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٤٣/١.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٤٤/١.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٩١/١.

(٥) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٤٦.

الفرقة الخامسة: الكربية

يقولون: إن محمد بن الحنفية لم يمت ولم يقتل، وأنه في جبل رضوى وعنده عين من الماء، وعين من العسل يتناول منهما، وعنده أسد ونمر يحفظانه من الأعداء[١].

الفرقة السادسة: الكاملية

[٨٦] أتباع أبي كامل يقولون أن الصحابة كلهم كفروا بتركهم بيعة علي وكفر علي أيضاً بتركه قتالهم إذ كان واجباً عليه أن يقاتلهم. ويقال أن بشار بن برد الشاعر منهم. كذا نقله أبو المظفر[٢].

وحكى عن ابن بشار[٣] هذا أنه كان يقول بنوعين من البدعة والكفر:

أحدهما: أنه يقول بالرجعة قبل القيامة كما يقوله طائفة من الروافض.

والثاني: أنه يقول بتصويب إبليس في تفضيل النار على التراب. ومن شعره.

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ووفق الله المهدي بن المنصور الخليفة حتى غرقه وأتباعه في دجلة[٤].

الفرقة السابعة: البيانية

أصحاب بيان بن سمعان التميمي الذي ادعى الإلهية لعلي والأئمة من ولده، ثم ادعى لنفسه[٥].

الفرقة الثامنة: الجناحية

وهم يكفرون بالقيامة والجنة والنار، ويستحلون جميع المحرمات، وهم أصحاب عبدالله بن معاوية ذي الجناحين[٦].

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ٩٢/١، البغدادي، الفرق بين الفرق: ٤٧.
(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٦٠.
(٣) كذا في الأصول، والصواب بشار بن برد.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٦١
(٥) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢١٦.
(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٢٢.

الفرقة التاسعة: المنصورية

أصحاب أبي منصور العِجْليّ الذي زعم أنه الكسف الساقط من السماء[1].

الفرقة العاشرة: الخطابية

أصحاب أبي الخطاب الأسدي. وكان يقول بآلهية جعفر الصادق، ثم ادعى لنفسه[2].

الفرقة الحادية عشرة: الغُرابية

الذين زعموا أن جبريل غلط في نزول الوحي على محمد ﷺ، وإنما كان مبعوثاً إلى علي[3].

الفرقة الثانية عشرة: الذمية

الذين ذموا محمداً ﷺ، وزعموا أن علياً أرسله ليدعوا إليه فادعى الأمر لنفسه، قبحهّم الله[4].

الفرقة الثالثة عشرة: الهشامية

أصحاب هشام بن الحكم المفرط في التجسيم والتشبيه لعنه الله[5].

الفرقة الرابعة عشرة: الزرارية

أصحاب زُرارة بن أعين الذي قال بحدوث علم الله، وحدوث قدرته، وحياته وسائر صفاته[6].

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٢١.
(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٢٣.
(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٢٥.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢٢٦.
(٥) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٧١.
(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٧٦.

الفرقة الخامسة عشرة: اليونسية

أصحاب يونس القمي الذي زعم أن الملائكة تحمل[١].

الفرقة[٨٨] السادسة عشرة: الشيطانية

أصحاب شيطان الطاق الذي زعم أن الله لا يعلم الشيء حتى يكون[٢].

الفرقة السابعة عشرة: السبئية

أصحاب عبدالله بن سبأ، وهم الذي أظهروا سب أبي بكر وعمر. فمنهم من يقول أن علياً لم يمت، ومنهم من يدعي له الإلهية، وتسمى هذه الفرقة الطيارة وهم الذين حرقهم علي رضي الله عنه بالنار[٣].

الفرقة الثامنة عشرة: القرامطة

يزعمون أن خلافة النبي ﷺ اتصلت بالنص إلى جعفر، وأن جعفر نص على إمامة ابن ابنه محمد بن إسماعيل. وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت، ولا يموت حتى يملك الأرض. وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به واحتجوا في ذلك بأخبار رواها عن أسلافهم يخبرون فيها أن سابع الأئمة قائمهم. وهؤلاء يقال لهم السبعية أيضاً كما يقال لأولئك الإثنا عشرية[٤].

الفرقة التاسعة عشرة: الزيدية

أصحاب زيد بن علي المقتول بخراسان، يزعمون أن علياً كان أفضل خلق الله مع الرسول ﷺ. ومنهم من يقول أن علياً وصي رسول الله ﷺ، وهو الإمام، وأن الأمة

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٧٦ واستفظع العمري أن يقول: ماذا تحمل الملائكة بزعم اليونسية ذلك أنهم يقولون أنهم يحملون الله عز وجل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٧٧، وهم أصحاب محمد بن النعمان الملقب بشيطان الطاق.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ٢١٣.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١/١٠٠ ـ ١٠١.

كفرت وضلت في تركها البيعة له، وبه يقول أبو الجارود وأتباعه(١).

الفرقة الموفية عشرين: الراوندية

وهم شيعة ولد العباس. قالوا: ليست الخلافة إلَّا في العباس وولده من بعده، ولا حق لأحد فيها سواهم. وهي وراثة من الرسول ﷺ. قالوا: ونص عبدالله بن عباس على ابنه علي بن عبدالله ثم ساقوا الإمامة إلى أن انتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور(٢).

الرابع: في الكلام على حججهم

إعلم أنا لو أخذنا في ذكر جميع ما خالفوا فيه أهل السنة وما نابذوهم به من الأقوال الباطلة المخالفة للمعقول والمنقول لطال ذلك. ومن تُدبّر أقوالهم ونحلهم وجد مقصدهم تغيير دين الإسلام وتحريفه، وإفساده وإلَّا [٨٩] فهذه الأقوال التي انتحلوها لا تصدر ممن له لبّ.

قال أبو المظفر الاسفراييني في مقالاته: وهذه المقالة التي أوردناها عن الروافض ليست مما يستدل على فسادها، فإن العاقل ببديهة العقل يعلم فسادها وينكر عليها، فلا يمكن أن نحمل منهم هذه المقالات إلا على أنهم قصدوا إظهار ما كانوا يضمرونه من الإلحاد والتستر فيه بمقالات قوم من أشراف أهل البيت، وإلا فليس لهم دليل يعتمدون عليه. ولذلك كان المختار بن أبي عبيد يظهر النسبة إليهم، وقد كان يدعى النبوة، وإنما كان يتستر بذلك.

فصل: وعمدة الكلام منهم في مقامين، أحدهما المفاضلة، والثاني في الإمامة

المقام الأول في المفاضلة:

قالت الروافض: الدليل على أفضلية علي بن أبي طالب على غيره من الصحابة من وجوه:

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين: ١٤١/١.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل: ١٥٠/١.

أحدها من القرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]. وروى مسلم والترمذي وأحمد عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة يوم، وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

قالوا: فقد خصَّ أهل البيت بذهاب الرجس عنهم، ومن ذهب عنهم الرجس أفضل ممن لم يذهب عنهم. وعلي بن أبي طالب أفضل أهل البيت بالإجماع، فيكون أفضل الأمة.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذه الآية لا تقتضي وقوع التطهير لهم[3] لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[4]. ولقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[5]. فإرادة الله في هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك ورضاه به، وإنه شرعه للمؤمنين، وأمرهم به ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد[٩٠] ولا إنه قضاءه وقدره.

الثاني: إن النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا. فطلب من الله إذهاب الرجس والتطهير لهم. فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس لم يحتج إلى طلب الدعاء.

الثالث: إن القول بذلك مخالف لأصولهم، فإن قدرة الله وإرادته عندهم لا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية، ٣٣، والحديث أخرجه مسلم، الصحيح: ١١٧٩، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٦٣٤١)، والترمذي، السنن: ٦٢١/٥، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٧٨٧).

(٣) ت: له.

(٤) سورة المائدة، الآية ٦.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

تتضمن وجود المراد بل عندهم قد يريد ما لا يكون، ويكون ما لا يريد. فليس في كونه تعالى مريداً لذلك ما يدل على وقوعه. وعندهم إن الله قد أراد الإيمان من كل من على وجه الأرض.

الرابع: إن أزواج النبي ﷺ دخلن في هذا الخطاب على قول جماعة من العلماء والسياق يقتضيه. قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[١].

فالخطاب كله لأزواج النبي ﷺ، الأمر والنهي، والوعد والوعيد. لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهن وتعم غيرهن جاء بلفظ التذكير. فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. فإن ما يريده من إذهاب الرجس وحصول التطهير ليس مختصاً بأزواجه بل يتناول أهل البيت كلهم وعلي وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم ولذلك خصهم النبي ﷺ [٩١] بالدعاء لهم.

الوجه الثاني من السنة:

وهو ما ثبت من السنة وهو ما[٢] ثبت من الصحيحين[٣] عن النبي ﷺ أنه قال لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى. قالوا: ولم يكن في زمن موسى بعده أفضل من

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) البخاري، الصحيح: ٧٨٠، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٧ز٦)، مسلم، الصحيح: ١١٧٠، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم (٦٢٩٥) وحديث (٦٢٩٧).

هارون. فدل ذلك على أن علي بن أبي طالب أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، والجواب من وجوه:

أحدها: إنه قال له ذلك في غزوة تبوك، وكان النبي ﷺ كلما سافر في غزوة أو عمرة أو حج يستخلف على المدينة بعض الصحابة. كما استخلف على المدينة في غزوة ذي أمر عثمان بن عفان، وفي غزوة بني قينقاع بشر بن المنذر، ولما غزا قريشاً استعمل ابن أم مكتوم. وبالجملة فمن المعلوم إنه ما كان يخرج من المدينة حتى يستخلف[1].

وقد ذكر المؤرخون من كان يستخلف في مغازيه كلها، وكان يكون رجال كثيرون يستخلف عليهم من يستخلف، فلما كان غزوة تبوك لم يأذن لأحد في التخلف عنها، وهي آخر مغازيه ﷺ، فلم يتخلف عنه إلّا النساء والصّبيان أو من هو معذور لعجزه عن الخروج أو من هو منافق. وتخلف الثلاثة الذين ثبت عليهم، وكان هذا الاستخلاف أضعف من الاستخلافات المعتادة منه ﷺ بالنسبة إلى من استخلفه عليهم، لأنه لم يبق بالمدينة إلا القليل. فلهذا خرج إليه علي يبكي ويقول أتخلفني مع النساء والصبيان. فبيّن له النبي ﷺ أني إنما استخلفتك لأمانتك عندي وأن الاستخلاف ليس بنقص، فإن موسى استخلف هارون على قومه، فكيف يكون نقصاً وموسى يفعله بهارون؟ فطيب بذلك قلب علي رضي الله عنه[2].

الثاني: أن قول القائل هذا بمنزلة هذا أو هذا بمنزلة هذا هو كتشبيه الشيء بالشيء، وتشبيه الشيء بالشيء يكون بحسب ما دل [٩٢] عليه السياق لا يقتضي المساواة في كل شيء. ألا ترى ما ثبت في الصحيحين من قول النبي ﷺ في حديث الأسرى لما استشار أبا بكر وعمر، فأشار أبو بكر بالفداء وأشار عمر بالقتل. فمثّل النبي ﷺ أبا بكر بإبراهيم وعيسى، ومثّل عمر بنوح وموسى، فقوله هذا مثل إبراهيم وعيسى وهذا مثل نوح وموسى أعظم من قوله أنت مني بمنزلة هارون من موسى، فإن إبراهيم وموسى ونوح وعيسى أفضل من هارون وقد جعل هذين مثلهم ولم يرد أنهما

(١) ابن حزم، الفصل: ١٥٩/٤.

(٢) ابن حزم، الفصل: ١٥٩/٤.

مثلهم في كل شيء لكن فيما دل عليه السياق من الشدة في الله واللين في الله والدليل هنا إنما هو بمنزلة هارون فيما دل عليه السياق وهو استخلافه في مغيبه فقط.

الثالث: مخالفة هذا القول لعلي بن أبي طالب، ففي صحيح البخاري[1] عن محمد بن الحنفية عن أبيه أنه قال: خير الناس بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر. وسئل الشعبي من أفضل الصحابة؟ فقال: أبو بكر وعمر، فقيل له: أتقول هذا وأنت شيعي، فقال: من لم يقل هذا فليس بشيعي. والله لقد صعد على هذه الأعواد وقال: ألا إن خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر. أفكنا نرد قوله! أفكنا نكذبه! والله ما كان كذاباً.

الرابع: قد ذكر غير واحد إجماع العلماء على تقديم أبي بكر وعمر على غيرهما من الصحابة. قال أبو عبدالرحمن النسَّائي: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب، وهذا قول علي بن أبي طالب، ولا نعلم بين أهل العلم الذي أدركناهم خلافاً في ذلك، وهو قول مالك بن أنس وسفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان.

وقال ابن القاسم سألت مالكاً عن أبي بكر وعمر، فقال: ما رأيت أحداً اقتدي به يشك في تقديمهما يعني على علي وعثمان، ولو أخذنا في ذكر فضائل أبي بكر رضي الله عنه وما امتاز به على غيره من الصحابة من التقدم في الإسلام [٩٣] وغير ذلك من الأعمال الظاهرة، وقربه من رسول الله ﷺ لطال ذلك جداً، ولما سأل هارون الرشيد مالك بن أنس عن منزلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من النبي ﷺ في حياته كيف كانت؟ فأجابه بجواب حسن مختصر فيه الكفاية بأن قال: انظر يا أمير المؤمنين منزلتهما في مماته كذلك كانت منزلتهما منه في حياته. فجعل هارون يقول: شفيتني يا مالك، شفيتني يا مالك[2].

---

(١) البخاري، الصحيح: ٧٧١، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٧١).

(٢) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٤/٤٢٤.

المقام الثاني: الكلام في الإمامة

قالت الروافض: أولى الناس بالإمامة بعد الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، ولهم في هذه الأولوية طرق:

أحدها: إنه نصَّ على علي نصاً جلياً باسمه.

الثاني: إنه نصَّ عليه بصفة لم تكن توجد إلَّا فيه لا من جهة التسمية، وهذا قول الزيدية.

الثالث: إنه كان أفضل الصحابة فلذلك كان المقدم إذ لا يجوز ولاية المفضول مع وجود الفاضل. ولهم من الأدلة على الإمامة له وجوه:

أحدها: من القرآن، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

قالوا: وهذه نزلت في علي. فروى الثعلبي في تفسيره عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلَّا صمتا، ورأيته بهاتين و إلَّا عميتا، يقول: علي قائد البررة، قاتل الكفرة، فمنصور من نصره، ومخذول من خذله، أما أني صليت مع رسول الله ﷺ يوماً صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي راكعاً فأومى إليه بخنصره اليمنى وكان متختماً، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم. فنزل جبريل على النبي ﷺ وقال: يا محمد اقرأ. قال: وما أقرأ. قال: إقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2]. قالوا: فقد أثبت لعلي [٩٤] الولاية كما أثبتها لنفسه ولرسوله، وهذا نص قاطع في الإمامة له[3].

والجواب من وجوه:

أحدها: إنما ذكره كذب باطل من جنس السفسطة. وهذا حديث كذب لا تقوم

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥/٧ ـ ٧.

به الحجة ومجرد عزوه إلى الثعلبي ليس بحجة باتفاق أهل العلم من الشيعة وغيرهم[١].

الثاني: مناقضة هذا النقل بما نقل أيضاً الثعلبي في تفسيره أن هذه الآية نزلت في أبي بكر، ونقل عن عبدالملك قال: سألت أبا جعفر قال: هم المؤمنون. قلت: فإن ناساً يقولون هو علي. قال: فعلي من الذين آمنوا[٢].

وروى ابن أبي حاتم[٣] في تفسيره عن ابن عباس قال: كل من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذي آمنوا[٤].

الثالث: إن هذا الاستدلال يلزم التصدق بالخاتم في الصلاة شرط في الولاية وأن لا يتولى المسلمون إلا علياً فلا يتولون الحسن ولا الحسين ولا سائر بني هاشم، وهذا باطل قطعاً[٥].

الرابع: إن الصيغة صيغة جمع فحمله على علي وحده منافٍ لظاهر اللفظ[٦].

الخامس: إن علي بن أبي طالب لم يكن ممن يجب عليه الزكاة على عهد رسول الله ﷺ، فإنه كان فقيراً، وزكاة الفضة إنما تجب على من ملك النصاب حولاً كاملاً وعلي لم يكن من هؤلاء إذ ذاك[٧].

الوجه الثاني من السنة:

روى أبو داود والترمذي[٨] وأحمد في مسنده عن النبي ﷺ إنه وقف بغدير يدعى خماً، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. قالوا: والمولى هنا المتصرف لتقدم التقرير

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة: ٧/٧ ـ ١٠.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ١٤/٧.

(٣) ت: ابن أبي حازم.

(٤) ابن تيمية، منهاج السنة: ١٤/٧.

(٥) ابن تيمية، منهاج السنة: ١٥/٧ ـ ١٦

(٦) ابن تيمية، منهاج السنة: ١٦/٧.

(٧) ابن تيمية، منهاج السنة: ١٧/٧.

(٨) الترمذي، السنن: ٥٩١/٥، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٧١٣).

منه ﷺ بقوله: ألست أولى منكم بأنفسكم. والجواب من وجوه:

أحدها: منع صحة هذا الحديث، فقد ضعفه وطعن فيه جهابذة الحفاظ كأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري وإبراهيم الحربي وأبي بكر بن أبي داود السجستاني وأبي حاتم الرازي(١).

وقال ابن زنجويه: ضعّف هذا الحديث أكثر أهل العلم والحديث. قال: وأجمع أهل العلم على تضعيف ما روي فيه من الزيادة وهو: اللهم والِ [٩٥] من والاه، وعاد من عاداه إلى آخره.

وقال أبو محمد بن حزم(٢): وأما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه، فلا يصح عن طريق الثقات أصلاً.

الثاني: على تقدير صحته فلا دلالة فيه لمطلوبهم إذ المولى يطلق بإزاء أربعة وعشرين معنى وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة وأقوال العرب. قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾(٤) ومنه ولاية الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾(٥). ويطلق على الناظر وعلى ابن العم وعلى العبد وعلى غير ذلك مما يطول شرحه هنا. فليس حمله على ما يريدونه أولى من حمله على مالا يريدونه.

قال ابن زنجويه: فإذا احتمل المولى هذه المعاني لم يجز لأحد يقطع على أن المراد واحد إلا بدليل.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٤/٤١٨، منهاج السنة: ٧/٣١٩.

(٢) ابن حزم، الفصل: ٤/٢٢٤.

(٣) سورة النساء، الآية ٣٣.

(٤) سورة مريم، الآية ٥.

(٥) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

الثالث: قال ابن قتيبة: روى أبو ثور أنه سئل عن معنى قول النبي ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال أبو ثور: كذلك هو، صدق رسول الله ﷺ، النبي من بني هاشم، وعلي من بني هاشم، فإذا أعتق النبي ﷺ أحداً من الغنيمة فهو مولى النبي ﷺ، وهو مولى بني هاشم، وعلي من بني هاشم، وكذلك من اعتقه علي فهو بهذه المنزلة كما يدعي عتيق أحدهم مولى بني هاشم، وإنما اعتقه أحدهم.

فصل:

إذا تقرر هذا فاختلف العلماء في الطريق التي ثبتت بها الخلافة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه على أقوال:

أحدها: أنها تثبت بالنص الجلي. فروى ابن بطة في كتاب الإبانة قال: بعث محمد ابن الزبير الحنظلي إلى الحسن البصري فقال: هل كان رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر، فقال: أوفي هذا شك، نعم والله الذي لا إله [٩٦] إلا هو استخلفه، فهو كان أتقى لله من أن يتوثب عليها[١]. وروى ابن بطة أيضاً عن معاوية بن قرة أن رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر[٢] وقال ابن حزم[٣]: قالت طائفة: بل نصَّ رسول الله ﷺ على استخلاف أبي بكر بعده على أمور الدين نصاً جلياً، قال: وبه نقول، واختاره ابن حامد الحنبلي[٤].

الثاني: أنها تثبت بالنص الخفي والإشارة، وهي رواية عن أحمد وجماعة من أهل الحديث وجماعة من الخوارج[٥].

الثالث: تثبت بالاختيار من أهل الحل والعقد، وبهذا قال جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية واختاره القاضي أبو يعلى وغيره[٦].

---

(١) لم نعثر على الخبر في الإبانة لابن بطة وهو في منهاج السنة لابن تيمية: ٥٠٦/١.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥٠٧/١.

(٣) ابن حزم، الفصل: ١٧٦/٤.

(٤) ابن تيمية، منهاج السنة: ٤٨٨/١.

(٥) ابن تيمية، منهاج السنة: ٤٨٧/١.

(٦) ابن تيمية، منهاج السنة: ٤٨٧/١.

الرابع: أن النبي ﷺ دلّ المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله وأخبر[1] بخلافته إخبار راضٍ بذلك حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك. فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه ﷺ بياناً شافياً قاطعاً للعذر، ولكن لما دلهم دلالات متعددة على أبي بكر، وفهموا ذلك حصل المقصود. وهذا اختيار أبي العباس ابن تيمية[2].

ولائمة أهل السنة رضي الله عنهم في ثبوتها له من الأدلة وجوه:

الأول: من القرآن، قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[3]. قال أبو القاسم السهيلي ظهر تأويل هذه الآية حين انقلب أهل الردة على أعقابهم فلم يضر دين الله ولا أمة نبيه ﷺ. وكان أبو بكر يسمى أمير الشاكرين.

كذلك قال: وفي هذه الآية دليل على صحة خلافته لأنه هو الذي قاتل المنقلبين على أعقابهم حتى ردهم إلى الدين الذي[4] خرجوا منه. وكان في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ دليل على أنهم سيظفروا بمن ارتد وتكمل عليهم النعمة فيشكرون.

قال: وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾[5] الآية أيضاً التصحيح لخلافة أبي بكر لأنه الذي دعى الأعراب إلى قتال بني حنيفة. وكانوا أولي بأس شديد، ولم يقاتلوا لجزية وإنما قوتلوا ليسلموا. وكان قتالهم بأمر أبي بكر وفي سلطانه. ثم قال: فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً: فأوجب عليهم الطاعة لأبي بكر، فكان في الآية كالنص على خلافته.

---

(١) ت: وأخبار.

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥١٦/١.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) سورة الفتح، الآية ١٦.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1]. وقد بين في سورة الحشر من الصادقون، وهم المهاجرون لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2] فأمر الذين تبوؤا الدار والإيمان أن يكونوا معهم، أي تبعاً لهم، فحصلت الخلافة في الصادقين بهذه الآية، فاستحقوها بهذا الاسم، ولم يكن في الصادقين من سماه الله الصديق إلا أبو بكر، فكانت له خاصة ثم للصادقين بعده.

ومن السنة: ما روى البخاري[3] في الصحيح عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه. فقالت: أرأيت إن جئت إليك ولم أجدك كأنها تريد الموت، قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر. قال ابن حامد: وهذا نص في إمامته.

وروى البخاري[4] أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن. وقال ابن حامد: وهذا نص في الإمامة.

وثبت في الصحيحين[5] أن النبي ﷺ قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس الحديث[6]، وهو يراجع في ذلك مراراً حتى قال لأزواجه: إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس.

قال الشافعي وابن عبدالبر: أي شيء أوضح من هذا في الدلالة على خلافته

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٩.

(٢) سورة الحشر، الآية ٨.

(٣) البخاري، الصحيح: ٧٦٩، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٥٩).

(٤) البخاري، الصحيح، ١٥٦٩، كتاب التوحيد، حديث رقم (٧٤٧٥).

(٥) البخاري، الصحيح، ١٥٩، كتاب الصلاة، حديث رقم (٧١٢). مسلم، الصحيح: ٢٠٢، كتاب الصلاة، حديث رقم (٨٧٠).

(٦) ساقطة من ت.

وتقدمه. وروى أبو داود[1] في سننه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ رأى[٩٨] الليلة رجل صالح: أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر. قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما نوط بعضهم ببعض فهو ولاية هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه.

وروى أحمد في مسنده[2] عن عبدالرحمن بن أبي بكرة[3] عن النبي ﷺ قصة فيها أيكم رأى رؤيا، فقلت: أنا يا رسول الله، رأيت كأن ميزاناً دلي من السماء فوزنت بأبي بكر فرجحت، ثم وزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر، ثم وزن عثمان بعمر، فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان. فقال النبي ﷺ: خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك لمن يشاء.

وفي الصحيحين[4] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال بمحضر من الصحابة المهاجرين والأنصار: ليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر. وهذا بمحضر منهم، ولم ينكره منهم أحد، فدلّ على أنه أفضل الأمة بعد نبيها، وأحقهم بالإمامة.

وفي الصحيحين[5] أيضاً عن عمر أنه قال يوم السقيفة بمحضر من المهاجرين والأنصار: أنت خيرنا وسيدنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، ولم ينكر ذلك منهم أحد، ولا قال أحد من الصحابة أن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه.

قال ابن حزم[6]: وقد أطبق الذين قال الله فيهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[7] على تسميته خليفة رسول الله، ومعنى الخليفة في اللغة هو الذي يستخلفه المرء لا الذي

---

(١) أبو داود، السنن: ١٠٥٩، كتاب السنة، حديث رقم (٤٦٣٦).

(٢) أحمد، المسند: ٩٤/٣٤، حديث رقم (٢٠٤٤٥).

(٣) في الأصول: أبي بكر والتصحيح من المسند.

(٤) البخاري، الصحيح: ١٤٤٢، كتاب الحدود، حديث رقم (٦٨٣٠)، مسلم، الصحيح: كتاب الحدود، حديث رقم (١٦٩١).

(٥) البخاري، الصحيح: ٧٧١، كتاب المناقب، حديث رقم (٣٦٦٨).

(٦) ابن حزم، الفصل: ١٧٦/٤.

(٧) سورة الحشر، الآية ٨.

يخلفه دون أن يستخلفه هو لا يجوز غير هذا في اللغة البتة بلا خلاف.

وقال غيره: اتفق الناس على بيعته وأولويته لهذا الأمر. ولم ينازع في هذا إلا بعض الأنصار طمعاً في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت عن النبي ﷺ بالنصوص المتواترة بطلانه. ثم إن الأنصار جميعهم بايعوا أبا بكر إلَّا سعد [٩٩] بن عبادة لسبب معروف وهو تعيينه للخلافة على الأنصار، والله يغفر له(١).

ثم إنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه روى عن النبي ﷺ نص على غير أبي بكر لا على المعين ولا على علي ولا على غيرهما، ولا ادعى المعين ولا علي ولا أحد ممن يحبهما الخلافة لواحد منهما ولا أنه منصوص عليه، ولا قال أحد من الصحابة أن في قريش من هو أحق بها من أبي بكر. قال ابن تيمية(٢): وهذا معلوم عند العلماء بالأضطرار، فإذا تقرر هذا فالرافضة جهال معاندون للحق قبحهم الله.

قال بعض العلماء: سئلت اليهود، فقيل لهم: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: حواري عيسى، وسئلت من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد. فهل تكون طائفة أقبح من هؤلاء يعمدون إلى أصحاب نبيهم وأنصاره فيسبونهم ويغمصونهم، وقد أمرنا بموالاتهم والاستغفار لهم(٣).

قال عبدالله بن مسعود: إن الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه لرسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، ولو بسطنا ما ورد في الأمر بمحبتهم وموالاتهم لكثر ذلك.

وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: قيل لعائشة: إن أناساً يتناولون أصحاب محمد رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر. فقالت: وما تعجبون من هذا، انقطع عنهم العمل في الدنيا، فأحب الله إلا يقطع عنهم الأجر.

(١) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥١٨/١.
(٢) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥١٩/١.
(٣) ابن تيمية، منهاج السنة: ٢٧/١.

الفرقة الرابعة من الأصول القدرية

وهم المعتزلة

قال الشهرستاني[١]: ويلقبون بالقدرية[٢] يعني المعتزلة، والكلام عليهم من وجوه:

الأول: في موجوب التسمية.

سموا بذلك لنفيهم القدر عن الله كما تقدم عن إسحاق ذكره. وقال الطلمنكي: إن قيل لم سميتمونا[١٠٠] قدرية؟ قلنا: سميناكم قدرية لأنكم تقولون أنكم تقدرون لأنفسكم، ولا يقدر الله عليكم، وتخلقون من أفعالكم ما لم يخلقه الله فيكم، وزعمتم أن الله يريد منكم الطاعة، وتزيدون أنتم المعصية، فيكون ما تريدونه من أنفسكم دون ما يريده الله منكم. فلما أثبتم ذلك لأنفسكم دون خالقكم ـ تعالى الله عن أفككم ـ وجب أن تكونوا قدرية. والدليل على ذلك أن من زعم أنه يصوغ سمي صائغاً دون من زعم أنه يصاغ له. وكذلك التاجر من يتجر لا من يُتجر بماله.

الثاني: أول من أبدع هذا الرأي الفاسد

قال اللالكائي[٣]: قال ابن عون: أدركت الناس وما يتكلمون إلّا[٤] في علي وعثمان حتى نشأ هاهنا حقير يقال له سيبويه البقال. قال[٥]: وكان أول من تكلم في القدر.

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل: ٣٨/١.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٦٥٨/١.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٦٥٨/١.

وقال عياش: أدركت البصرة وما بها قدري إلا سنسويه ومعبد الجهني وآخر ملعون في بني عوافه.

وقال الأوزاعي: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانياً فأسلم ثم تنصّر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد(١).

الثالث: في نبذة مما ورد في ذمهم

في الصحيحين(٢): أن يحيى بن يعمر، وحميد بن عبدالرحمن، سألا عبدالله بن عمر، وقالا له: إنه ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ويتفقرون العلم، ويزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريئ، وأنهم مني برآء، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما قبل منه شيء حتى يؤمن بالقدر خيره وشره.

وروى أبو داود(٣) والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: القدرية مجوس هذه الأمة.

وروى أبو داود(٤) عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل أمةٍ مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته [١٠١] ومن مرض منهم فلا تعودهم وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال.

وروى ابن ماجة(٥) عن أبي هريرة قال: جاء مشركوا قريش يخاصمون النبي ﷺ في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾(٦).

---

(١) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٦٥٩/١.

(٢) مسلم، الصحيح: ٣٣، كتاب الإيمان، حديث رقم (٨).

(٣) أبو داود، السنن: ١٠٧، كتاب السنة، حديث رقم (٦٤٩١).

(٤) أبو داود، السنن، ١٠٧، كتاب السنة، حديث رقم (٦٤٩٢).

(٥) ابن ماجة، السنن: ١٠٦/١، المقدمة، حديث رقم (٨٣).

(٦) سورة القمر، الآيات ٤٨ ـ ٤٩.

وروي اللالكائي[1]: عن سعيد بن جبير، قال: القدرية يهود.

قال إمام الحرمين في كتاب الشامل: ولو أنصف المعتزلة لاجتزوا بهذه الألفاظ، وارتدوا عن فضائحهم بالمأثور من الآثار على لسان خلف الأمة وسلفها في ذم القدرية.

الرابع: في الكلام على فرقهم

اعلم أن المعتزلة على اختلاف فرقهم صنف منهم إذ جميعهم قدرية. قال أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات: أجمعت المعتزلة على أن الله لم يخلق الكفر ولا المعاصي ولا شيئاً من أفعال غيره إلا رجلاً منهم فإنه زعم أن الله خلقها بأن خلق أسماءها وأحكامها فهم بذلك جميعهم أصل واحد وهم على فرق.

الفرقة الأولى: المعبدية

أتباع معبد الجهني الذين يقولون أن لا قدر، وأن الأمر أنف أي مستأنف.

الفرقة الثانية: الواصلية

أتباع واصل بن عطاء الذي هو رأس المعتزلة وبه سميت المعتزلة، معتزلة. وذلك أن واصلاً هذا كان يختلف إلى الحسن البصري، وكان في السر يضمر اعتقاد معبد وغيلان. وكان يقول بالقدر. وكان المسلمون في فساق الملة على قولين، فكانت جميع أهل السنة يقولون: إنهم مؤمنون موحدون بما يفهم من الاعتقاد الصحيح، فاسقون عصاة بما يقدمون عليه من المعصية. وكان الخوارج يقولون: إنهم كفرة مخلدون في النار. فخالف واصل القولين وقال: إن الفاسق لا مؤمن ولا كافر، وأنه في منزلة بين المنزلتين، فاعتزل به دين المسلمين وطرده الحسن عن مجلسه، فاعتزل جانباً مع أصحابه فسموا معتزلة[2].

---

(١) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٦٦١/١.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١١٥ ـ ١١٦.

الفرقة الثالثة: العمروية[1]

اتباع عمرو[١٠٢] بن عبيد مولى بني تميم، وكان يوافق واصلاً مما ذكرناه من بدعته، وزاد عليه بأن قال: كلا الفريقين من أصحاب حرب الجمل فسقوا وهم خالدون مخلدون في النار[2].

الفرقة الرابعة: الهذيلية

وهم أتباع أبي الهذيل العَلَّاف الذي كفّره أصحابه من المعتزلة كالجبائي والاسكافي وغيرهما، ومن تناهى مقدورات الباري حتى إذا انتهت مقدوراته لا يقدر على شيء[3].

الفرقة الخامسة: النَّظَّامية

أتباع أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النّظّام. والمعتزلة يزعمون أنه سمي النظام لأنه كان حسن الكلام في النظم والنثر، وليس كذلك، بل كان ينظم الخرز في سوق البصرة في حداثة سنة. ومن شنيع قوله القول بالطَّفْرة[4].

الفرقة السادسة: الإسوارية

وهم أتباع الاسواري، وكان من أتباع النظام، موافقاً له في جميع ما ذكرناه، وزاد عليه بأن قال: إنما علم أنه لا يكون لم يكن مقدور الله تعالى، وهذا القول يوجب أن تكون قدرة الله متناهية[5].

الفرقة السابعة: المعمرية

أتباع معمر بن عَبّاد، كان يقول: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً من الأعراض من

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١١٨.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١١٩.

(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٢٧، ١٣٤.

(٥) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٤٤.

لون أو طعم أو رائحة أو حياة أو موت أو سمع أو بصر، وإنه لم يخلق شيئاً من صفات[1].

الفرقة الثامنة: البشرية

أتباع بشر بن المعتمر. ومن فضائحه قوله في باب التوالد: إن الإنسان يخلق اللون والطعم والرائحة والسمع والبصر وجميع الإدراكات على سبيل التولد. وكذلك يخلق الحرارة والبرودة والرطوبة[2].

الفرقة التاسعة: الهشامية

أتباع هشام بن عمرو الفُوَطيِّ، وكان من جملة القدرية، وزاد عليهم في بدع كثيرة منها أنه لا يجوز لواحد من المسلمين أن يقول حسبنا الله ونعم الوكيل[3].

الفرقة العاشرة: المردارية

أتباع أبي موسى المردار، وكان من رهبان المعتزلة. وكان من قوله إن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبما هو أفصح من ذلك[4]، وغير ذلك من الكفر كذب لعنه الله[5].

الفرقة [١٠٣] الحادية عشرة: الجعفرية

أتباع جعفر بن محمد وجعفر بن حرب، وكان قولهم إن رجلاً لو خطب امرأة، واجتمعا للعقد فوثب عليها وأطاعته فألم بها، إن المرأة لا حدّ عليها، والرجل يجب عليه الحد[6].

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٤٤.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٤٨.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٥٠.

(٤) ك: وبما هو أفصح منه.

(٥) «الله» ساقطة من ت والخبر في البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٥٥.

(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٥٧.

الفرقة الثانية عشرة: الإسكافية

أتباع محمد بن عبدالله الإسكافي، قال الإسفراييني: اقتدى في ضلالة القدرية بجعفر بن حرب، وكان أستاذه. ثم زاد عليه فقال: إن الله تعالى قادر على ظلم الأطفال والمجانين وليس بقادر على ظلم العقلاء البالغين. ومن خرافاته أنه يقول: إن الله يكلم عبيده، ولا يجوز أن يقال تكلم(١).

الفرقة الثالثة عشرة: الثُّمامية

أتباع ثمامة بن أشرس، وكان زعيم القدرية في أيام المأمون والمعتصم والواثق. وزاد على أسلافه بأن المعارف ضرورية. وكان يقول: إن من لم يعرف الله ضرورة ليس عليه أمر ولا نهي. وإن الله خلقه للسخر والاعتبار لا للتكليف كما خلق البهائم وكان يقول: إن الأفعال المتولدة لا فاعل لها(٢).

الفرقة الرابعة عشرة: الجاحظية

أتباع عمرو بن بحر الجاحظ، وكان من قوله: إن المعارف كلها طِباع، وإن كل من عرف شيئاً فإنما يعرفه بطبعه(٣).

الفرقة الخامسة عشرة: الشَّحامية

أتباع يعقوب بن الشحام أستاذ الجبائي في ضلالة القدرية، وجوّز هو والعلاف مقدوراً بين قادرين. ولكنهم جوزوا إنفراد كل واحد منهما بخلقه وقالوا: لو أراد الله أن ينفرد بخلقه، انفرد به. ولو أراد العبد أن ينفرد بخلقه انفرد به(٤).

الفرقة السادسة عشرة: الخياطية

أتباع أبي الحسن الخياط. ومن قولهم: إن المعدوم جسم(٥).

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٥٨.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٦١.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٦٤.

(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٦٧.

(٥) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٦٧

الفرقة السابعة عشرة: الكعبية

أتباع عبدالله بن محمود البلخي المعروف بأبي القاسم الكعبي. وكان يقول: إن الله لا يرى نفسه ولا يراه غيره. وكان ينفي الصفات ويزعم إن الله لا إرادة له، ولا سمع له، وإن معنى ذلك علمه(١).

الفرقة الثامنة عشرة: الجُبَّائية

أتباع أبي [١٠٤] [علي](٢) الجُبَّائي. ومن قوله حين سأله أبو الحسن الأشعري عن الطاعة، فقال: هي موافقة الإرادة. فقال له: هذا يوجب أن يكون الله مطيعاً لعبده إذاً أعطاه مراده. فقال: نعم، يكون مطيعاً له. وخالف إجماع المسلمين في ذلك. وكان يجوز أن يشتق للباري تعالى أسماء من أفعاله. ويجوز أن يسمى مُحبل النساء وغير ذلك(٣).

الفرقة التاسعة عشرة: البهشمية

أتباع أبي هاشم الجُبَّائي. قال الإسفراييني: وأكثر المعتزلة اليوم على قوله. لأن ابن عباد كان يدعو إلى قوله. وكان من قوله: إن العبد يستحق العقاب لا على فعل فعله وغير ذلك من الخرافات(٤).

الفرقة الموفية عشرين: الصالحية

أتباع الصالحي، وكان يزعم أنه يجوز وجود الجواهر اليوم خالية من العرض. وكان يزعم أن القدرة والإرادة والسمع والرؤية يجوز وجود هذا كله في الميت(٥).

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٦٩

(٢) ما بين الحاصرتين ساقطة من الأصول، والمثبت من البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٧٠.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٧٠ ـ ١٧١.

(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١٧٢.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل: ١/١٤٢ وهم أتباع صالح بن عمرو الصالحي.

الفرقة الحادية والعشرون: الخابطية

أصحاب أحمد بن خابط. وكان يزعم أن للعالم إلهين وخالقين أحدهما قديم، والآخر محدث(١).

الفرقة الثانية والعشرون: الجهمية

أتباع جهم بن صفوان. وكان من قوله: إن الجنة والنار تبيدان وتفنيان. وكان ينفي الصفات حتى يقول: لا أقول إن الله شيء لأن ذلك تشبيه له بالأشياء تعالى الله عن قوله علواً كبيراً(٢).

الفرقة الثالثة والعشرون: الجبرية

الذين زعموا أن العبد مجبور على الفعل كما أن المرتعش مجبور على الرعشة، وأنه لا تصريف له. وقد عد هذه الفرقة من المعتزلة الشهرستاني وغيره. وزعم أن الضرارية والنجارية منهم(٣).

قال أبو العباس بن تيمية(٤): الخائضون في القدر من أهل الضلال يجمعهم الانقسام إلى ثلاث فرق: مجوسية والمشركية وإبليسية.

فالمجوسية الذين كذبوا بقدر الله، وإن آمنوا بنهيه وأمره. فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب. ومقتصديهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته. وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم. [١٠٥]

والفرقة الثانية المشركية، الذي أقروا بالقضاء والقدر وأنكروا الأمر والنهي. قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾(٥). فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء.

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل: ٥٢/١.
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل: ٧٣/١.
(٣) الشهرستاني، الملل والنحل: ٧٢/١.
(٤) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ٢١٥/٢.
(٥) سورة الأنعام، الآية ١٤٨.

الفرقة الثالثة: الإبليسية، وهم الذين أقروا بالأمرين لكن جعلوا هذا تناقضاً من الرب تعالى وطعنوا في حكمته وعدله كما يذكر مثل ذلك عن إبليس مقدمهم كما نقله أهل المقامات. ونقل هذا عن أهل الكتاب.

الخامس من الكلام عليهم، وهو الدفع لآرائهم الفاسدة

قال: أهل الاعتزال أكثر الطوائف تشعيباً ولو أتينا على جميعه ما وسعه طاقة هذا المقام ولضاقت عنه رحاب هذا الكتاب.

قال أبو منصور التميمي[1]: واعتزالهم يدور على ثلاثة أشياء وهو القول بالقدر، وقد تقدم نقل الأشعري إجماعهم عليه. ثم قال: وبنفي الصفات وبالمنزلة بين المنزلتين.

فنقول: أما القول بالقدر فإنهم زعموا أن الله غير خالق لأفعال العباد، وإن العباد خالقون لأفعالهم مقدرون لها، وإن الله لا يضل أحداً، وأنكروا أن يكون الله خصَّ بعض العباد من النعم بما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له، وإن نعمته على أبي بكر كنعمته على أبي لهب، وأن هؤلاء أحدثوا أعمالاً صالحة، وهؤلاء أحدثوا أعمالاً فاسدة، وقد ذمهم السلف على هذه المقالة كما تقدم ذكره. وأتوا عليه بحجج وأدلة لا محيد لهم عنها من الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقد أخبر سبحانه في عدة مواضع أنه خالق كل شيء، وأنه خلق كل شيء فقدره تقديراً. وقال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[2].

وقال محمد بن نصر: ليس بين العلماء اختلاف في أن الأيمان شيء والكفر شيء، وأفعال العباد كلها أشياء. قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾[3]. فيقال للقدرية قد قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[4]. فإن قالوا: لا يجوز ذلك لأنه لو كان خلق الأفعال[١٠٦] ما أثاب على الطاعة ولا عاقب على المعصية. قلنا: أكذبتم

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق: ١١٢ ـ ١١٣.
(٢) سورة القمر، الآية ٤٩.
(٣) سورة القمر، الآية ٥٢.
(٤) سورة الفرقان، الآية ٢.

أنفسكم ونقضتم جملة ما أعطيتم من الإقرار بأن الله خالق كل شيء. ومن أضل وأجهل وأشد معاندة وخلافاً لكتاب الله ممن سمع الله عز وجل يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1] ثم زعم أن أكثر من مائة ألف ألف شيء سوى الله لم يخلقه. وذلك أن أهل السموات والأرض من الملائكة والجن والأنس أجسام، وكل واحد منهم يفعل مالا يحصى عدده من الأفعال بالقلوب والألسنة وسائر الجوارح فيكون حينئذ ما لم يخلق الله من الأشياء في قولهم أكثر مما خلق. وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾[2]. وهذا نص في بابه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه﴾[3]. قال زيد بن أسلم: لقد قالت القدرية قولاً ما قاله الله ولا قالته الملائكة ولا أهل الجنة ولا أهل النار، ولا كما قال أخوهم إبليس. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه﴾[4]. وقالت الملائكة ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾[5]. وقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾[6]. وقال أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[7]. وقال أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾[8]. وقال أخوهم إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[9]. وقال بعض السلف: إبليس خير من القدرية، فإنه آمن بالقدر وعلم أن الله خالق أفعال العباد، وإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وذلك في قوله ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[10].

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٧.

(٣) سورة التكوير، الآية ٢٩.

(٤) سورة التكوير، الآية ٢٩.

(٥) سورة البقرة، الآية ٣٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٨٩.

(٧) سورة الأعراف، الآية ٤٣.

(٨) سورة المؤمنون، الآية ١٠٦.

(٩) سورة الحجر، الآية ٣٩.

(١٠) سورة الحجر، الآية ٣٩. والخبر بطوله

قال بعض السلف: عرف إبليس أن الغواية جاءت من عند الله فآمن بالقدر. وقال إبراهيم: بيني وبين القدرية هذه الآية ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1]. وقال ابن عباس في قوله ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2]. قال: من يرد الله إضلاله[3] لم تغن عنه شيئاً.

والسلف من الصحابة والتابعين رضي الله[١٠٧] عنهم قد ألزموا القدرية علم الله فإن أقروا به خصموا، وإن لم يقروا به كفروا. ولهذا قال عمر بن عبدالعزيز لغيلان لما بلغه عنه القول بالقدر: ما تقول في علم الله، فقال: سبحان الله قد علم كل نفس ما هي عاملة وإلى ما هي صائرة. فقال عمر بن عبدالعزيز: اذهب فاجهد جهدك.

وروى اللالكائي[4] عن أبي رجاء قال: رأيت رجلين يتكلمان في القدر، فقال فضل الرقاشي: لا تقر له بالعلم، فإن أقررت له بالعلم فأمكنه من رجليك يسحبك عرض المربد.

وقال ربيعة بن أبي عبدالرحمن لغيلان: إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدت العلم كفرت[5].

وأما ما ورد من السنة فما ثبت في الصحيحين[6] عن النبي ﷺ في الجنين أنه قال: ثم يأمر الملك بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

وفي الصحيحين[7] عن أبي هريرة قال: تحاج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم

---

(١) سورة النمل، الآية ٥٧. والخبر في

(٢) سورة المائدة، الآية ٤١.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٦٦٣/١.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٠٨/٤٨ ونسب القول لعمر بن عبدالعزيز.

(٦) البخاري، الصحيح: ٦٧٩، كتاب بدء الخلق، حديث رقم (٣٢٠٨)، مسلم، الصحيح: ١٢٦٩، كتاب القدر، حديث رقم (٢٦٤٣).

(٧) البخاري، الصحيح: ١٤٠٢، كتاب القدر، حديث رقم (٦٦١٤)، مسلم، الصحيح: ١٢٧٣، كتاب القدر، حديث رقم (٢٦٥٢).

أنت أبونا أخرجتنا ونفسك من الجنة. قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، يا موسى أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال: فحج آدم موسى.

وفي الصحيحين[1] عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال: ما من أحد إلّا وقد كتب مَقْعَدُهُ من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول الله أفلا نَتَّكل على كتابنا وندع العمل، فقال: اعملوا فكل مُيَسَّرٌ لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم تلا قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[2].

وفي صحيح مسلم[3] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: وإن أصابك شيء فلا تقل لو فعلت كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

وفي صحيح مسلم[4] عن أبي هريرة قال:[١٠٨] إن النذر لا يقدر لابن آدم شيئاً لم يقدره الله، ولكن النذر يوافق القدر، فيخرج ذلك من البخيل ما لم يكن مريد إخراجه. وهذه نبذة قصيرة والاستقصاء يطول.

وأما الإجماع فقد ادعى الإجماع من الصحابة والتابعين وتابعيهم من القرون الفاضلة على خلاف قولهم وإنكاره، جماعة كمحمد بن نصر المروزي، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي القاسم اللالكائي وجمهور العلماء رضي الله عنهم.

---

(١) البخاري، الصحيح: ١٠٨٧، كتاب التفسير، حديث رقم (٤٩٤٥)، مسلم، الصحيح، ١٢٧١، كتاب القدر، حديث رقم (٢٦٤٧).

(٢) سورة الليل، الآيات ٥ ـ ١٠.

(٣) مسلم، الصحيح: ١٢٧٩، كتاب القدر، حديث رقم (٢٦٦٤).

(٤) مسلم، الصحيح: ٧٩٦، كتاب النذر، حديث رقم (١٦٤٠).

فصل:

واعلم أن الذي يخلص في هذا المقام العظيم الإيمان بالقدر خيره وشره، وأن الله خالق العباد وأعمالهم، والكف عن الخوض فيه كما أمرنا بذلك. فقد روى أهل السنن[١] عن النبي ﷺ: أنه خرج عن أصحابه وهم يتنازعون في القدر. قال: فكأنما فقأ في وجهه حب الرمان، فقال: بهذا أمرتم، أو بهذا وكلتم.

وروى اللالكائي[٢] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لا تكلموا بشيء في القدر فإنه سر الله فلا تفتشوا عنه. وروي عن علي أنه سئل عن القدر فقال: طريق مظلم فلا تسلكه وبحر عظيم فلا تلجه، وسر الله فلا تتكلفه[٣]. وقال سعيد بن جبير: ما غلا أحد في القدر إلّا خرج عن الإسلام[٤].

فلهذا كان الأجدر في هذا المقام ألا يذكر فيه إلا ما ورد عن الله وعن رسوله وعن أئمة الإسلام دون ذكر تشغيب القدرية، وما أورد أهل الكلام عليهم فيه إذ في ذلك نوع خوض. وفيما ذكرنا كفاية لمن أراد الله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

---

(١) أخرجه اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/١١١.

(٢) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/٥٥٧.

(٣) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/٥٥٢.

(٤) اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/٥٥٦ ونسبه لابن عباس.



الفرقة الخامسة من الأصول

فرقة أهل السنة

وهي الثالثة والسبعون من الفرق التي أخبر رسول الله ﷺ بوجودهم في أمته، وأنها الناجية، وما عداها ففي النار بقوله: وفرقة ناجية، وهي ما أنا عليه وأصحابي. فأهل السنة متبعون لآثار نبيهم مهتدون بهديه مقتدون به صلى الله عليه في أقواله وأفعاله مستنون بسنته [١٠٩] وسنن خلفائه وأصحابه، وهم وسط في فرق أمته، كما أن أمته وسط في الأمم، فهم وسط في وسط.

ألا ترى أنهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل والجهمية وأهل التمثيل المشبهة المجسمة، وهم وسط في أفعال الله بين القدرية والجبرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية والخوارج. وفي باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية. وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض وبين الخوارج والوسط محمى بالطريق كقول أبي تمام(١):

كانت هي الوسط المحمى فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا(٢)

وهي الطريق الوسطى أيضاً خطها رسول الله ﷺ، وخط عن يمينها خطوطاً وعن شمالها خطوطاً. وقال: على كل سبيل منها شيطان. وأخبر عن السبيل الوسط أنه سبيله. وأنه الذي يدعو إليه.

وقال بعض السلف: السنة سفينة نوع، فمن ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. فقول هؤلاء الذي به يقولون ودينهم الذي به يدينون هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٣٧٤/٢ (بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة).

(٢) في الديوان: كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ما حولها الخيل حتى أصبحت طرفا

ورسله وبالبعث بعد الموت. ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفؤ له، ولا ندّ له، ولا يقاس بخلقه.

ومن الإيمان به الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود. ومن الإيمان به، الإيمان بأن المؤمنين يرونه [١١٠] يوم القيامة عياناً بأبصارهم، كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته ثم يرونه في الجنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

ومن الإيمان بالله الإيمان بما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وهي مسائلة منكر ونكير وبعذاب القبر وبنعيمه، والإيمان أن الأرواح تعاد إلى الأجسام يوم القيام فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً وتنصب الموازين فيوزن فيها أعمال العباد فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون، وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله وأخذ كتابه من وراء ظهره كما أخبر سبحانه في كتابه. ويحاسب الله الخلق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك على لسان رسوله. وفي عرصة القيامة الحوض المورود لمحمد ﷺ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل آنيته بعدد نجوم السماء. وأن الصراط حق وهو منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي يمر عليه الناس بين الجنة والنار على قدر أعمالهم. فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كراكب الأبل، ومنهم من يعدو عليه عدواً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في جنهم فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة. وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ. وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته وله يوم القيامة

المحمود بالشفاعات وهي ثلاث شفاعات: الشفاعة الأولى في أهل الموقف فيشفع فيهم [١١١] حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء حتى ينتهي إليه.

وأما الثانية فيشفع في أهل الجنة فهاتان خاصتان له.

وأما الثالثة فيشفع فيمن استحق النار فيخرج منها، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين ثم يكون أهل الجنة في نعيمهم أبداً، وأهل النار في عذابهم سرمداً.

ومن الإيمان أن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بين أبي طالب، وأن العشرة في الجنة، وهم هؤلاء الأربعة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة عامر بن الجراح(١).

* * *

(١) مادة عقيدة أهل السنة هي تلخيص دقيق لما ذكره ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: ١٢٩/٣ ـ ١٤٧في عقيدته الواسطية.



النوع الثالث

في الكلام على طائفة المتدينين

نحن نذكر ما قيل في سكان الأرض وكلهم على ما يقتضيه التفسير من ولد نوح عليه السلام.

قال أبو عبيد البكري[1]: روى عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾[2] إنهم سام وحام ويافث.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: نزل سام سرة الأرض فيما بين سابير إلى البحر وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله عز وجل فيهم النبوة والكتاب. وسام كان القيم بعد نوح في الأرض. ومن ولده الأنبياء كلها عربيها وعجميها. والعرب كلها يمنيها ونزاريها[3].

وأما حام فنزل الهند والسند وبلاد الجنوب جميعها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. وأما يافث فنزل بالصين والترك والشمال جميعه وجزائر البحر الرومي إلى أقصى الغرب. ومن ولده يأجوج ومأجوج[4].

وقال سعيد بن المسيب: ولد نوح ثلاثة أولاد، كل واحد منهم ثلاثة أولاد، سام وولده العرب، وفارس والروم. وحام وولده القبط والسودان والبربر. ويافث وولده الترك

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ١/٨٥.

(٢) سورة الصافات، الآية ٧٧.

(٣) البكري، المسالك والممالك: ١/٨٦.

(٤) البكري، المسالك والممالك: ١/٨٧ ـ ٨٨.

والصقالبة. ويأجوج ومأجوج، وقيل: يأجوج ومأجوج فرقتان لأنوش بن يافث. وقيل: [١١٢] بل أبوهما واحد من يافث وليس فيهم خير[١].

وقال أبو القاسم صاعد بن أحمد[٢]: أما الأمة الأولى، الهند، فكثيرة العدد، عظيمة القدر، فخمة الممالك قد اعترف لها بالحكمة وبالتبريز في المعرفة جميع الملوك السالفة والأمم الخالية. وكان الهند [عند][٣] جميع الأمم على مر الدهور معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة، وأهل الأحلام الراجحة، والآراء الفاضلة، والأمثال السائرة، والنتائج الغريبة، واللطائف العجيبة.

وزعم أهل العلم بالنجوم أن زحل وعطارد يتوليان بالقسمة الطبيعية الهند، فلولاية زحل مال إلى السواد ألوانهم، ولولاية عطارد خلصت عقولهم، ولطفت أذهانهم مع مشاركة زحل في صحة النظر وبعد الغور، فكانوا لهذا حيث هم من صفاء القرائح وسلامة التمييز، ولهم التحقيق بعلوم العدد والإحكام لصناعة الهندسة وحركات النجوم وسائر العلوم الرياضية. وهم أعلم الناس بصناعة الطب، وأبصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات المحمودة. وهم مجموعون على التوحيد والتنزيه من الإشراك والصابئة هم جمهور الهند ومعظمها[٤].

وأما الأمة الثانية وهم الفرس، فأهل العز الشامخ والشرف الباذخ، أوسط الأمم دارا وأشرفها إقليماً وأسوسها ملوكاً، ولا يعلم أمة دام لها الملك ما دام لهم[٥].

وأما الأمة الثالثة فهم الكلدانيون ومنهم النماردة ملوك بابل، وهؤلاء هم النبط[٦].

وأما الأمة الرابعة فهم اليونانيون، وكانت أمة عظيمة القدر في الأمم، طائرة الذكر

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ١/٨٨.
(٢) صاعد، طبقات الأمم: ٢١.
(٣) ساقطة في الأصول، والإضافة من طبقات الأمم.
(٤) صاعد، طبقات الأمم: ٢٢.
(٥) صاعد، طبقات الأمم: ٢٦.
(٦) صاعد، طبقات الأمم: ٢٩.

في الآفاق، فخمة الملك. منهم اسكندر من فيليفوس الماقدوني المعروف بذي القرنين هذا الأصح من أمره، ولا اعتبار بما ذكره الفردوسي[1] من أنه ابن دارا أحد ملوك الفرس، وذكر تلك الخرافة أن دار كان تزوج بنت قيصر فحملت منه ثم كرهها لتغير فمها ثم ردها إلى أبيها فولدت الاسكندر فحسب [١١٣] فيهم. وإنما هو ابن دارا من الفرس، فإن هذا ليس بشيء، وما أراد قائل هذا به إلا تعظيم الفرس حسداً أن يكون مثله من غيرهم[2].

وأما الأمة الخامسة فهي الروم، وهي أمة ضخمة المملكة، وكانت بلادهم مجاورة لبلاد اليونانيين فمن ثم ومن الوقائع بينهم تداخل ذكر بعضهم في بعض حتى كادوا لا يفرق بينهم[3].

وأما الأمة السادسة فأهل مصر، وكانوا أهل ملك عظيم، وعز قديم في الدهور الخالية، وكانوا أخلاطاً بين قبطي ورومي ويوناني وعملقي وغيرهم إلا أن جمهرتهم قبط. وكان لأهلها قبل الطوفان عناية بأنواع العلوم، وبحث عن غوامض الحكم ثم كان بعد الطوفان منهم علماء بضروب الفلسفة من الرياضية والطبيعية وخاصة الطلسمات والنيرنجات والمرائي المحرقة والكيمياء[4].

وأما الأمة السابعة وهي العرب، فهي فرقتان بائدة وباقية، فالبائدة كانت ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة وجرهم[5] أبادهم الزمان بعد أن سلف لهم ملك جليل، وكان لهم في الأرض نبأ كثير[6].

وأما الفرقة الباقية فملكت منهم ملوك باليمن والعراق والشام، والعرب وإن كانت

---

(١) الفردوسي، الشاهنامة: ٣٨١/١.
(٢) صاعد، طبقات الأمم: ٣١.
(٣) صاعد، طبقات الأمم: ٤٧.
(٤) صاعد، طبقات الأمم: ٥٢ ـ ٥٤.
(٥) ت: وحبرهم.
(٦) صاعد، طبقات الأمم: ٥٦.

أهل أوثان فإنها موحدة وما اتخذت الأصنام إلا تعتقد أنها تقربها إلى الله زلفى. وبلادهم جزيرة العرب، وسميت بذلك لإحاطة البحر بها من جهاتها الثلاث، المشرق والمغرب والجنوب، ففي مشرقها خليج عُمان والبحرين والبصرة، وفي مغربها خليج جدة وأيلة وهو القلزم، وفي جنوبها بحر عدن وهو بحر الهند. وأما شمالها فأطراف الشام وبلاد ثمود إلى دومة الجندل، والبلاد المطلة على السماوة. ذكرنا هذا اعتراضاً وإلا فهو في موضعه[1].

وكانت ملوك الصين تقول: ملوك الدنيا خمسة وسائر الناس أتباع لهم، فملك الصين، ملك الناس لأن أهل الصين أطوع الناس للمملكة وأشدهم انقياداً إلى [١١٤] السياسة، وملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايتهم بالعلوم وتقدمهم في جميع المعارف. وملك الترك، ملك السباع لشجاعة الترك وشدة بأسهم. وملك الفرس ملك الملوك لفخامة مملكته وجلالته ونفاسه خطرها وعظم شأنها لأنها حازت على الملوك وسط المعمور من الأرض واحتوت على أكرم الأقاليم دون سائر الممالك، وملك الروم، ملك الرجال لأن الروم أجمل الناس وجوهاً وأحسنهم أجساداً وأشدهم إشراقاً[2].

قال صاحب الكمائم[3]: أهل الإقليم الأول في نهاية من سواد اللون وتفلفل الشعر وتشقق الأقدام فالمشرق أقرب حالاً في هذا الشأن منهم بالمغرب لأن البحار الصينية والهندية بالمشرق ألانت شعورهم وفتحت ألوانهم وحسنت صورهم. وهم بالمغرب لعدم رطوبة البحار في إحداقها بهم كما تحدق بالهند على الصفة المقدمة الذكر.

وأهل الإقليم الثاني انفضحت ألوانهم عن السواد إلى السمرة الكدرة كألوان الحبشة والنوبة بالمغرب، وألوان العرب وبعض الهند وبعض أهل الصين ولانت شعورهم واعتدلت أحوالهم بقدر التفاوت المذكور.

---

(١) صاعد، طبقات الأمم: ٥٦ وما بعدها.

(٢) صاعد، طبقات الأمم: ٢١.

(٣) صاحب الكمائم: هو البيهقي وقد أكثر العمري النقل عنه وهو ينقل عنه بالواسطة من خلال ابن سعيد المغربي، ويبدو أنه ينقل هنا من كتاب ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب من الأجزاء المفقودة منه.

وأهل الإقليم الثالث ألوانهم لها السمرة الصافية الذهبية المستحسنة كألوان أهل مصر وأفريقية وما في خطتها من بلاد الهند والصين وألوانهم فتنة الناظر.

قال علي بن سعيد وفيها يجب أن يقال:

يا ذا الذي ينفق أمواله   في حب هذا الأسمر الفائق

ما الذهب الصامت مستنكر   إنفاقه في الذهب الناطق

وأهل الإقليم الرابع في نهاية من اعتدال القدود، وحسن الصور، وصفاء الألوان الممتزج بياضها بالحمرة، ورقة الأذهان، ووفور الأحلام كأهل الشام والجزيرة وشمالي العراق وعراق العجم وخراسان [١١٥] وما وراء النهر وما في خط ذلك من بلاد الأتراك وكأهل الجزر البحرية التي منها إقريطش وصقلية وميورقة وأهل ساحل الأندلس الجنوبي مرسية والمرية وغرناطة واشبيلية وقرطبة وسبتة من بر العدوة.

وأهل الإقليم الخامس مالت ألوانهم إلى البياض ولحقهم من أحكام البرودة بقدر ما لحق الإقليم الثالث من أحكام الحرارة بالنظر إلى الإقليم الرابع المعتدل بخوارزم وأذربيجان وبلاد الروم وما خطها من بلاد المغرب كالقسطنطينية وورومية وطليطلة بالأندلس.

وأهل الإقليم السادس في أحكام البرودة من الإقليم الرابع كأحكام الإقليم الثاني في الحرارة، غلبت عليهم الشقرة والزرقة والبياض، وتبلدت أذهانهم كأهل شمالي بحر طبرستان من الأتراك والخزر واللان والروس والصقالبة وما في خط هذا البلاد من البرجان والباشقرد وبلاد عباد الصليب إلى شمالي الأندلس حيث شنت يافوه.

والإقليم السابع في أحكام البرودة من الإقليم الرابع كأحكام الإقليم الأول في الحرارة غلبت عليهم الصهوبة، وصارت ألوانهم كالكلس، وشعورهم كالكتان، وتبلدت أذهانهم كأهل الشمال من سكان أرض الروس بالمشرق وأهل البلغار وما في خط ذلك في البحر المحيط بيأجوج ومأجوج وما في شمالي المغرب من أرض الروس والصقالبة وجزيرة لنكطرة في البحر المحيط.

قال صاحب الكمائم: إن الله جعل ولايتها للشهب، فللاقليم الأول زحل وأحكامه في سعاية الغل، والحقد، والهرم، والمكر، والغدر، والفقر، والغربة الطويلة، وقلة مخالطة الناس، والمهنة، والسحر، والكهانة وعلم الأسرار. وهذه الأحكام توجد كثيراً فيما كان في الإقليم الأول من الصين والهند واليمن وسودان المغرب.

والإقليم الثاني للمشتري وأحكامه في سكانه العلم والفقه، والقضاء بين الناس [١١٦] والفهم والحكمة، والصدق والدين، والعبادة والورع، والاحتمال والعدل، والرياسة والفلح، والرغبة في جمع المال والغبطة، وصدق المودة وحب العمارة، والوفاء والسماحة، والبهاء والزينة، والضحك وكثرة الكلام، وذرابة اللسان وكثرة النكاح والأولاد، وحب الخير وكراهية الشر. وهذه الأحكام توجد كثيراً فيما كان في الإقليم الثاني من الصين واليمن والهند والحجاز والحبشة والنوبة.

والإقليم الثالث للمريخ وأحكامه في سكانه الذكاء والحدة، وسرعة الغضب والقتال، والشجاعة والمكر، والعذاب والضيق، والأسر والخصومة، والظلم وغلظ الكبد، واللجاجة والسرعة في الأشياء، وإظهار الحب من غير نية، وقلة الورع، وقلة الوفاء، وكثرة الكذب والنميمة، والفجور والخبث، والحلف بالأيمان الكاذبة، وأعمال السوء، والزنا، وسياسة الدواب والبيطرة، ورعاية الغنم ومداواة الجراحات، وصناعة الحديد ونبش القبور، وعبادة الأصنام، وتغلب هذه الأحكام على من كان في الإقليم الثالث من الصين والأتراك والسند والهند وسجستان وكرمان وفارس وجنوب العراق وأطراف جزيرة العرب والشام ومصر وبرقة وأفريقية وما والاها من الغرب الأوسط.

والإقليم الرابع الكبير الأعظم وهو للشمس وأحكامها في سكانه العقل والمعرفة، والملك والرياسة، والسؤدد والثناء، وللشرف والجماعات، والقوة والغلبة، والفطنة والصلف، وشدة المحبة للذهب، وكثرة الكلام، والإساءة للغريب، وعبادة النيران، وتغلب هذه الأحكام على من كان في الإقليم الرابع من الأتراك وبلاد ما وراء النهر وخراسان وعراق العجم وجنوبي العراق والجزيرة وجهة حلب من الشام وصقلية من الجزر البحرية والحواضر التي بساحل الأندلس مثل مرسية [١١٧] والمرية وغرناطة وأشبيلية وقرطبة وسبتة وتلمسان.

والإقليم الخامس للزهرة، كالأتراك الذين في شرق خوارزم وما في خطتها من جرجان وطبرستان وأذربيجان والبيلقان وأرمينية وبلاد الروم والقسطنطينية وروميه إلى طليلطة من بلاد الأندلس وما في خطتها وأحكامه في أهله الريبة واللهو، واللعب والرقص، والغناء ومحبة الطرب، والعشق والسحر.

والإقليم السادس لعطارد وأحكامه في سكانه محبة الأخوة والوظائف[1]، والربوبية والعقل، والنطق والكلام، والأحاديث والأخبار، والكتابة وحسن التعليم، والفطنة والمناظرة، والآداب والفلسفة، والنجوم والكهانة، والزجر والفأل، والحساب والهندسة، والمساحة والكتب الغامضة، والبلاغة وسرعة الكلام وحلاوته، وقول الشعر، والسعاية والكذب، والاطلاع على الخفيات وإخراج المعمي، والتجارات والدهاء، والمصارعة والخدمة والعداوة، والحفظ والنظر في الأديان والبحث عنها، والبلاد التي يقتضي أن تكون هذه الأحكام غالبة عليها هي ما في شمالي بحر طبرستان وباب الأبواب والبلغار والروس وما في خط ذلك من الجزر التي في البحر المحيط.

والإقليم السابع للقمر وللقمر وأحكامه في سكانه السعادة في المعاش والعلوم العلوية، والفقه والدين، وكثرة الفكر في الأشياء، والرياسة والشرف، والهندسة والمياه والزرع، والرسل والأخبار، والآباق والكذب، والنميمة وكثرة النسيان، والجبن وسلامة الصدر، والانبساط وقلة كتم السر، والسعة في إطعام الطعام وقلة النكاح وعبادة الحيوان. والبلاد التي يقتضي أن تكون هذه الأحكام غالبة عليها أكثرها خراب بشمال المشرق والمغرب وسكانها يأجوج ومأجوج وما في الشمال من البلغار والروس والصقالبة والجزائر.

وحكى الشريف الإدريسي[2] في كتاب أجّار عن بطليموس وقد نزع [١١٨] هذا المنزع أن تكون هذه الأخلاق موجودة في كل واحد منهم في كل مدينة فذلك[3] محال بل الغالب على جمهورهم هذه الأخلاق.

---

(١) ك: والوضايف.

(٢) لم نجد الخبر في كتاب نزهة المشتاق للإدريسي.

(٣) ساقطة من ت.

قال الشريف: ويمكن أن تزيد هذه الأخلاق فيهم وتنقص إما من قبل وضع مدينة من مدنهم وإما من قبل العادات والسنن. وإما من قبل مولد كل واحد منهم أو من قبل شيء آخر.

قلت: هذا مما قيل على مقتضى طوالع الأقاليم وسكانها من ولد نوح، وحكم الطوالع نحن لا نتكلم فيه، وإنما ذكرناه على سبيل الحكاية له ولله الأمر من قبل ومن بعد لا شريك له ولا مدبر لخلقه إلا هو، وله الحمد والمنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وإنما نتكلم في سكان الأرض فنقول:

كم تبدلت الأرض أرضاً، والناس ناساً، ولم يبق في إقليم صليبة أهله، ولا خالصة سكانه، ولم يداخلهم أهل إقليم آخر، ولا بقي لكل أرض جميع ما اشتملت عليه حدودها لاختلاف الملل والدول، وإثارة ثوائر الحرب في كل جانب، ودخول الداخل من كل وجهة، وطالما خلا وطن وجلا أهل دار وقهر سلطان لمجاوره فدخل في أرضه، واستضاف إلى مملكته ما ليس لها، وطالت مدد السنين فنسبت إليها وليست إنها لم تكن من أرضه وإنما استزادها بالسيف[1] وبمثل هذا حصل الاختلال في حدود الأرض والاختلاف في الأنساب لاختلاط بعض الناس ببعض، فكثير ممن كرت عليهم نوب الدهر فخلوا أوطانهم وسكنوا بلاداً أخرى إما للخوف على النفس والمال أو لطلب الرزق والمعاش أو لحابس ضرورة أو هوى، فاتخذوها[2] أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان، وتزوجوا في غيرهم وتزوج غيرهم منهم ثم ولدوا الأولاد وولدت الأولاد، الأولاد فلم يبق يعرف إلا ما هم عليه ونسي ما كان.

وهذه قبائل العرب وهم ذووا الأنساب الصحيحة والأحساب الصريحة قد نزل منهم قوم بآخرين فنسبوا إليهم وحسبوا منهم.

وهؤلاء الأكراد تزعم أنهم من قيس ثم من [١١٩] هوازن وفيهم فرقة تدعى أنهم

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ك: فاتخذوا.

من بني أمية لجأوا إلى الأكراد خوفاً من بني العباس وهم على هذه الدعوى إلى هذه الغاية[١].

والديلم تزعم أنهم من ولد النعمان بن المنذر من ولدفينه. وبعضهم يزعم أنهم من العباد بن تميم رهط عدي بن زيد[٢].

ونصارى الجزيرة تزعم أنهم من ولد الحارث بن كعب بن مذحج، وبعضهم يزعم أنه من قيس من بني سليم، وبعضهم يزعم أنه من لخم[٣].

والخرلجية تزعم أنها من حمير[٤]. وزويله تزعم أنها من جرهم لما نالهم ما نالهم بمكة هربوا فصاروا [بزويلة][٥]. ثم والتيمي من القبط تزعم أنهم من تغلب وبعض الحبشة يزعمون أنهم من يمن وأنه لما غلبت عليهم الحبشة اختلطوا بهم[٦].

وفي الروم طائفة تزعم أنهم ممن دخل مع جبلة بن الأيهم من متنصرة العرب[٧].

فتأمل رعاك الله هذا البون العظيم بين هذه الفرق ومنابت أصولهم إن صحت دعواهم. ومثل هذا لا يستبعد ويكفي من أبصر وسمع كيف اضطربت الأرض بأهلها أيام جنكيزخان وبعده من الصين إلى أقصى الشام بخراب الديار، وقلع الآثار، وعموم القتل في سكان الأرض إلَّا من نجا بنفسه، وفرّ إلى أرض بعيدة وبلاد شاسعة، وساق الخوف الجفال إلى مصر، فألقوا عصاهم واستقرت بهم النوى حتى نصر الله الإسلام بعين جالوت على التتار وانكشفت ظللهم عن الشام، وضربت الفرات بيننا وبينهم بسور وصارت حداً بين ما غلبوا عليه وما بقي من ممالك الإسلام بمصر والشام وهم أعنى التتار في تلك السنين على الجد في طلب ما بقي.

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ٩٠/١ ـ ٩١.

(٢) البكري، المسالك والممالك: ٩٠/١.

(٣) البكري، المسالك والممالك: ٩٠/١.

(٤) البكري، المسالك والممالك: ٩٠/١.

(٥) ساقطة من الأصل، الإضافة من البكري، المسالك والممالك: ٩١/١.

(٦) البكري، المسالك والممالك: ٩١/١.

(٧) البكري، المسالك والممالك: ٩٠/١.

فاستوطنت الجفال مصر وسكنوها فراراً من مجاورة التتار ولو أمكنهم أن يعدوا مغرب الشمس من شدة ما حصل لهم من الخوف لفعلوا، ثم لم تحدثهم نفوسهم بالانتقال من مصر حتى ولا[1] إلى الشام لإطلال طلائع التتار عليهم في كل ساعة من تلك الأيام، ثم ماتت تلك الجفال ولم يبق إلا أولادهم [١٢٠] أو أولاد أولادهم فلم يعرفوا لهم وطناً سوى مصر ولا بقي أحد منهم إذا سألته عن نسبه يقول إلا مصري، وهم من بخارى أو سمرقند أو خجند أو خوارزم منهم من نسي ومنهم من تناسى لم يعرف سوى المكان الذي هو به. وإذا كان الأمر على هذا فلم يبق معنى لتخصيص ذوي نسب بسكن مكان دون آخر بل كان في إقليم من عموم الناس وأنواع الأجناس.

وقالت الحكماء: لو سكن صقلبي جصي اللون في نهاية البياض والشقرة بلاد الجنوب وأولد بها ولداً ثم أولد ولده ولداً جاء البطن السابع أسود مثل أهل الجنوب، وكذلك لو سكن زنجي محترق في غاية السواد والقشف بلاد الشمال وأولد بها ولداً ثم أولد الولد ولداً جاء البطن السابع أبيض أشقر خصيباً مثل أهل الشمال. وقد نقل اختلاف الألوان أفنريد لسبب آخر غير البلدية.

قلت: وأحوال البلاد كأحوال الناس تختلف بحسب الأوقات لأنه لما كان الكل حادثاً كان محل التغير فسبحان الله القديم الباقي الذي لا يتغير ولا تدركه الحوادث. وقد قدمنا القول أنا نتكلم في أمر البلاد وأهلها على حال زماننا لا على ما كانت عليه ولا نعبأ بقول قائل لم ذكر المدينة الفلانية وما ذكر المدينة الفلانية والتي لم يذكرها أكبر أو أكثر أو أقدم أو أعظم أو قاعدة الملك الأصلي، فإن قواعد الملك تنقلت[2] في كل مملكة كانت قاعدة الملك ومرة هذه المدينة ثم صارت مرة تلك الأخرى على ما اقتضته تلك الأوقات وآراء تلك الملوك.

ونحن نذكر هنا ما نستدل به على ما ذكرنا لندفع اعتراض من يعترض فنقول: إن قاعدة الخلافة أول ما كانت المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مدة أبي

---

(١) ت: ولى.

(٢) ت: تنقلب.

بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فلما انتهت الخلافة إلى علي [١٢١] بن أبي طالب كرم الله وجهه انتقل من المدينة إلى الكوفة واتخذها قاعدة خلافته، وربما استوطن البصرة. وجاء بعده ابنه الحسن عليه السلام المديدة التي أقامها والكوفة قاعدة خلافته على ما كان عليه أبوه.

وقد كان معاوية بدمشق أميراً من قبل عمر وعثمان، فلما بويع علي رضي الله عنه ونازعه معاوية في الأمر ودعا إلى نفسه بالخلافة كان بدمشق، ثم لما سلم إليه الحسن بن علي عليهما السلام لم ينتقل منها إلى المدينة كما كان الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان، ولا إلى الكوفة كما كان علي والحسن فانتقلت قاعدة الخلافة إلى دمشق، واستقرت قاعدة لبني أمية، وإن كان هشام قد اتخذ الرصافة مقاماً له، وعمر بن عبدالعزيز خناصرة فإنهما لم تكونا قاعدتي خلافة لأنهما سكناهما غير مفارقين لدمشق بل هي القاعدة، والمعتد بأنها مستقر الخلافة، ولم تزل على هذا إلى آخر الدولة الأموية.

فلما غلب عليهم بنو العباس وملك أبو العباس السفاح اتخذ الأنبار داراً له وسكنها، فلما ولي أخوه أبو جعفر المنصور بنى الهاشمية وسكنها، ثم بغداد وانتقل إليها، فصارت قاعدة الخلافة له ولبنيه بعده إلى أن انتهت الخلافة إلى أبي إسحاق المعتصم فبنى سرّ من رأى وهي المسماة على ألسنة العوام سامرة فانتقلت قاعدة الخلافة إليها.

ثم لما ولي الخلافة ابنه هارون الواثق بنى إلى جانبها الهارونية فانتقلت قاعدة الخلافة إليها، ثم لما ولي أخوه جعفر المتوكل بنى إلى جانبها الجعفري وانتقلت قاعدة الخلافة إليه، ثم سافر المتوكل إلى دمشق وأراد الانتقال إليها وبنى القصور بها بين المزة وداريا ليتخذها قاعدة لخلافته، ثم بدا له أن يعود إلى العراق فعاد إليها ثم قتل إلى رحمة الله ودبت الوحشة والبغضاء بين ابنه المنتصر والأتراك ثم نشأت الفتنة بين المعتز [١٢٢] وهو بسامرة وبين المستعين وهو ببغداد وشغل كل واحد منهما حال نفسه إلى أن ولي المعتمد فاستوطن بغداد وعادت قاعدة الخلافة إليها، ثم لم تزل على هذه إلى أن أخذ هولاكو بن طولي بن جنكيز خان بغداد وسقط اسم الخلافة إسماً ورسماً من تلك البلاد.

ثم صار من بقايا هذا البيت العباسي أبو القاسم أحمد بن الظاهر أبي نصر محمد بن الناصر أبي العباس أحمد إلى مصر وبها الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي رحمه الله فبايعه بالخلافة ولقب المستنصر، وأقام به اسمها بمصر والشام على المنابر، ونقش اسمه على السكة، وضرب بها الدرهم والدينار، ثم جهزه بعسكر إلى العراق على أن يفتحه فقتل، وتحيد من أقربائه أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن علي القبي بن الحسن بن الراشد أبي جعفر المنصور بن المسترشد أبي المنصور الفضل ولاذ بعيسى بن مهنا أمير آل فضل، ثم توجه إلى البرلي بالبيرة فجمع له جمعاً من التركمان ثم آل الحال إلى أن استدعاه الملك الظاهر بيبرس وبايعه على الخلافة ولقب الحاكم بأمر الله وأجراه مجرى قريبه المستنصر، ثم خاف عاقبة أمره فخلاه في برج بقلعة الجبل عنده ممنوعاً من الخروج واجتماع الناس به وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعاً عليه في النفقات والكساء، يتردد إليه بعض العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام وملاحظة الجانب بالإجلال والمهابة. ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر، ثم لاحظه الملك الأشرف أبو الفتوح خليل بن الملك المنصور قلاوون رحمه الله تعالى أتم من تلك الملاحظة ورعى لوديعة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة.

ثم لما ملك المنصور لاجين المنصوري زاد في إكرامه وصرفه في الركوب والنزول فنزل إلى قصر الكبش وسكن به ثم مات الحاكم، وعهد إلى ابنه المستكفي بالله أبي [١٢٣] الربيع سليمان القائم الآن فانظر كيف تنقلت قواعد الخلافة من بلد إلى بلد بتنقل الزمان وكيف تغيرت بتغيرات الناس في جيل بعد جيل الأحوال.

وهذه بخارى كانت قاعدة السلطنة زمان بني سامان، ثم صارت غزنة زمان محمود بن سبكتكين وبنيه، فلما جاءت الدولة السلجوقية اتخذت همذان قاعدة لسلطانها، فلما صارت إلى الخوارزمية اتخذوا اركنج وهي أم أقليم خوارزم قاعدة لسلطانهم.

وقد كان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي رحمه الله قاعدة

ملكه دمشق ثم ملك مصر بانتزاع جيوشه المجهزة مع أسد الدين أبي الحارث شيركوه من الخلفاء الفاطميين على يد ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى.

وما همَّ الشهيد نور الدين بالانتقال إلى مصر فضلاً عن أنه يفعل بل لما ظهر له أن صلاح الدين يسرحسوا في ارتغاء يظهر له الطاعة، ويبطن عليه الخلاف، همَّ بقصده على أن يستبدل به ثم يعود إلى دمشق فجاءت المنايا دون الأماني، ولم يتزحزح عن مكانه ولا انتقل من قاعدة سلطانه.

ثم لما مات واستقل الملك الناصر صلاح الدين بالملك مصراً وشاماً ثم اتسع سلطانه حتى اشتمل على اليمن وكثيراً من ديار بكر والجزيرة واتصلت أطراف ملكه بشهرزور من جانب وبالروم من آخر لم تنتقل قاعدة الملك له عن مصر وكان سكنه بالقاهرة في القصر بها ويغيب المدد الطويلة بالشام وديار بكر ومصر هي قاعدة الملك.

وهكذا إذا اعتبرت أحوال البلاد تجد السعادة قد نظرت هذه مرة ثم تلك أخرى كمن قال:

وإذا نظرت إلى البقاع رأيتها ... تشقى كما يشقى الرجال وتسعد

ولم تزل الملوك تخرب مدينة وتبني أخرى إلى جانبها أو بعيداً عنها تارة لما تقتضيه المصلحة وتارة لغرض آخر إما لإيثار الذكر أن يكون لها أو غير ذلك، أو ليس أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببناء [١٢٤] الكوفة فسكنها أميره على العراق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وترك المدائن وهي قاعدة ملك الأكاسرة، وبنى الحجاج بن يوسف واسط ولم يسكن الكوفة، وبنى المنصور بغداد ولم يسكن الأنبار، وبنى المعتصم سامره وبنى الواثق الهارونية وبنى المتوكل الجعفري قد ذكرنا بعض ذلك.

فأما قصد عمر رضي الله عنه ببناء الكوفة فالشفقة على الصحابة رضي الله عنهم لأنها بادية متصلة بأوطانهم شبيهة بالبر خوفاً عليهم من توعك العراق لوخامة نقائعه وآجامه حتى بعث يقول لسعد بن أبي وقاص: الله الله في بقية أصحاب رسول الله ﷺ.

وأما قصد الحجاج في بناء واسط فهو التوسط بين المصرين البصرة والكوفة. وأما قصد المنصور في بناء الهاشمية ثم بغداد فلضيق الأنبار ومخالفة بني أمية في سكن دمشق، وخوفاً أن يثب عليه بقايا شيعتهم بها فبنى الهاشمية ثم لما ثار عليه بها الراوندية الذين ادعوا فيه الحلول وقاتلوه، وقالوا: نريد نخلص منك اللاهوت لناسوت يستحق أن يكون فيه خافهم وبنى بغداد.

وأما قصد المعتصم في بناء سامرة فلشكوى الرعايا من عبث جنده الأتراك فيهم، فأراد أن يكون هو وجنده في عزلة عن الرعايا، ولهذا كانت تسمى العسكرية. ولهذا يقال للإمام أحد الأئمة الاثني عشر العسكري[1] لسكنه لها.

وأما قصد الواثق والمتوكل في بناء الهارونية والجعفري فهو لمجرد محبتهما لبقاء الاسم ودوام الذكر، ولهذا بنى عبيدالله المهدي أول الفاطميين المهدية بأفريقية واتخذها قاعدة له. ثم لما آل الأمر إلى المعز أبي تميم من أبنائه وحاز ملك مصر أثر الانتقال إليها، فلم يرض سكن الفسطاط فأمر القائد جوهر ببناء مدينة له فبنى له القاهرة، وكانت قاعدة له إلى آخر أيامهم حتى خلع صلاح الدين العاضد وأقام بها الدعوة العباسية [١٢٥]. ثم كانت كما نبهنا عليه قاعدة له ثم كره مخالطة العوام، فأمر ببناء قلعة الجبل ولم يسكنها حتى ملك أخوه الملك العادل أبو بكر فسكنها.

ثم لما ملك ابن ابنه الملك الصالح بن أيوب بن الكامل بنى قلعة الجزيرة الملاصقة لمقياس بين فرقتي النيل وسكنها. ثم عاد بعده الملك إلى قلعة الجبل إلى الآن كل هذا في أقرب المدد، فكيف بما دارت عليه الأدوار ومضت عليه القرون ولكل زمان مصلحة ولك نفس هوىً.

وهذا صلاح الدين قد خرّب عسقلان خوفاً أن لا يملكها الفرنج مرة أخرى وأحيا

(١) هو الإمام الحادي عشر عند الإمامية الاثنا عشرية وهو الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، هو والد الإمام محمد المهدي الذي تعتقد الشيعة أنه المهدي المنتظر.

ذكر غزة والملك الظاهر بيبرس لما فتح صفد عظَّم أمرها إخمالاً لعكا، فلما فتح الملك الأشرف عكا خرّ بها من البحر، وأتم لصفد التعظيم، وهكذا كان فعل الملك المنصور قلاوون لما فتح طرابلس الشام هدمها وبنى مدينة أخرى تقاربها، ونقل إليها الأمم والرسم، وكان قصده في هذا أن الأولى داخلة في البحر تتحكم عليها مراكب العدو إذا قصدوها وقد لا يقدر من فيها على المنع لغفلة غافل واختلاس مختلس.

والمدينة الثانية التي بناها خارجة في البر لا يتحكم البحر عليها، ولا تصل يد العدو إليها فانظر إلى مقاصد الملوك ومقتضى آرائهم في ذلك، ولهذا تكلمنا على ما هو عليه الحال على مقتضى زماننا وهو إن من قواعد الملك في زماننا بالهند دلى، وبتركستان وما وراء النهر قوشى، وبإيران توريز، وبمصر قلعة الجبل، وباليمن تعز، وبافريقية تونس، وبالعدوة فاس، وبالأندلس غرناطة.

ولو نظرنا إلى ما كانت عليها الأحوال لوجدنا بهذه الممالك عدة مدن كان يشار إليها بالتعظيم، ولم تكن هذه البلاد شيئاً مذكوراً، فإن بالهند قواعد كثيرة كانت للكفار ثم لملوك الإسلام. ومن أجل قواعدها القديمة المهراج كانت نبيهة الذكر، ودلى خاملة فنبه ذكر دلى وخمل المهراج وما سواها.

ووجدنا بمملكة تركستان [١٢٦] وما وراء النهر أحد قسمى توران بخارى وسمرقند وغزنة وكل واحد منهما دار ملك وسرير سلطنة، فنبه ذكر قرشي وخمل ما سواها على أن قرشي لا تعد من المدن في شيء، ولا يكاد يكون جداراً يمتد له قى، ووجدنا ببلاد خوارزم والقبجاق أحد قسمى توران أركنج أم إقليم خوارزم وما الذكر إلا للسراى.

وقد كانت خوارزم في أيام السلاطين بها نبيهة[1] الذكر ومعظم الأرض، ومن عليها خامل بالنسبة إليها حتى أن صاحبها لم يرض إلَّا بمماثلة الإسكندر ذي القرنين، فأبطل النوب الخمس اللاتي كانت تضرب للملوك، وضرب نوبة ذي القرنين عند مطلع

(١) ت: نبيه.

الشمس ومغيبها، وكانت سبعة وعشرين دبدبة من الذهب مرصعة بنفائس الدرر والجواهر، وضرب له بها أولاد الملوك والأكابر، وما كان يزيد الخليفة في مكاتباته إليه على خادمه المطواع. ولم يكتب لأحد من الملوك اسمه في كتاب وإنما كان يكتب إليهم علامته تعاظماً أن يكتب إليهم اسمه.

وبلغ من أمره إلى أن صار من غلمانه عدة ملوك بأقاليم حتى كان طست داره صاحب إقليم وعمل رنكه طستاً وإبريقاً ومن هذا مثله. ومنذ بني بركة السراي لم يبق قاعدة الملك إلا للسراي.

ووجدنا بمملكة إيران عدة قواعد جليلة كأم الدنيا بغداد بعراق العرب، وأصفهان وهمذان بعراق العجم، وشيراز بفارس، والري بالديلم، ومرو ونيسابور بخراسان، ومراغه بأذربيجان، وقونيه وقيسارية بالروم، وكل هذه قواعد ملك وتخوت سلطنة كانت نبيهة الذكر إلى أن ملك هولاكو وتداول أبناؤه الملك فعظموا توريز واتخذوها قاعدة لهم وجعلوا بمنزلة أوجان في ظاهر توريز تختهم. وإن لم تكن أوجان مدينة إلَّا صحراء مقفرة، واطردت القاعدة عندهم أن تخت الملك بأوجان فمن قعد عليه كان هو صاحب التخت عندهم، وقد بنى بأوجان في هذا الزمان[١٢٧] الأخير قصراً لقانهم وأبيات لأعيانهم وسيأتي ذكره.

ووجدنا باليمن ظفار وصنعاء وسبأ وكلها كانت نبيهة الذكر قبل الإسلام وبعده واليوم الذكر لتعز، ووجدنا بأفريقية قرطاجنة وقابس والمهدية كانت نبيهات الذكر واليوم الذكر لتونس.

ووجدنا ببر العدوة مراكش وهي القديمة الذكر الممثلة في المغرب ببغداد في المشرق، واليوم لفاس التقدمه عليها والذكر الطائر دونها. وكانت قرطبة بالأندلس زمان بني أمية الداخلين إليها لا يطاول منارها ولا ينازع فخارها، ثم انتقلت قاعدة خلافتهم منها إلى الزاهرة والزهراء، فلما ملكت ملوك الطوائف بعدهم الأندلس كانت إشبيلية كوكب ذلك الأفق وبحر تلك الخلج. فأما الآن فالعذر واضح باستيلاء الفرنج على تلك الأمهات ووأدهم لما ترعرع حولها من النبات صارت غرناطة قاعدة الملك، ثم بنيت بها

الحمراء وهي قلعتها المسماة عند المغاربة بالقصبة، فاستقرت بها قاعدة الملك.

وفي القديم كانت الإسكندرية قاعدة ملك اليونان وبها كانت أم الإسكندر، وكانت قاعدة الملك بمصر منف، ثم عين شمس، ثم الفسطاط، ثم القاهرة، ثم قلعة الجبل، ثم قلعة الجزيرة، ثم عادت إلى قلعة الجبل كما تقدم شرحه.

وهكذا الدنيا مثل أبنائها تنتقل من حال إلى حال، ولا تبقى على حال، وتلك سنة الله تعالى[1] في عباده ومثلها في بلاده لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

قلت: ولو طالع الإنسان الكتب المصنفة في أحوال البلاد وما عليه، ثم سار في الأرض لحمل تلك الكتب على المخاريق الباطلة لأنه لا يجد المعاينة مثل السماع، وما الأمر إلا كذلك ولا تضمنت تلك الكتب كلها الباطل المحض، وإنما الدنيا تتغير بتغير سكانها، وتختلف أحوالها باختلاف الزمان، وتلك الأيام نداولها بين الناس، ولهذا لا أتكلف ذكر ما قدم عليه العهد من سالف [١٢٨] الدهور والآباد. وأتعرض لمغربات الأخبار بل ولا أبعد بذكر ما نأى مكانه وقلّ عيانه، فأقول: لو رأيت السيسبان وأبواب الأندلس والأعلام المنصوبة تحت الأصنام النحاس في الشرق والغرب، ولا المتوغل في الظلمات ولا الخارج عن حيز المعمور، وإنما أذكر ما هو قدام عيون أكثر السفار وغالب الجوال.

فأقول: ولو مررت على منازل عاد وسكان الحيرة وبلاد برقة لرأيت عجائب الآثار، ولم تستغرب غرائب الأخبار، ولا عجب في ذلك مع تقادم الليالي والأيام. وإنما العجب لحران والرها وسروج، ولعل ما انتقلت لقرب المدى رحل سكانها، وهي الآن على ما نراه وتبكي عليه دماً لا دمعاً دور وأسواق ومساجد ومآذن وبساتين وغيطان خالية من الأهل والسكان بقيت جسومها وذهبت نفوسها، هذا وما بالعهد من قدم، وإنما أجلا أهلها الملك الظاهر بيبرس خوف التتار، ثم لم تعد تسكن في كره ولا عدت في الأحياء مرة.

---

(١) ساقطة من ت.

ولقد حدثني جماعة من العرب أن في مفازات السماوة آثار مدن وقصور ومصانع ماء تدل على أنها كانت مساكن أمة من الناس، وهي اليوم بر أقفر لا ماء به ولا مرعى، ولا يقدر المسافر يعبر به إلَّا جوازاً والماء محمول معه على ظهر الإبل.

وحدثني أوْرَان الحاجب[1] وأبو القاسم البصراوي ومحمد بن هلال أمير زبيد كل منهم في مجلس قالوا: إن ثدي حوران فيه مقاسم ماء إلى جهة البر المقفر إلى جهتي القبلة والمشرق نظير المقاسم الآخذة إلى حوران في جهتي الغرب والشمال، وتلك المقاسم مقسمة في البر القفر مثل ما هذه الأخرى مقسمة في العامر الآهل تمتد في أودية ثم تنقسم في أودية لطاف كأنها كانت لبلاد هناك عامرة آهلة مثل حوران[١٢٩].

وهذا ثدي حوران هو قليب حوران يقع به الثلج ويثبت عليه وإذا أثلج تباشرت أهل حوران بالري والخصب، ويقال أنه هو الريان الذي عناه جرير بقوله[2]:

يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا

وحبذا نفحات من شآميه ... يجيء من قبل الريان أحيانا[3]

وحدثني القاضي محمد بن غاز البصراوي وهو ممن قتل تلك البلاد خبراً، وقلب أرضها بطناً وظهراً، وقال: قليب حوران كثير العيون تسقي كل عين أرضاً خاصة بها زرع مباقل، ولا تحمل أن يمتد نهراً ولا تسقي كثيراً، وإذا تغشى الثلج القليب مد الأودية سبعة مغربةً إلى حوران، وسبعة مشرقة إلى البر. فأما ما هو إلى حوران فينقسم في أوديتها ويتفرع إلى قراها فيملأ بركها وآبارها، ويسقى مواضع من مطوحها المستغلة وأرضها الواطئة.

وأما ما هو إلى البر فإنه بعد تقسمه يجتمع في واد واحد على مسافة يوم عن القليب مأخذه في بر معطش حتى يصل إلى أرض تعرف في وقتنا برحبة عنزة، ينزلها

---

(١) أوران سيف الدين الحاجب بدمشق، توفي سنة ٧٣٣هـ. انظر عنه: الصفدي، أعيان العصر: ٦٣٦/١، الوافي بالوفيات: ٤٤١/٩.

(٢) جرير، الديوان: ١٦٥/١.

(٣) في الديوان: يمانية بدلاً من شامية، وتأتيك بدلاً من تجيئ بدلاً من تأتيك.

عرب عنزة، يكون مقدارها ثلاثة أيام فيطوف الماء بأرضها وتزرع شكائر يزرعها من ينتجع إليها، ويخصب خصباً لا يكيف مثله يستغله الزراع وعرب عنزة، ثم ينصرف الماء إلى لجاة سوداء تحد تلك الأرض على طرف البر العريض، ويبحر هناك في مواضع من اللجاة حتى يكون عمقه في بعضها قريب ثلاث قامات وأقل وأكثر.

قال: وفي تلك اللجاة تدّخر عنزة فاضل زرعها في مطامير لا تقصد ولا يهتدى إليها، وقد كانت هذه في قديم الزمان بلاداً مسكونة وأوطاناً محبوبةً أيام آل جفنة وآل غسان ومن قبلهم ممن كان، فأين تلك البلاد وأين سكانها، لم يبق منهم عين ولا أثر [١٣٠] ولا مخبر منهم ولا خبر، فهل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً.

ولقد مررت في الصعيد بمصر في حاجر الرمل بالجانب الغربي، فرأيت بها من آثار المدن والقرى مالا يعد، أضحت اليوم رسوماً بالية. وفي بعض هذا دليل على ما قلنا وتصديق لما قدمنا.

وخلاصة الأمر أنه لم يبق بلد على حاله ولا خالصاً لصليبة أهله ولو فحصت عن حقائق الأنساب لوجدت كثيراً من العرب عجماً، وكثيراً من العجم عرباً، غيرهم الزي والبلد، وهؤلاء آل فضل وآل مرا ينتسبون إلى جعفر بن يحيى البرمكي وهم اليوم عرب الشام وأهل باديته وهم صليبة العجم، فلما نازلوا طيئاً صاروا يعدون منهم في طيئ إن صح انهم من جعفر بن يحيى.

وبعض أكابر أمراء الترك بمصر من بني كلاب نسبة إليهم وأصله منهم، وهو جَنْكَلي بن البابا[(١)] وبذلك أخبرني ولده[(٢)] الأمير الفاضل ناصر الدين محمد[(٣)] رحمه الله.

---

(١) جنكلي بن محمد بن البابا بن جنكلي بن عبدالله العجلي، الأمير الكبير بدر الدين كبير دولة الناص محمد بن قلاوون، ورأس الميمنة، توفي سنة ٧٤٦هـ. انظر عنه: الصفدي، أعيان العصر: ١٦٣/٢، الوافي بالوفيات: ١٩٩/١١.

(٢) ت: وبذلك ولله الأمير الفاضل،

(٣) محمد بن جنكلين توفي سنة ٧٤١هـ. انظر عنه: الصفدي، أعيان العصر: ٣٧٩/٤، الوافي بالوفيات: ٩/ ٤٤١.

ونحن نسوق الآن جملةً مما قيل من مبدأ[1] هذا العالم وهو:

اختلف الناس في[2] حدوث العالم وقدمه والحق حدوثه لا قدمه

فأما الفلاسفة: فمنهم من قال: إنه قديم كقدم الباري تعالى ليس له ابتداء ولا انتهاء إذ كان المعلول عندهم لا يفارق العلة، وهذا مذهب أرسطو طاليس وأصحابه مثل الإسكندر بن فيلبس اليوناني وأفلاطون ومن تابعهم من مقدميهم، وأبي نصر الفارابي، وأبي علي بن سينا من متأخريهم، وهؤلاء زعموا أن العقول والنفوس والأفلاك دائرة بأعيانها على هيئاتها التي هي عليها، إلَّا أن قالوا: فأما حركات الأفلاك فكل لاحق منها يتلو سابقاً لا إلى أول. وأما السفليات فهيولاها قديمة والصور المتعاقبة عليها محدثة يتلو لاحقها سابقها كما في حركات الأفلاك. ومنهم من قال: إنه قديم الذات محدث الصفات، وهؤلاء لمذاهبهم [١٣١] تفاصيل لا يليق ذكرها هنا إذ قصدنا الاختصار. وذلك[3] قول ظاهر بطلانه بما قامت عليه الأدلة والبراهين[4].

فأما الشرعيون: فإنهم أجمعوا على حدوث العالم، وإن له ابتداء وانتهاء واستشهدوا بقول الأنبياء صلوات عليهم، وما أخبروا به عن الله تعالى، وشهدت به الكتب المنزلة المجمع على صدقها، وهذا هو الرأي الحق، فإن الفلاسفة إنما تكلموا بما وصل إليه اجتهادهم واستخرجته عقولهم.

وقد اتفق الإجماع على أن أعدل النوع الحيواني نوع الإنسان، وأعدل النوع الإنساني الأنبياء، وما كان أعدل فهو أتم عقلاً، وما كان أتم عقلاً فقوله أولى أن يقبل، فقد ثبت حدث العالم بهذا البرهان.

ثم اختلف الناس أيضاً في حقيقة الزمان، فمنهم من أنكر أن يكون للزمان وجود

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) «الناس في» ساقطة من ت.

(٣) من هنا تبدأ نسخة ب.

(٤) ب: الأدلة في البراهين.

في الخارج وزعم أنه مفروض ذهني لا حقيقة له. ومنهم من زعم أنه موجود قائم بنفسه غير مُتبدل ولا متصرم، وله نسب إلى سائر الموجودات وهي التي يعرض لها التبدل والتقصي، والذي استقر عليه الرأي الحق أنه مقدار حركات الفلك. ولما كان الفلك متحركاً بالاستدارة حركات متعددة يتلو بعضها بعضاً جعل مقدار كل حركة منها يوماً.

ولما كانت الشمس في كل واحدة من تلك الحركات تارة تكون ظاهرة لأهل الربع المسكون، وتارة تكون مستترة عنهم بمجدب الأرض انقسم لذلك مقدار الحركة المسمى باليوم إلى الليل والنهار، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تبدو فيه الشمس، والليل عبارة عن الوقت الذي تستتر فيه. ثم قسّم كل واحد من الليل والنهار إلى اثني عشر جزءاً وهي الساعات.

ولما ثبت حدوث العالم وحقيقة الزمان، وأنه متناهي الطرفين إذ فدلنا الدليل العقلي والنقلي على أن له ابتداء وانتهاء فتكون إذا جملته متناهية لكن مقداره مختلف [١٣٢] فيه.

فأما أرباب المختلفة، فقالوا: إن جملته من ابتداء تحرك الكواكب من أول نقطة من برج الحمل وإلى آخر سنة[١] اثنتين وستمائة أربعة آلاف ألف ألف وثلاثمائة ألف وعشرون ألفاً وثلاثمائة وإحدى وستون سنة وسبعة أشهر وسبعة عشر يوماً. وزعموا أن ذلك معلوم بالبرهان من جهة تقويم الكواكب[٢].

وقال أرسطاليس في كتاب الاسطماطيس[٣] الذي نسبه إلى هرمس الأول أن دولة كل كوكب من الكواكب السبعة السيارة ألف سنة، فإذا انقضت عاد إلى[٤] الأول إلى مالا نهاية له[٥] وأما الشرعيون فلم يقدروا أزماناً إلا أنهم قرروا أن له أواناً وآخر.

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٥٨٨/١، وعلق عليه بأنه ضرب من الماليخويا.

(٣) ب: الإسماطيس.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٥٨٨/١.

وأما أهل الكتاب الأول، فقالوا: إن جملته من أوله إلى آخره سبعة آلاف سنة، وليس لهم على ذلك دليل من كتبهم، ولا قال هذا من المسلمين إلا من نقله عن أهل الكتاب[1].

وإنما الحق والصدق أن العالم محدث له أول وآخر، ولكننا لا نحصره بمدة مخصوصة لأنه لم يأت به الكتاب ولا السنة. وأما ما مضى من آدم عليه السلام وإلى مبعث موسى وعيسى صلوات عليهما فهو ما حرره اليهود إن صدقوا وصدقوا ما قالوه.

فأما النصارى فإنهم اجتهدوا على تحقيق تواريخهم والماضي من الزمان الكتب العتيقة والحديثة وكتب المؤرخين والذي ثبت عندهم أن مدة ما خلق آدم عليه السلام إلى حين ظهور السيد المسيح عليه السلام خمسة آلاف وخمسمائة سنة[2].

وتفصيل هذا يرد على موضعه واضحاً مبيناً إن شاء الله.

وقالوا: ينبغي[3] أن نشرح السبب الذي عرفنا به مبدأ الخلق من أول العالم ووقت استواء الليل والنهار عند دخول الشمس رأس الحمل في اليوم الثالث عشر من آذار. وهو عند اليهود بنيسان الذي قال الله لموسى عليه السلام: هذا الشهر [١٣٣] يكون لكم رأس الشهور وفيه زعم الحكماء يكون انقضاء العالم.

ويقال أن السنة التي خرج فيها بنو إسرائيل من أرض مصر صعد موسى إلى جبل طورسيناء فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة وخاطبه الله وأعطاه موهبة النبوة والحكمة. وأخبر كيف خلق الله العالم في ستة أيام، وأنزلت عليه التوراة، فكانت خمسة أسفار.

السفر الأول سفر الخليقة وكيفيتها. والثاني أخبر فيه عن خروج بني إسرائيل من أرض مصر. والثالث شرح فيه أمور الكهنة والأخبار. والرابع سفر عدد بني إسرائيل. والخامس سفر الاستثناء وهو الناموس الثاني[4].

---

(١) البلخي، البدء والتاريخ: ١/١٨٠.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ١/٥٨٦.

(٣) ساقطة من ت.

(٤) هي الأسفار الخمسة الأولى من التوراة وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية.

قال موسى النبي سلام الله عليه في رأس السفر الأول من التوراة(١): في البدء خلق الله السماء(٢) والأرض، وكانت الأرض غير محسوسة، وكانت الظلمة على المياه، ثم خلق النور، وفصل بينه وبين الظلمة في اليوم الأول، وخلق السماء في اليوم الثاني، وأمر الرب للمياه التي تحت السماء أن تجتمع وسماها بحوراً، وأظهر اليبس أرضاً وأمرها أن تنبت العشب والزرع والشجر المثمرة كأجناسها في اليوم الثالث، وخلق الشمس والقمر والنجوم في اليوم الرابع، وخلق الأسماك والطيور والمياه وخلق تنينين عظيمين في اليوم الخامس، وخلق من الأرض الدواب والبهائم والوحوش وجميع السباع والهوام(٣). وكلما يدب على الأرض، ثم خلق الإنسان وباركه، ومنحه أن يأكل النبات والحيوان الغير ناطق في اليوم السادس.

وخلق له فردوساً في عدن، وجعل الإنسان فيه، وخلق من ضلع من أضلاعه حواء، وأمرهما أن يأكلا من شجر الفردوس ما خلا من شجرة معرفة الخير والشر، فإنه قال لهما في اليوم الذي تأكلا منها تموتان موتاً، وأطغت الحية حواء فأكلت من الشجرة وأطعمت آدم فعلم الله [١٣٤] سبحانه وتعالى مخالفتهما فأخرجهما من الفردوس(٤).

وآدم هو أول هذا النوع الإنساني خلقه من غير أب ولا أم، وجعل كل الناس منه وهذا الذي تظافرت عليه الأدلة عقلاً ونقلاً وعليه جميع المتشرعين وأكثر المنبئين من الفلاسفة، ووردت به الأخبار المنقولة وقامت عليه الأدلة العقلية. وهو الذي قرره شيخنا العلامة أبو الثناء محمود الأصفهاني(٥).

قال: البرهان على أن النوع الإنساني شخصاً هو أول الأشخاص خلقه الله من غير

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الأول.

(٢) ب: السموات.

(٣) ب: والدواب.

(٤) التوراة، سفر التكوين الإصحاح الثاني والثالث.

(٥) هو أحد أبرز شيوخ العمري الذين أكثر من النقل عنهم في كتابه المسالك، وهو محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، شهاب الدين أبو الثناء توفي سنة ٧٢٥هـ. انظر عنه: الصفدي، أعيان العصر: ٣٧٢/٥، الوافي بالوفيات: ٣٠١/٢٥.

أبٍ وأم على أصول الحكماء أن نوع الإنسان مركب من العناصر الأربع: الأرض[1] والماء والهواء والنار. والمركب من العناصر حادث لأن المركب من العناصر يحصل باجتماع العناصر وتفاعلها بكيفياتها، وذلك لا يتم إلا بالحركة، فيكون وجود المركب مسبوقاً بالحركة، والحركة مقارنة للزمان على سبيل اللزوم[2] فيكون وجود المركب مسبوقاً بالزمان فيكون حادثاً بعد وجود العناصر وحركاتها بالزمان، فيلزم أن يكون شخص من أشخاص نوع الإنسان يحدث من العناصر بعد وجودها وحركاتها حتى يجتمع ويحدث ذلك الشخص بعد اجتماع العناصر.

وذلك الشخص هو أول أشخاص نوع الإنسان لأنه لو لم يكن ذلك الشخص أول أشخاص نوع الإنسان لكان كل شخص من أشخاص نوع الإنسان مسبوقاً بشخص آخر لا إلى أول فيلزم قدم المركب.

وقد بينا أن المركب حادث هذا خلف فثبت أن نوع الإنسان شخصاً هو أول الأشخاص فيكون ذلك الشخص مخلوقاً من غير أب وأم. انتهى كلامه.

ثم نقول: قال أهل الكتاب: وسمى آدم جميع سباع الأرض والبهائم والطير، وصار ملكاً عليها[3]، وأتى آدم زوجته فولدت قابيل، فكان[4] يحرث الأرض ويزرعها، وبعده هابيل وكان يرعى الغنم، وقرب قابيل من ثمرة أرضه فلم يقبله الله وقرب هابيل من سمان[١٣٥] غنمة وأجودها فقبله، فحزن قابيل وعبس وجهه وقتل هابيل أخاه فبكَّته الله وعاقبه وأسكنه البقعة التي قتل فيها أخاه[5].

وأتى قابيل امرأته فولدت له ابناً فدعاه أخنوع عيراد، وأولد عيراد مخواييل، وأولد مخواييل متوشال، وأولد متوشال لامك، وتزوج لامك امرأتين عادا وصالا. فولدت عادا ثوبال، وهو أول من سكن المضارب والخيام وعلف الماشية ثم نوبيل أخوه، وهو أول

---

(١) ب: والأرض.

(٢) ب: الزمان.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ١٩٢/١.

(٤) ك، ب: وكان.

(٥) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الرابع: ١ ـ ١٦.

من ضرب بالوتر. وصالاً ولدت ولداً، وهو أول من عمل النحاس والحديد وضرب بالمطرقة(١).

قال: فلما صار لآدم مائتا سنة وثلاثون سنة أولد شيثاً، وكان رجلاً جميلاً جليلاً، وعاش آدم بعد ذلك سبعمائة سنة وأولد أولاداً كثيرة، وكثر نسله. فلما دنت وفاته أحضر شيثاً وإخوته وأولادهم ونسوانهم وأوصاهم أن يسكنوا الجبل قبالة الفردوس ولا ينزلوا منه، ولا يختلطوا بنسل قابيل القاتل(٢)، وأوصاهم إذا انتقلوا من الجبل أن ينقلوا جسده معهم، ويدفنوه في وسط الأرض، وجعل شيثاً ولده الخليفة بعده على أولاده وأولاد أولاده(٣).

وتوفي آدم يوم الجمعة الرابع عشر من الهلال في ستة أيام من نيسان، وهو برمودة سنة تسعمائة وثلاثين للعالم، وحنطوه بالمر واللبان والسُليخة، ودفنوه في مغارة الكنوز في رأس الجبل وناحوا عليه أربعين يوماً(٤).

وروى له شعر منه:

نحن بنو الأرض وسكانها ... منها خلقنا وإليها نعود

والسعد لا يبقى لأربابه ... والنحس تمحوه ليالي السعود

ثم إن شيث ابن آدم سلام الله عليهما سكن الجبل المقدس هو وأخوته وأولادهم ونسوانهم لوصية آدم لهم عند وفاته، وبقي قابيل وأولاده وجميع نسله في البقعة التي قتل فيها هابيل أسفل الجبل ودبر شيث قومه وسلكوا طريق البر والطهارة وكان يسبحون الله [١٣٦] ويقدسونه.

قال: وكانوا يعيشون من ثمار الشجر التي في الجبل، وقابيل ونسله يعيشون من ثمار الأرض التي يزرعونها.

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الرابع: ١٧ ـ ١٢١.

(٢) في الأصول: القاتول.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٢٨١/٢٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٢٢٣/١، ٢٢٠.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٨١/٢٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٢٢١/١ ـ ٢٢٢.

وعاش شيث مائتا سنة وخمس سنين، وأولد أنوش وذلك في سنة أربعمائة وخمس وثلاثين للعالم، وكان عمر شيث حين ولده مائتين وخمساً وستين سنة ثم عاش بعد ذلك شيث سبعمائة وست سنين، وكان قائماً بما عهد إليه أبوه آدم عليه الصلاة والسلام[1].

قال فريطون الحكيم: إن شيث أول من أظهر حروف الكتابة، وأُلهم اللسان العبراني فتكلم به، وعلم به بني آدم، وقد كان لسان آدم ﷺ وجميع أولاده اللسان السرياني إلى أن بلبلت الألسنة.

ويقال إنه[2] أول نبي أرسل، وأنزلت عليه الصحف. والصابئة تتمسك بنبوته، وتدين بشريعته إلى الآن، ومن مذهبهم تحريم كل لباس إلَّا الأبيض، وتحريم ذبح البقر، وأكل لحوم الحمام والفول وقالوا: الأبيض يناسب لون الأجرام العلوية فمن لبس سواه باينها، وذبح البقر يؤدي إلى تعطيل الأرض وأكل الحمام مفسد لجوهر الدماغ والفول مبلد للذهن.

مذ نشأ أنوش لزم أباه وتأدب بآدابه وأخذ عنه أمور دينه ودنياه، وكانت إليه خرقة الصحبة المنـــزلة عليه، وكان شيث يؤثره على سائر بنيه، ويقربه إليه دونهم ويدينه ويعجب بمخايله، ويتوسم إحياء بيته منه، فعلمه مما علمه الله لآدم، وآثره بعلمه، واختصه بأسراره، وأوقفه[3] على دقائق الحكمة[4]، وخواص الأسماء والحروف، وما في الحيوان والنبات والمعادن من المنافع والمضار.

وكان بنو أبيه يحسدونه على مكانته من أبيهم ومحله منه دونهم، ثم لما قرب موت شيث جمع أولاده أنوش وسائر إخوته ونساءهم وأهلهم، وآذنهم بدنو أجله ودعا لهم، وسأل الله فيهم البركة والنماء، وأوصاهم أن لا ينزل أحد منهم [١٣٧] من الجبل

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٥، الآية ٦؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٢٢٣/١.

(٢) ت: إن.

(٣) ت: وأوقفه.

(٤) ب: الحكة.

ولا يختلط بنسل قابيل القتول، وأمرهم بالتناصف والعدل، وحذرهم عواقب البغي والظلم وأكد الوصية عليهم في اجتناب ولد قابيل ومقاطعتهم والبعد عنهم، وقال لهم: إنا لا نزال بخير ما وصلنا أرحامنا وكفينا الناس أمرنا، وإياكم أن يقول قائل منكم[١] نؤمر بصلة أرحامنا، ونحن نقطع إخوتنا بني قابيل، فإن الله قطع بينكم وبين قابيل وبنيه وعاقبه بالقطيعة لقطعه بأخيه.

ثم عهد شيث عليه السلام إلى ولده أنوش على قومه، وفوض إليه التدبير لأمورهم، وعقد له الرئاسة عليهم، ثم توفي وعمره تسعمائة واثنا عشر سنة، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من آب وذلك لسنة ألف ومائة واثنين وأربعين للعالم، وكانت وفاته لتمام عشرين سنة من مولد أخنوخ وهو إدريس عليه السلام، هذا على نقل السبعين في تواريخ النصارى، وفي توراة اليهود أنه مات لتمام مائة وثمانية وستين سنة من حياة لامك[٢].

ولما مات تولى أنوش غسله وحنّطه بالمسك والكافور وأنواع الطيب، ثم أدرجه في قماش كان ادخره من بقية آدم عليه السلام لتكفينه، ثم قام أنوش فصلى عليه هو وسائر بنيه وأهله، ثم دفنوه في مغارة الكنور في رأس الجبل.

وعند اليهود أن شيث ولد أنوش وعمره مائة وخمسة وثلاثون سنة، فيكون النقص بينهما عما عند النصارى مائة سنة لتمام مائتي سنة.

ثم دبّر أنوش بن شيث قومه، وسار فيهم سيرة المصلحين، وألزم بها نفسه وأهله، وولد قينان وعمره مائة وتسعون سنة، وذلك في سنة خمس وعشرين وستمائة وألف للعالم، وعاش بعد ذلك سبعمائة وخمسة عشر سنة، وأولد أولاداً عدة، وكثر نسله. وفي ثلاثمائة سنة من عمره قتل قابيل[٣] [١٣٨] وذلك أن السابع من ولد آدم وهو لامك بن متوشال بن مخوايبل بن عيراد أخنوخ بن قابيل[٤] بن آدم. كان أعمى، فخرج إلى الغابة

(١) ساقطة من ت.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الخامس، الآيات ٩ - ٢١.

(٣) ت، ك: قايين.

(٤) ت، ك: قايين.

ومعه صبي يقوده فسمع حساً فظنه بعض السباع فرماه بحجر فوقع في قابيل[1] فقتله غلطاً، فقال له الصبي: ماذا صنعت؟ قتلت قابيل؟ فحزن حزناً عظيماً وضرب بيديه بعضهما ببعض فوقعتا على رأس الصبي فقتله من غير قصد، فجاء لامك لامرأتيه عدا وصلا، وقال لهما: اسمعا كلامي إن كان قاتل[2] قابيل يجازى بسبع من النقم فلامك بسبع وسبعين من أجل أنه قتل رجلاً برمية حجر رضا بتصفيق يديه[3]. وكانت وفاة قابيل وقد كمّل عمره سبعمائة وثلاثون سنة، وفي ذلك الزمان كانت نعما أخت يوبال ويوبيل من نسل قابيل وكانت تكنى بالناعمة، وكانت من أجمل النساء، وهي أول من أظهر الأصباغ والألوان، وكان أخوها يوبيل عارفاً بضرب الوتر وجميع العيدان وهو أول من ابتدعها[4]. وقيل أن الوحش والطير كانت تجتمع إليه وتسمع صوته، ولا تؤذي بعضها بعضاً لحسن صوته، وانهمك أولاد قابيل في اللهو والطرب وأكبّوا على اللذات، لا يفترون عن ذلك ليلاً ولا نهاراً، وكان أولاد شيث في الجبل يشرفون عليهم ويسمعون أصواتهم، فمالوا إلى اللذات وقويت عليهم الشهوات، فنزل بعضهم إلى أولاد قابيل، واختلطوا بهم وأفسدوا معهم وكان سببه نوبيل وأخته الناعمة، وبنو القباب وسكنوها، ولما دنت وفاة أنوش اجتمع إليه جميع أولاده وأولادهم ليتباركوا منه، فدعا لهم وأوصاهم بالطهارة وحذرهم من الاختلاط بنسل قابيل القاتول، واستخلف قينان ولده عليهم، ومات وعمره تسعمائة سنة وخمس سنين، وذلك في يوم السبت لثلاث خلون من تشرين الأول، وهو شهر بابه للمصريين سنة ألف وثلاثمائة [١٣٩] وأربعين للعالم، ودفن في مغارة الكنوز في الجبل، فناحوا عليه أربعين يوماً[5].

ثم دبّر **قينان بن أنوش** قومه وسار بهم سيرة جميلة، وأولد مهلائيل وعمره مائة وسبعون سنة، وعاش بعد ذلك سبعمائة وأربعين سنة، وأولد أولاداً كثيرة وكثر نسله، فلما

---

(١) ت، ك: قايين.

(٢) ب: قابيل قابيل.

(٣) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٤، الآيات ٢٣ ـ ٢٤. وفيه: فإني قتلت رجلاً لجرحي وفتىً لشدخي.

(٤) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٤، الآيات ٢٢ ـ ٢٣.

(٥) اليعقوبي، التاريخ: ١/١٠ ـ ١١.

قربت وفاته استحضر أولاده وأولادهم واخوته وأعمامه ونسوانهم، ودعى لهم وبارك عليهم، وأوصى لهم بالطهارة وأن لا ينزلون من الجبل، ولا يختلطوا بنسل قابيل القاتل، واستخلف عليهم مهلائيل ولده الكبير ثالث عشر حزيران وعمره تسعمائة وعشر سنين،

وحنطوه ودفنوه في مغارة الكنوز، وناحوا عليه على العادة[1].

ثم دبر **مهلائيل بن قينان** قومه وسار بهم طريق البر والتقوى، وأولد يرد وعمره مائة وخمسة وستون سنة، وعاش بعد ذلك سبعمائة وثلاثين سنة، وأولد أولاداً كثيرة وكثر نسله، ولما دنت وفاة مهلائيل استحضر أولاده وأولادهم وبارك عليهم، واستخلف يرد ولده الكبير عليهم. ومات يوم الأحد ثاني نيسان ودفنوه وناحوا عليه على العادة[2].

ثم دبر يرد بن مهلائيل قومه وسار بهم سيرة جميلة، وأولد أخنوخ وعمره مائة واثنان وستون سنة. وفي أيامه كثر ضجيج أولاد قابيل وتظاهروا بالفساد، وصعد صوت ضجيجهم إلى الجبل فسمعهم بنو شيث، فاجتمع منهم مائة رجل لينـــزلوا من الجبل[3] إلى أولاد قابيل، فمنعهم يرد وحذرهم، فلم يقبلوا، ونزلوا واختلطوا ببنات قابيل فرأوهم صباحاً جداً ونظروهم أيضاً بنات قابيل وهم حسان جبابرة في قوتهم، فاختلطوا بهم وركبوهم وتدنست أجسادهم بالزنا مع بنات قابيل، فولدت الجبابرة من بني شيث، فلما دنت وفاة يرد، استدعى أخنوخ ومتوشلخ ولامخ ونونخ وأولادهم وقال لهم: قد علمتم ما فعل أولادكم وأنهم تعدوا وصية الأباء ونزلوا من الجبل [١٤٠] واختلطوا ببنات قابيل وتدنسوا بهن، وأنتم فاحفظوا طهارتكم ولا تنزلوا من الجبل المقدس، وبارك لهم ودعا لهم واستخلف عليهم أخنوخ ولده الكبير. ومات يوم الجمعة ثاني عشر آذار وعمره تسع مائة واثنان وستون سنة، ودفنوه في مغارة الكنوز وناحوا على العادة[4].

---

(١) اليعقوبي، التاريخ: ٩/١.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٥، الآية ١٨، اليعقوبي، تاريخ: ١٠/١.

(٣) «فسمعهم بنو شيث ... الجبل» ساقطة من ت.

(٤) اليعقوبي، التاريخ: ١٠/١ ـ ١١.

ثم استخلف أخنوخ، وكان باراً تقياً، وسار سيرة جميلة جداً، وأولد متلوشخ وعمره خمسة وستون سنة وكان يسأل الله أن ينقله إلى الفردوس الذي كان فيه آدم، فتقبل الله منه ورفعه إلى الفردوس حياً وعمره ثلاثمائة وخمسة وستون سنة[1].

وقال الحكيم تابور المصري في كتابه: أن أخنوخ لما رفع إلى السماء قاس الفلك الدائر وعرف البروج التي فيه والكواكب الثابتة والجارية والأشباه والحدود والوجوه والعشرات والصور التي فيها وغير ذلك من أسرار علوم النجامة. وذهب قوم إلى أن أخنوخ هو أدريس النبي، وأنه أنزل عليه صحيفة الناموس المعروفة به وعلم معرفة الرمل، وعلم النجامة[2].

قال: وبعد ارتفاع أخنوخ عبد بنو شيث وبنو قابيل الأصنام وكل من هوت نفسه شيئاً عبده واستغرقوا في الفساد، وتظاهروا بالمعاصي والرذائل.

ثم أن متوشلخ بن أخنوخ دبر قومه تدبيراً جميلاً، وأولد لامخ وعمره مائة وسبعون سنة وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنتين وثمانين سنة وأولد أولاداً كثيرة، فلما دنت وفاته اجتمع إليه لامخ وأخوته وأولاده ونوح بن لامخ وأولاده: سام وحام ويافث، فبارك عليهم ودعا لهم. ومات يوم الجمعة الحادي والعشرين من أيلول وعمره تسعمائة وتسعة وستون سنة، وحنطوه ودفنوه وناحوا عليه على العادة[3].

ثم لامخ بن متوشلخ أولد نوحاً وعمره مائة واثنان وثمانون سنة، وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمسة وتسعين سنة [١٤١] وأولد أولاداً كثيرة، فلما دنت وفاته استحضر نوحاً ولده الكبير وأوصاه بتقوى الله ودعا له فبارك عليه وقال له: إذا نزلت من الجبل خذ جسد أبينا آدم معك، وأوصي أولادك أن يدفنوه في وسط الأرض، ويرتبوا رجلاً صالحاً منهم يقيم عند قبره لخدمته، ومات يوم الخميس الحادي والعشرين من أيلول وعمره حينئذ سبعمائة وسبعة وسبعون سنة، وذلك لتمام خمسمائة وخمسة وتسعين سنة

(١) اليعقوبي، التاريخ: ١/١١.
(٢) ابن الأثير، الكامل: ١/٥٠.
(٣) اليعقوبي، التاريخ: ١/١٢.

من حياة نوح ولده عليه السلام، فحنطوه ودفنوه في مغارة الكنوز[١].

ثم نوح[٢] وكان رجلاً تقياً[٣] سار بين يدي الله سيرة حسنة بكل التقوى والطهارة وخشية الله حتى نبأه الله وأرسله وسماه عبداً شكوراً وأطار له ذكراً مشهوراً في خمسمائة سنة[٤] من عمره أولد سام ولده الكبير وبعده حام، وبعده يافث، ولم يبق في الجبل سوى نوح وأولاده الثلاثة وزوجته، ونشأ أولاده، وعدة الجميع ثمانية أنفس، ونزل جميع أولاد آدم إلى أسفل الأرض، واختلطوا ببنات قابيل، وانعكفوا على المعاصي، وعبدوا الآلهة التي اتخذوها من دون الله، وفسدت الأرض وامتلأت فجوراً، فأوصى الله إلى نوح أني مهلك الأرض وكل من عليها من الناس والأنعام والهوام وطير السماء، فاعمل لك فلكاً من خشب الساج واطل داخله وخارجه قاراً واعمله طباقاً، فإني مرسل ماء الطوفان على الأرض لأهلك كل جسده فيه روح الحياة من تحت السماء، وأثبت لك عهدي وتدخل الفلك أنت وبنوك وزوجك ونساء بنيك، ومن جميع السباع والبهائم والطائر الحلال سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً، ومن غير الحلال اثنين ذكراً وأنثى ليكون منها نسل على الأرض، وأعد لك ولهم من جميع المأكولات، ففعل نوح كما أمره الله تعالى. هذا ما ذكره الأخباريون[٥].

والذي نطق به القرآن الكريم أنه أنما أمر بأن يأخذ من كل زوجين اثنين [١٤٢] وذلك قوله تعالى: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[٦] وأقام نوح يعمل الفلك مائة سنة وهو ينذر الناس ليرجعوا عن خطاياهم، وهم مستمرون على عصيانهم لا يرجعون عن آثامهم، ودخل نوح وأولاده ونسوانهم وكل من أمره الله تعالى إلى الفلك يوم الجمعة السابع والعشرين من آذار، فلما كانت سنة ستمائة

---

(١) اليعقوبي، التاريخ: ١٢/١ ـ ١٣.

(٢) تضيف ب بعدها «عليه السلام».

(٣) «وكان رجلاً تقياً» ساقطة من ت.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٤٦/٦٢.

(٦) سورة المؤمنون، الآية ٢٧.

لنوح، أرسل الله ماء الطوفان على الأرض، وتفجرت ينابيع المياه، وتفتحت مأزيب السحاب، ولم يزل المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وكثر الماء وحمل الفلك وارتفع عن الجبال الشواهق خمسة عشر ذراعاً، ومات كل ذي نفس حية على وجه الأرض، وبقي نوح والذين معه في الفلك، ولم يزل الماء يرتفع مائة وخمسين ويوماً، ورحم الله نوحاً ومن معه في الفلك، فأرسل على الأرض ريحاً فانقطع الماء ونقص عن الأرض واستقر الفلك في سبعة وعشرين يوماً من الشهر السابع وهو أيلول على جبال قردا، وهي قرية من بلد الموصل من ديار ربيعة، واسم الجبل الجودي. وفي أول يوم من الشهر العاشر ظهرت رؤوس الجبال، ومن بعد أربعين يوماً فتح نوح باب الفلك وسرّح الغراب فلم يرجع، ثم سرح الحمامة فلم تجد مستقراً لرجلها، فعادت إليه فتوقف سبعة أيام أخر، وأرسل الحمامة فعادت إليه وقت المساء وفي منقارها ورقة خضراء، فعلم أن الماء قد انقطع عن الأرض، وتوقف سبعة أيام أخر، وأرسل الحمامة فلم تعد، وفي سنة إحدى وستمائة لحياة نوح كشف طباق الفلك ورأى الماء قد نضب من وجه الأرض وقال الله تعالى لنوح: أخرج أنت ومن معك فانتشروا في الأرض فخرجوا. وبنى نوح وأولاده عند قرية قردا مدينة وسموها ثمانين على عددهم، وفلح نوح الأرض وغرسها. وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فلما [١٤٣] دنت وفاته، أوصى ولده سام بأن ينقل جسد آدم ويجعله في وسط الأرض، ويرتب ملكين آداق بن فالق عند قبره لخدمته لأنه كان نبي الله ومات نوح وعمه تسعمائة وخمسون سنة من حياة سام ولده وحنطوه ودفنوه وناحوا عليه(١).

ثم بعده سام بن نوح عليهما السلام أولد أرفخشد بعد الطوفان بسنتين وعمره مائة سنة وسنتان. قال: وذكر سام وصية أبيه من أجل جسد آدم فأحضر ملكين آداق بن قالق، وكان صالحاً ناسكاً وقال له: أن نوحاً أوصى بان تأخذ جسد آدم وتدفنه في وسط الأرض ونمضي أنا وأنت لندفنه، فمضى سام وملكين آداق ومعهما جسد آدم إلى أن وصلوا الجلجلة فدفنوه بذلك الموضع، وسمي بعد دفنه فيه الجمجمة لأن فيه وضعت

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح: ٧ ـ ٩.

جمجمة آدم عليه السلام. وقال سام لمكين آداق: تقيم عنده لتخدمه كما تقدمت الوصية ملكين آداق مقيماً عنده يخدمه كما تقدمت الوصية، وعاد سام ومن معه وأشاعوا أن ملكين آداق عدم في الطريق فحزنوا عليه. ومات سام في شهر أيلول يوم الجمعة وحنطوه ودفنوه على العادة(١).

ثم أرفخشد بن سام بن نوح، عاش مائة وخمسة وثلاثين سنة وأولد قينان وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسة وثلاث سنين فجميع عمره أربعمائة وثمانية وثلاثون سنة. ومات في نيسان(٢).

ثم قينان بن أرفخشد، وهو قينان الثاني، أولد شالخ وعمره مائة وثلاثون سنة، وعاش بعد ذلك أربعمائة وثلاثين سنة، ومات في شهر آب وعمره خمسمائة وستون سنة(٣). وهذا قينان الثاني وضعه اليهود في توراتهم مع ما وضعوه من مواليد الآباء وهو ما يزيد على ألف وخمسمائة سنة عندما اتفقوا على قتل المسيح وقالوا: إن هذا [١٤٤] ليس المسيح الذي وعد به على ألسن الأنبياء. واحتجوا بالسوابيع التي ذكرها دانيال، وأن المسيح يأتي عند انقضائها وقالوا: أنها لم تنقض إلى الآن. قال المؤرخ: إن سوابيع دانيال انقضت عند مجيء المسيح عليه السلام.

ثم شالخ بن قينان عاش مائة وثلاثين سنة، وأولد عابر، وعاش بعد ذلك ثلاثمائة سنة وثلاثة سنين، فجميع عمره أربعمائة وثلاث وثلاثون سنة ومات في آذار وهو برمهات(٤).

ثم عابر عاش مائة وأربعة وثلاثين سنة، وأولد فالغ، وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وثلاثين سنة، فجميع عمره أربعمائة وأربعة وستون سنة، وهذا عابر هو أبو العبرانيين، وتكلم هو وأولاده بالعبراني، والعرب تسميه هود. وفي أيام عابر تشاور الناس أن يبنوا

---

(١) اليعقوبي، التاريخ: ١٧/١؛ البكري، المسالك: ٧٠/١.
(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١١، الآية ١٠.
(٣) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١١، الآية ١٥.
(٤) اليعقوبي، التاريخ: ١٤/١.

برجاً يبلغ السماء ويشوونه، وكان طول اللبنة ثلاثة عشر ذراعاً، وسمكها خمسة أذرع، وبنو مدينة طولها ثلاثمائة وثلاثة عشر باعاً، وعرضها مائة وواحد وخمسون باعاً، وعملوا برجاً ارتفاعه خمسة آلاف وخمسمائة وثلاثة وثلاثون باعاً، وعرض حيطانه ثلاثة وثلاثون باعاً، فأقاموا يبنون فيه أربعين سنة، وكانت الأرض كلها لغة واحدة، فبينما هم يبنون، بعث الله ملكاً من السماء فبلبل ألسنتهم وغير لغاتهم، فكان أحدهم يتكلم فلا يدري الآخر ما يقول، فسمي ذلك الموضع بابل، لأنه فيه تبلبلت الألسن، وبطل البناء في أربعين سنة من حياة فالغ، وقيل أن عدة من اجتمع على بناء البرج اثنان سبعون رئيساً، منهم من بنى سام خمسة وعشرين رجلاً، وهؤلاء سكنوا من الفرات إلى الموصل وإلى أقصى المشرق، فمنهم السريان وديار ربيعة والجزيرة والجرامقة والكلدانيون،وهم أهل بابل وفارس [١٤٥] وخراسان وفرغانة والهند والسند واليمن والطائف واليمامة والبحرين. ولهم من الخطوط ثمانية: عبراني وسرياني وفارسي وهندي وكلداني وصيني وحميري وعربي. ولهم من البحار: الفرات ونهر بلخ.

ومنهم من بني حام اثنان وثلاثون رجلاً وهؤلاء سكنوا الشام وأرض كنعان وأرض مصر إلى أقصى المغرب. فمنهم: الكنعانيون والفلسطينيون والقبط ومريس وأجناس السودان والزنج والمغاربة. ولهم من الجزائر ستة وعشرون جزيرة منها سردانية ومالطة وأقريطش وما والاها. ولهم من الخطوط ستة: مصري وهو القبطي، ونوبي وحبشي وفرنجي وقوتليقي وقلقي. ولهم من البحار: النيل، ومن الأنهار الأردن.

ومنهم من بني يافث خمسة عشر رجلاً سكنوا من دجلة إلى أقصى الشمال فمنهم: الترك والبختان والطغرغز والتبت ويأجوج ومأجوج والخزر واللان والضناير وأرمينية الكبيرة، وأرمينية الصغيرة وأنطاكية والخالدية وقبادوقيه وخرشنه واليونان والروم وزقطية والروس والديلم والصقالبة وأفرنجة والأندلس وما وإلى ذلك. ولهم من الجزائر اثنتا عشرة جزيرة منها: رودس وصقلية وقبرس وشامس وغير ذلك ولهم من الخطوط ستة: يوناني ورومي وأرميني وأندلسي وإفرنجي وحراري. ولهم من البحار: دجلة والشط[1].

---

(١) البكري، المسالك: ١/٨٨ ـ ٨٩.

وقد كان عابر حاضراً لعمارة هذا البرج، وكان لسانه عبرانياً، ولم يتغير، فمن الطوفان إلى بناء البرج وبلبلة الألسن خمسمائة سنة وسبعون سنة، ومن آدم عليه السلام إلى بلبلة الألسن ألفا سنة وثمانمائة سنة وسبعة وعشرون سنة.

وأولد عابر المذكور أولاداً كثيرة منهم: قحطان، وهو أبو العرب، ويسمونه أيضاً يقطان، وأولد قحطان أولاداً كثيرة، وأقام أولاد قحطان عليهم [١٤٦] ثلاثة رؤساً جبابرة: أحدهم سِّبا، والآخر فير واسم الثالث خويلاويدا بنو قحطان بمحاربة الشعوب بجميع السلاح، لأنهم أول من استخرج آلات السلاح، وكان أول معرفتها من السباع، فأما الرمح فإنه من السبع الذي يسمى الكركدن، فإن له قرناً طويلاً في رأسه بمنزلة الرمح يطعن به الدواب ويقاتلها. وأما السيف فإنهم استخرجوه من الخنزير فإن أنيابه مثل حد السيف، يقال أنه يضرب به الشجرة فيقطعها نصفين. وأما السهام، فإنهم استخرجوها من القنفذ، فإذا نصب شعره ورمي به لم يخط الموضع الذي يقصده وأما الترس فإنهم استخرجوه من سلحفاة البحر فإن ظهرها مثل الترس. وكلما استخرجوه من السلاح فهو على هذا الحكم.

قال فوبيوس الحكيم في كتابه: أن الشعوب من شدة ما نالهم من أولاد قحطان من الجهد والحروب، خيروهم في الأقاليم ليسكنوها ويمسكوا عن قتالهم، فاختاروا البلدان الشرقية من ناحية الصين وما ولاها، وهي بلدان فيها الذهب الأبريز والياقوت والزمرد والجوهر، وجميع الأشجار المرتفعة مثل العود والصندل وغيرها. وهي بلدان يحتاج الناس إليها، وهم لا يحتاجون إلى شيء غيرها من البلدان.

وقال بعض المؤرخين: إن في أيام عابر كان الناس يصورون لمن عرف بشجاعة أو رأي جيد من أكابرهم، فإذا أرادوا أن يتشاوروا في أمر من أمورهم، اجتمعوا عند الصورة، حتى كأن صاحب الصورة معهم في المشورة. قال: وهذا كان سبب عبادة الأصنام، فإن أكابرهم ماتوا وفنوا، فجاء أولادهم وأولاد أولادهم فسجدوا لتلك الصور، ولم يعلموا المقصود بها، وكلمتهم الشياطين منها فعبدوها.

وفي أيام عابر تكملت الألف الثالثة من سني العالم. ومات عابر في كانون الثاني.

ثم فالغ بن عابر، أولد ارغو وعمره مائة وثلاثون سنة، وعاش بعد أن ولد ارغو مائتي سنة وتسعة سنين. وفي أربعين [١٤٧] سنة من عمر فالغ كانت بلبلة الألسن، وبطل بناء البرج. ثم ولد ملكين داق الكاهن الذي ذكرناه أولاً، وبعده أولد أولاداً كثيرة، وكثر نسله، فجميع حياة فالغ ثلاثمائة وتسع وثلاثين سنة. ومات في أيلول[١].

ثم أرغو بن فالغ، عاش مائة واثنين وثلاثين سنة، وأولد شاروغ، ويقال: شاروخ، وعاش بعد ذلك مائة وسبع سنين، فجميع عمره مائتان وتسعة وثلاثين سنة[٢].

وفي مائة[٣] وثلاثين سنة من عمره ملك الملك الأول على الأرض وهو النمرود الجبار بن كنعان بن حام بن نوح تسع وستين سنة. وكان ابتداء ملكه في بابل، وهو ملك الكلدانيين، وقيل: أنه رأى مثال إكليل في السماء، فأحضر الصانع فصنع له إكليلاً

من ذهب فوضعه على رأسه وأشاع بين أهل مملكته أنه نزل عليه تاج من السماء.

ويقال أنه عبد النار، وسببه أنه رأى ناراً عظيمة في المشرق، فسجد لها، فمن ذلك الوقت عبد المجوس النار.

قال بعض المؤرخين: وفي أيام أرغو صيّر أهل مصر عليهم ملكاً اسمه مصريم بن حام ابن نوح. وهو ملك القبط الفراعنة، ملك عليهم ثمانية وستين سنة، وبنى قرية اسمها منف على بحر النيل، وسماها مصر باسمه، وأما النمرود الجبار، فإنه بنى مدناً عظيمة في المشرق منها: بدنوى وشلق وأذربيجان وغيرهم من المدن.

قال: وفي أيام أرغو عبد الناس عبادات مختلفة، فمنهم من عبد السماء وسجد

لها، ومنهم من عبدا لشمس، ومنهم من عبد القمر[٤] والكواكب، ومنهم من عبد السباع

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١١، الآية ١٦، اليعقوبي، التاريخ: ١/٢٠.
(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١١، الآية ٢١.
(٣) ت: مائتي.
(٤) «عبادات مختلفة فمنهم ... القمر» ساقطة من ت.

والطير والبحار والأشجار، ومنهم من كان يعمل صنماً على اسم أبيه وأمه ومن يحبه، فإذا مات سجد لها واتخذه إلهاً، ومنهم من كان يعمل الصنم ذهباً وفضة وحجارة منقوشة وأخشاباً مدهونة، فامتلأت الأرض أصناماً.

قال: وفي ذلك الزمان مات رجل وكان غنياً جداً، فعمل ولده صنماً من ذهب وجعله على قبره، وفي أثناء ذلك سرق منزل الولد وأخذ كل ما فيه، فخرج إلى قبر أبيه وجعل [١٤٨] يشكو إلى الصنم ما ذهب منه، كأنه يشكو إلى أبيه، فكلمه(١) الشيطان من الصنم. وقال له: إن أنت أحضرت ابنك وذبحته لي قرباناً رددت عليك كل ما سرق لك، ففعل ما قاله فعاد إليه كل ما عدم له، فدخل الشيطان وعلمه السحر والرقى، ومن ذلك الوقت ابتدأ الناس يذبحون أولادهم للشياطين.

قال: وفي أيام أرغو ملكت مملكة سبأ إلى أيام سليمان بن داود عليهما السلام، وفي أيام أرغو ملك قارون وبنى مدينة أوقين بلبن الذهب، لأنه كان يعرف الكيمياء. وفي مائتي سنة من حياة أرغو ملك عميوس مملكة بابل، وهو الملك الثاني على بابل، وكان ملكه عليها خمساً وثمانين سنة. وفي أيامه ظهرت مطيتا، أعني داراً لضرب الدينار والدرهم، وصياغة الحلي من الذهب والفضة، وفي ذلك الزمان عرف أميروس طبائع النحاس. ومات أرغو في نيسان.

ثم شاروغ ولده، ويقال شاروخ. عاش مائة وثلاثين سنة وأولد ناخور، وعاش بعد ذلك مائة سنة، فجميع عمره مائتا سنة وثلاثون سنة، ومات في آذار(٢).

ثم ناخور بن شاروخ، عاش تسعاً وسبعين سنة، وأولد تارح، وعاش بعد ذلك مائة وتسعة عشر سنة، فجميع عمره مائة وثمانية وتسعون سنة. وفي أيامه جعلت الموازين والمكاييل، وفي أيامه زلزلت الأرض زلزالاً عظيماً. ولم تكن الأرض زلزلت قبل ذلك، ولما كثرت عبادة الأصنام وذبحوا أولادهم للشياطين، أرسل الله عليهم ريحاً عاصفة،

---

(١) ت: تكلم.

(٢) اليعقوبي، التاريخ: ٢١/١.

فكان طوفان ريح، أقام مدة أيام كسر الأصنام جميعها، وسقطت بيوتها لشدة الزلازل والرياح. وفي أيامه ظهر يواصيب الفارسي، وأظهر دين الصابئة. وكان بفارس ملك يقال له طحوريث ويقال أنه الذي أظهر دين الصائبة وقيل أن الذي أظهر دين الصابئة رجل اسمه اليونان بن مرقليوس اليوناني، وكان مسكنه [١٤٩] اليمن. واليونان هم أول من أظهر علم النجوم ووضعوا فيه كتباً وكانوا صابئين. في زمان ناخور ملك مصر ملك اسمه انطوطس اثنين وثلاثين سنة. وقيل أنه أول من أظهر علم الحساب والسحر والفاصومية. وحملت كتب هذه العلوم من بلد الكلدانيين إلى مصر. وفي زمان ناخور بنيت مدينة سدوم وعامورا في أرض كنعان، وبنيت بابلون على بحر النيل بمصر. وفي سنة سبعين لناحور بنيت مدينة دمشق أيضاً. ومات ناحور في تموز.

ثم تارح، عاش سبعين سنة، وأولد إبراهيم الخليل عليه السلام وهو في خراسان، وعاش بعد ذلك مائة وخمسة وثلاثين سنة، وأولد ناخر وهاران، وأولد هاران لوطاً، ومات هاران في حياة أبيه تارح في أرض الكلدانيين، وتوفيت أم إبراهيم، وكان اسمها يونا، فتزوج تارح امرأة أخرى اسمها يهرنب، فولدت له سارة، وهي التي تزوجها إبراهيم، ولهذا كان إبراهيم يقول: إنها أختي من أبي لا من أمي.

وفي أيام تارح غزا ملك بابل الأرض التي كان تارح مقيماً بها، فخرج إليه حصرون أخو تارح فحاربه وقتله، وبطل الملك من بابل. وفي ذلك الزمان انتقل إلى نينوى والموصل، وبعد ذلك خرج تارح من خراسان ومعه إبراهيم وناخور ولوط وأولاده ونسوانهم، وسار إلى حران وسكن بها، ومات تارح بحران في أيلول وعمره مائتا سنة وخمس سنين.

وفي ذلك الزمان ملك أفريدون خراسان وما والاها من ممالك العجم. قال زورنهار بن أسباوون في تاريخه: أن أفريدون ملك جميع ممالك العجم، فاستولى عليها خمساً وتسعين سنة، وذلك بعد انقضاء أربعمائة سنة من ملك النمرود الجبار. قال: وكان أفريدون أولاً من أكابر أهل فارس، وكان له اشتغال كثير بعلم النجامة، وأنه وقف لعطارد إذ كان عندهم صاحب [١٥٠] تدبير إقليم فارس، فصام سبع سوابيع، كل يوم إلى بعد المغرب، وكان يتغذى من نبات الأرض، ولا يأكل شيئاً من الحيوان، ولا مما

يتولد منه. قال: وبعد ذلك ظهرت له روحانية عطارد على زعمهم، وقالت له: إن عبدتموني أنت وجميع أهل[1] هذا الإقليم وسجدتم لي وقربتم القرابين وذبحتم الذبائح لي فدفعت عنكم جميع المضار والبلوى والآفات والوباء وسائر الأمراض، وجلبت لكم المطر في أوقاتها، وأرخصت أسعاركم وحفظت أولادكم، ونسوانكم ومواشيكم، ونصرتكم على أعدائكم، وبلغتكم أغراضكم في كل ما تقصدونه. قال: فاجتمع أفريدون بأكابر أهل فارس وأخبرهم بذلك، فقالوا: نريد أن نشاهد هذا الأمر، حتى نكون على يقين من الموافقة عليه والدخول فيه.

قال: وفي الليلة الثانية عادت روحانية عطارد إلى أفريدون، وقالت له: إذا كان الغد تعمل وليمة عظيمة، ويكون الخبز الذي يعمل على الخوان من الدقيق الخالص من لبّ الحنطة، ويكون ملتوتاً بالسمن والعسل[2]، ويعمل على الخوان من الحلاوات كذا وكذا، وتبني مكاناً مرتفعاً مربعاً، وتذبح عليه من الحيوانات كذا وكذا، وتجتمع أكابر المدينة ومشايخها، وأنا أظهر لكم في شعلة نار، أحرق الذبائح والقرابين، وأخاطبك بحضورهم ليطيعوك في كل ما تأمرهم به، فلما كان من الغد عمل كل ما أمر به، وجمع أكابر المدينة ومشايخها، فنزلت روحانية عطارد شبه شعلة نار، وأحرقت الذبائح والقرابين، وخاطبت أفريدون بمثل الكلام الأول، وجميعهم يسمعون، وسمعوا صوتاً خرج من النار، وقال: إن أفريدون خليفتي عليكم، فمهما أمركم بشيء تطيعونه، وتسمعون منه، فلما رأوا النار، وسمعوا الخطاب، سجد جميعهم على الأرض، وارتفعت النار، وأكلوا من تلك الذبائح والقرابين، ومما على الخوان [١٥١] من الخبز والحلوى. ومن ذلك الوقت صيّروا أفريدون ملكاً عليهم وسموه السلطان الأعظم.

قال: وكان كلما دهمهم أمر يعجزون عنه يقرب أفريدون القرابين، فتنزل روحانية عطارد عليها وتحرقها وتدفع عنهم ذلك الأمر على زعمهم. وعظم شأن أفريدون عندهم وهابوه، واستوزروا وزيراً ولقبوه خواجا هان، وتفسيره أستاذ الدنيا، وفوض إليه تدبير

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) ت: بالعسل والسمن.

دولته، فدبّرها تدبيراً حسناً، وساس الناس سياسة جميلة، ثم من بعد ذلك كان أفريدون يسير من مدينة إلى مدينة، ومن مملكة إلى مملكة، فمن أطاعه أحسن إليه وأقرّه على ما في يديه، ومن عصاه، قاتله وأخذ بلاده. واستولى على جميع ممالك العجم، واجتمع له ما يزيد على مائتي ألف فارس، وصار له من الأولاد ثلاثة وعشرون ولداً ذكوراً غير الإناث وجعل ابنه الأكبر شهرباد ولده وليّ عهده في المملكة، وبعده ولده الثاني ماهان، وبعده ولده الثالث وكذلك إلى آخرهم.

ثم إبراهيم الخليلعليه السلام، كان يعبد الله تعالى ولم يعبد معبودات الأمم، فأوحى الله تعالى إليه بأن يخرج من الأرض التي هو مقيم بها إلى الأرض التي أمره الله تعالى بالمصير إليها. فخرج من حران، وعمره خمس وسبعون سنة، وأخذ معه زوجته سارة ولوطاً ابن أخيه وجميع ماله وسار إلى أرض كنعان. وقال الله: إني أعطي نسلك هذه الأرض، وارتحل حتى نزل البرية، ووقعت مجاعة عظيمة فانحدر إلى مصر ومعه زوجته ولوط ابن أخيه ونسوانهم وغلمانهم، فأحسن إليهم فرعون، وخرجوا من مصر وارتفعوا إلى البرية، وكثرت مواشيهم فتشاجر رعاة مواشي إبراهيم مع رعاة مواشي لوط ابن أخيه، فقال إبراهيم: اعتزل عني، فانتقل لوط وسكن سدوم، وكان أهلها خطاة[(١)].

وبلغ إبراهيم أن ملوكاً دخلوا الأرض واستباحوا [١٥٢] مواشي سدوم، واستاقوا لوطاً ومواشيه، فأخذ إبراهيم غلمانه والفتيان الذين في بيوته وعدتهم ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، وسار إليهم، وقاتلهم، واسترد الجميع وعاد، فخرج إليه ملكين آداق الكاهن وتلقاه وبارك له، وأخرج إليه خبزاً وزاداً، وأدى إليه إبراهيم العشور عن جميع ما كان معه[(٢)]، وخرج ملك سدوم وتلقى إبراهيم، وقال له: ادفع إليّ الأنفس وخذ المواشي، فقال إبراهيم: قد حلفت بالله أني لا آخذ شيئاً سوى ما أكل[(٣)] الغلمان[(٤)].

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٣، الآيات ٩-١٠.

(٢) ب: العشور عما كان معه.

(٣) ب: أخذ الغلمان.

(٤) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٤.

وبعد ذلك نزل وحي الله على إبراهيم، فقال إبراهيم: ما الذي تعطيني وأنا خارج من الدنيا بغير نسل، ويرثني غلامي؟ فأوحى الله إليه لا يرثك غلامك بل ابنك الذي يخرج من صلبك. وقالت سارة لإبراهيم: إن الله قد أحرمني الولد، فادخل على أمتي هاجر لعلى اتعزى بولدها، فسمع منها إبراهيم وضاجع هاجر، فحبلت، وأردت بسيدتها، فأهانتها، فهربت، فلقيها ملك من الملائكة في البرية، وقال لها: عودي إلى سيدتك وتعبدي لها(١)، فسيكثر الله نسلك حتى لا يحصى، وستلدي ابناً اسمه إسماعيل، ويكون من نسله اثنا عشر عظيماً، فعادت إلى سيدتها وولدت إسماعيل وعمر إبراهيم حينئذ ست وثمانون سنة(٢).

ولما صار لإبراهيم تسع وتسعون سنة، أمره الله أن يختتن، فاختتن إبراهيم وختن إسماعيل ولده وعمره ثلاث عشرة سنة، وختن كل الفتيان الذين في بيوته، وبعد ذلك أوحى إليه ووعده بابن من سارة(٣).

وفي ذلك الوقت أرسل الله ملكين إلى سدوم وعامورا، فأخرجا لوطاً وابنته وزوجته، وأنزل الله ناراً وكبريتاً فأهلك سدوم وعامورا، فسمعت امرأة لوط الصراخ من خلفها، فالتفتت، فصارت ملحاً(٤).

ولما تكامل لإبراهيم مائة سنة ولد له إسحاق من سارة زوجته، وختنه في اليوم الثامن، ونظرت سارة إسماعيل كأنه يهزأ [١٥٣] بإسحاق ولدها، فقالت لإبراهيم: أخرج الأمة وابنها، فإن ابنها لا يرث مع ابني. فأخرجهما إبراهيم إلى أرض الحجاز، فسكن إسماعيل هناك وتزوج من نساء العرب الحجازيات وتكلم بالعربية وولد له من نساء العرب اثنا عشر عظيماً، وهم أفخاذ قيس، وكثر نسله جداً، وسكن إبراهيم أرض فلسطين(٥).

---

(١) ساقطة من ت.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٥ ـ ١٦.

(٣) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٧، الآية ١٨.

(٤) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ١٨، الآية ١٦.

(٥) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢١، الآيات ١ ـ ٢١.

ومن المختصر الكبير لأبي شامة رحمه الله تعالى[1]: قال أبو إسحاق: حدثني أبو الأحوص عن عبدالله قال: خرج قوم إبراهيم إلى عيد لهم، فمروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا، فقال: أني سقيم، وقد كان قال قبل ذلك ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[2]، فسمعه إنسان منهم، فلما خرجوا إلى عيدهم، انطلق إلى أهله، فأخذ طعاماً، ثم انطلق إلى آلهتهم، فقر به إليه، فقال: ألا تأكلون، مالكم لا تنطقون؟! فراغ عليهم ضرباً باليمين[3] فكسرها إلَّا كبيراً لهم[4] ثم ربط في يده الفأس الذي كسر به آلهتهم، فلما رجع القوم من عيدهم، دخلوا فإذا هم بآلهتهم قد كسرت، وإذا كبيرهم في يده الفأس الذي كسر به الأصنام، ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5] فقال الذين سمعوا إبراهيم بالأمس يقول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[6]. ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[7] فذكر ما قصّ الله تعالى في القرآن من قصة، قال: فجمعوا له الحطب، ثم طرحوه وسطه، ثم أشعلوا النار عليه، فقال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[8].

قال أبو إسحاق: فسمعت سليمان بن صرد يقول: لما جاءوا ينظرون إليه، فإذا النار لم تصب منه شيئاً. قال أبو لوط عند ذلك وهو عمه: أنا صرفتها عنه، فأرسل الله عنقا منها[9] فأحرقته، فتركته حممة، وهذا هو الصحيح أنه عمه، وقد تقدم أن لوطاً ابن أخيه[10].

---

(١) المختصر لأبي شامة: هو مختصر لكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر اختصره العلامة المقدسي أبو شامة والمختصر غير مطبوع.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٥٧.

(٣) «ضرباً باليمين» ساقطة من ت.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٥٨.

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٥٧.

(٧) سورة الأنبياء، الآية ٦٠.

(٨) سورة الأنبياء، الآية ٦٩. والخبر في ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨١/٦.

(٩) ب: منه.

(١٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨١/٦ ـ ١٨٢.

ومن مختصر أبي شامة قال إسحاق بن [١٥٤] بشر، قال مقاتل وسعيد: أول من اتخذ المنجنيق نمرود، وذلك أن إبليس جاءهم لما لم يستطيعوا أن يدنوا من النار، قال: أنا أدلكم، فاتخذ لهم المنجنيق، وجيء بإبراهيم، فخلعوا ثيابه، وشدوا قماطه، فوضع في المنجنيق، فلما رمي استقبله جبريل بين المنجنيق والنار، وقال: السلام عليك يا إبراهيم أنا جبريل، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، حاجتي إلى الله ربي، فلما أن قذف سبقه إسرافيل فسلط النار على قماطه. وقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرۡدٗا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[١]. وأنبت الله حوله روضة خضراء، وبسط له بساطاً من درنوك الجنة، وأتى بقميص من حلل الجنة، وأجرى عليه الرزق غدوة، وعشيا، إسرافيل عن يمينه، وجبريل عن يساره[٢].

وقال سفيان: أوحى الله إلى النار[٣] لئن نلت من إبراهيم أكثر من حل[٤] وثاقه، لأعذبك عذاباً لا أعذبه أحداً من خلقي[٥].

وعن بكر بن عبدالله المزني قال: لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار، ضجت عليه عامة الخليقة إلى ربها، وقالوا: يا رب خليلك يلقى في النار، أئذن لنا فنطفئ عنه. فقال جل وعز: خليلي ليس لي خليل غيره في الأرض، وأنا الله ليس له آله غيري، فإن استعان بكم فأعينوه، وإلا فدعوه. فلما أن ألقي في النار، قال الله: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرۡدٗا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[٦]. قال: فبردت النار يومئذ على أهل المشرق والمغرب، فلم ينضج بها كراع. ولما أخرج الله إبراهيم من النار زاده في حسنه وجماله سبعين ضعفاً[٧].

وحين ألقي إبراهيم في النار، قالت أمة: لقد كان ابني يقول إن له رباً يمنعه، وأراه

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.
(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨٢/٦.
(٣) «أوحى الله إلى النار» ساقطة من ت.
(٤) ت: حبل.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨٣/٦.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.
(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨٤/٦.

يلقى في النار فما ينفعه، وأني مطلعة على النار، أنظر إلى ابني ما فعل، فعملت لها سلماً فأبصرت إبراهيم في وسط النار، فنادته، فقال: ألا ترين ما صنع الله بي؟! قالت: فادع إلهك أن [١٥٥] يجعل لي طريقاً، ففعل فنزلت إليه فضمته وقبلته(١).

وعن علي بن أبي طالب قال: كانت البغال تتناسل، وكانت أسرع الدواب في نقل الحطب لتحرق إبراهيم، فدعى عليها فقطع الله أرحامها ونسلها، وكانت الضفادع مساكنها القفار فجعلت تطفئ النار عن إبراهيم فدعا لها فأنزلها الماء، وكانت الأوزاغ تنفخ عليه النار، وكانت أحسن الدواب فلعنها، فمن قتل منها شيئاً أجرّ(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: لما ألقي إبراهيم في النار، جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه. فكان عند عائشة رضي الله عنها رمح طويل منصوب تقتل به الأوزاغ(٣).

وعن ابن جريج عن عطاء قال: قيل(٤) لابن عباس بعد أن عميَّ: هذا وزغ، فقال: أرشدوني إليه فضربه. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من قتل وزغة كتب له عشر حسنات، ومحيت عنه عشر سيئات، ورفعت له عشر درجات. فقيل له: يا رسول الله ماله؟ قال: أنه أعان على إبراهيم حين أوقدت النار عليه(٥).

وعن أنس عن(٦) النبي ﷺ قال: لما ألقي إبراهيم في النار، نزل عليه جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة، فألبسه القميص، وأقعده على الطنفسة، وقعد معه يحدثه، فأوحى الله تعالى إلى النار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. ولولا أنه قال وسلاما، لآذاه البرد وقتله، فرأى إبراهيم بعد ستة أيام في المنام أن إبراهيم خرج الذي أوقد عليه

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/١٨٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/١٨٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/١٨٥ ـ ١٨٦.

(٤) ساقطة من ت.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٦) «أنس عن» ساقطة من ت.

فطلب، فلم يقدر عليه، فأتى نمرود فقال: أئذن لي لإخراج عظام إبراهيم من الحائط وأدفنها، فانطلق نمرود إلى الحائط ومعه الناس، فأمر بالحائط، فنقب، فإذا إبراهيم في روضة تهتز وثيابه تندى على طنفسة من طنافس الجنة(١).

وفي رواية: فخرج جبريل [١٥٦] في وجوههم فولوا هاربين، فتبلبلوا عند ذلك اليوم سميت بابل. قال: وكانت الألسن كلها بالسريانية، فتفرقوا، فصارت اثنين وسبعين لغة، فلم يعرف الرجل كلام صاحبه. وقد تقدم لنا عند حكاية بناية(٢) البرج بلبلة الألسن وهو مخالف لما هنا والله أعلم(٣).

قال أبو يعقوب النهرجوري في معنى قوله حين قال له جبريل وهو في الهواء إذا رمي من المنجنيق ألك حاجة؟ فقال له: أما إليك فلا، هذا هو التوكل على كمال الحقيقة وقع لإبراهيم خليل الرحمن في تلك الحال، لأنه عاتب نفسه بالله، فلم ير مع الله غير الله، فكان ذهابه من الله إلى الله بلا واسطة. وهو من غلبات التوحيد، وإظهار القدرة لخليله إبراهيم عليه السلام.

وعن ابن عباس قال: لما هرب إبراهيم من كوثى، وخرج من النار ولسانه يومئذ سرياني، فلما عبر الفرات من حران، غيّر الله لسانه، فقيل عبراني حين عبر الفرات، وبعث نمرود في أثره، وقال: لا تدعوا أحداً يتكلم بالسريانية إلا جئتموني به، فلقوا إبراهيم يتكلم بالعبرانية فتركوه، ولم يعرفوا لغته(٤).

وعن النبي ﷺ قال: اختتن إبراهيم بعدما مرت عليه ثمانون سنة، اختتن بالقدوم. قال عبدالرزاق: القدوم اسم قرية، وقال غيره القدوم الفأس(٥).

وعن موسى بن علي عن أبيه قال: أُمر إبراهيم أن يختتن، فعجل، فاختتن بقدوم،

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨٨/٦.

(٢) ساقطة من ت.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٨٧/٦ - ١٨٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٩٤/٦.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٩٦/٦ - ١٩٧.

فاشتد عليه، فأوحى الله إليه: عجلت قبل أن آمرك بالته. قال: يا رب كرهت أن أوخر أمرك(١).

قال: وختن إسماعيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وختن إسحاق وهو ابن سبعة أيام(٢).

وأول من رأى الشيب، فقال: يا رب ما هذا الشيب؟ قال: الوقار. قال: يا رب زدني وقاراً. وكان أول من أضاف الضيف، وأول من جزّ شاربه، وأول من قصّ [١٥٧] أظفاره، وأول من استحد، وجاء أيضاً أنه أول من لبس السراويل(٣).

وقد اختلف الناس في أي الولدين أُمر إبراهيم بذبحه، إسماعيل أم إسحاق. قال كعب: لما خرج إبراهيم بابنه ليذبحه، دخل الشيطان على سارة، فقال: أين يذهب إبراهيم بابنه قالت: غدا به لبعض حاجته. فقال: إنما ذهب له ليذبحه. قالت: ولما يذبحه. قال: زعم أنه ربه عز وجل أمره بذلك. قالت: فقد أحسن يطيع ربه، فخرج الشيطان في أثرهما، فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. فقال: لكنه يذهب بك ليذبحك، يزعم أن ربه عز وجل أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. فيئس الشيطان منه فتركه. قال ابن عباس: ولما أراد إبراهيم أن يذبح إسحاق، قال له: أوثقني لئلا أضطرب فينتضح عليك دمي إذا ذبحتني، فشده، فلما أخذ الشفرة فأراد أن يذبحه نودي من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾(٤)، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أقرن أعين أبيض فذبحه(٥).

وعن علي بن أبي طلحة عن رسول الله ﷺ قال: أن الله تبارك وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام أن أذن في الناس بالحج، فقام على الحجر فمنهم من قال: ارتفع حتى بلغ

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٩٧/٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٠١/٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٩٩/٦، ٢٠١.

(٤) سورة الصافات، الآية ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٠٣/٦.

الهواء. فقال: يا أيها الناس أن الله يأمركم بالحج، فأجابه من كان مخلوقاً في الأرض يومئذ، ومن كان في أرحام النساء، ومن كان في أصلاب الرجال، ومن كان في البحور، فقال: لبيك اللهم لبيك، فمن لبّى اليوم فهو ممن لبى يومئذ، وممن أجاب يومئذ[١].

وقال ابن عباس: أن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، وموسى بالكلام ومحمداً بالرؤية صلى الله عليهم أجمعين[٢].

وفي بعض الكتب التي أنزلت من السماء أن الله قال لإبراهيم: أتدري لما اتخذتك خليلاً؟ قال: لا يا رب. قال: لذل مقامك بين يدي في الصلاة[٣].

وعن ابن عباس قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً وتبناه وله يومئذ ثلاثمائة عبد [١٥٨] أعتقهم[٤]، فأسلموا وكانوا يقاتلون معه بالعصى، فهم أول موالٍ قاتلوا مع مولاهم[٥].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قال: أن الكريم ابن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن[٦].

وعن عبيد بن عمير قال: قال موسى عليه السلام: أني ذكرت إبراهيم وإسحاق ويعقوب بم[٧] أعطيتهم ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلّا اختارني عليه. وإن إسحاق جاد لي بنفسه، فهو بما سواه أجود، وإن يعقوب لم أبتله ببلاء إلّا ازداد بي حسن ظن[٨].

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٠٦/٦.
(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢١٦/٦.
(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢١٨/٦.
(٤) ت: اعتقتهم.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢١٩/٦.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٢١/٦.
(٧) ب: ثم.
(٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٢٣/٦.

وعن عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر[١].

وقال أبو هريرة: كان إبراهيم يزور ابنه إسماعيل على البراق، وهي دابة جبريل تضع حافرها حيث ينتهي طرفها، وهي الدابة التي ركبها الرسول ﷺ ليلة أسرى به[٢].

وقال عطاء: كان إبراهيم خليل الرحمن إذا أراد أن يتغدى طلب من يتغدى معه ميلاً في ميل. قال عطاء: أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي[٣].

وكان إبراهيم عليه السلام يطعم طعامه، فإذا أكلوا قال: هاتوا ثمنه. فيقولون: ما ثمنه؟ قال تحمدون الله عليه[٤].

قال الحسين بن منصور: كنت مع أبي أحمد محمد بن عبدالوهاب، فسألته عن هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾[٥]. فقال: رحم الله علي بن عباد، دعاني يوماً إلى منزله، فجعل يصب الماء بنفسه عليّ ويخدمني في جلالته وهيبته. فقلت: يا أبا الحسن، أنت بنفسك. فقال: حدثني أبو أسامة عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤﴾. قال: كان إبراهيم يتولى خدمتهم بنفسه[٦]. وقيل كان إبراهيم لا يرفع طرفه إلى السماء إلا اختلاساً ويقول: اللهم نعمّ عيشي في الدنيا بطول الحزن فيها[٧].

وعن ابن عمر أن الله تعالى [١٥٩] قال: يا جبريل، خذ ريحانة من الجنة فانطلق

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/٢٢٥.
(٢) «به» ساقط من ب والخبر في ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/٢٢٩.
(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/٢٢٩.
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/٢٤٠.
(٥) سورة الذاريات، الآية ٢٤.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/٢٤٠ ـ ٢٤١.
(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٦/٢٤٢.

بها مع ملك الموت إلى إبراهيم وحيّه بها، وقل له: الخليل إذا طال به العهد إلى خليله اشتاق إليه، وأنت خليل، أما تشتاق إلى خليلك. فأتاه، وبلغه رسالة ربه، ودفع إليه الريحانة. فقال: نعم يا رب، قد اشتقت إلى لقائك، فشم الريحانة، فقبض فيها. وقيل أتاه ملك الموت في منامه فقبضه[1].

وقيل إنه أصيب على قبره مكتوب خلفه في حجر:

إلــــهي جـــهـــولاً أمـــلـــه	يـــمـــوت مـــن جـــاء أجـــلـــه
ومـــن دنـــا مـــن حـــتـــفـــه	لـــم تـــغـــن عـــنـــه حـــيـــلـــه
وكـــيـــف يـــبـــقـــى آخـــر	قـــد مـــات عـــنـــه أولـــه
والـــمـــرء لا يـــصـــحـــبـــه	فـــي الـــقـــبـــر إلا عـــمـــلـــه

ومات إبراهيم وهو ابن مائتي سنة، وقيل عاش مائة سنة وخمسة وتسعين سنة[2]. انتهى ما نقل من المختصر الكبير لأبي شامة.

ولنرجع إلى الكلام الذي قبله إذ فيه زيادة. فقال: وأما سارة، فإنها جزعت جزعاً شديداً عندما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه، فمرضت وماتت، وعمرها مائة وسبعة وعشرون سنة، ودفنها إبراهيم في الحقل الذي اشتراه من عفرون الحثي بأربعمائة مثقال فضة[3].

وتزوج إبراهيم بعدها قنطوراً بنت ملك الربدة، وأولد منها أولاداً جبابرة، وحار إبراهيم وأخرجهم إلى المشرق[4].

واستحلف إبراهيم عبده أنه لا يزوج ابنه إسحاق من بنات الكنعانيين، بل يمضي إلى حران ويأخذ له زوجة من آل أبيه[5]. وحين مات إبراهيمعليه السلام، اجتمع إسحاق

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٥٦/٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٥٨/٦.

(٣) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٣، الآية ١.

(٤) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٥، الآيات ١ ـ ٧.

(٥) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٤.

وإسماعيل وحنطا إبراهيم، ودفناه في المغارة المصاعفة التي في حقل عفرون الحثي. وهو الآن يسمى مدينة الخليل عليه السلام[1].

وكان كمرش[2] الملك في عصر إبراهيم وهو الذي بنى صميصات وقلوديا [١٦٠] وفي ذلك الزمان ملكت امرأة اسمها جرابيب بنت كاهن الجبل، وبنت نصيبين والرها، وبنت في حران هيكلاً عظيماً، وعملت فيه صنماً باسم نصيبين، وأمرت الناس بالسجود له، فسجدوا له وعبدوه خمسين سنة، ثم أحرقت حران والهيكل والصنم بعد ذلك.

ثم **إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام**، ولما صار لإسحاق أربعون سنة مضى غلام أبيه إلى حران ليأخذ له زوجة من آل أبيه، لوصية إبراهيم له. وأناخ إبله عند بئر الماء، وقال: اللهم أنعم على سيدي إبراهيم، والفتاة التي أقول لها ناوليني جرتك لأشرب منها، فتقول: اشرب واسقِ إبلك، هي تكون زوجة إسحاق، فقبل أن يفرغ من كلامه إذا بنت أقبلت اسمها رفقا، والجرة على كتفها، وكانت بكراً جميلة المنظر جداً، فقال لها: اسقيني. فقالت له: اشرب واسق إبلك، فلما شرب هو وإبله، ناولها أقرطة ذهب، وصيّر في يديها سوارين، وقال لها: بنت من أنت؟ فقالت: أنا بنت ينويل بن ملكا المولود، لماحور أخو إبراهيم، فسجد الغلام لله تعالى، ومضى معها إلى بيت أبيها، فأخبرت أهلها خبر الغلام، فخرج أبوها ولابان أخوها وأولادهم إليه، وأنزلوه، وأكرموه، فعرّفهم سبب قدومه عليهم، والتمس منهم زيجة رفقا لإسحاق، فأجابوه إلى ذلك، فأعطاهم ذهباً وحلياً، فأرسلوها معه ومعها جوارها، وكلما لها، فأخذها الغلام، وتوجه نحو سيده وخرج إسحاق يتمشى عند الحقل ممسياً، فرآهم، ورأته رفقا أيضاً، وقالت للغلام: من هو هذا؟ قال: هذا سيدي. فاستترت برداء، وأدخلها إسحاق إلى منزل سارة أمه، وتزوجها وعمره حينئذ أربعون سنة[3].

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٥، الآية ٩.

(٢) ب: كرش.

(٣) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٤.

وكانت رفقا زوجة إسحاق عاقراً فدعا إلى الله، فاستجاب له، فولدت له عيصو ويعقوب في بطن واحدة وعمره حينئذ ستون سنة(١).

وكبر أولاده، وكبر إسحاق، فقال لعيصو: قد شخت [١٦١] فاصنع لي طعاماً من صيدك، وأتني به لآكل وأبارك عليك قبل وفاتي، فسمعت رفقاً، وكانت تحب يعقوب أكثر، فقالت ليعقوب: يا بني، أتني بجديين من الغنم لاتخذ منهما طعاماً لأبيك، ليأكل منه ويدعو لك، فقال لأمه: أن أخي ذو شعر وأنا أجرد يحسني، فينزل بي اللعنات بدل البركات، فقالت: لعناتك عليّ يا ولدي، فأحضر لها جديين، فعملت منهما طعاماً يحبه إسحاق، وألبست يعقوب ثياب عيصو، وعملت جلود المعز على ذراعيه وعنقه، وأدخل الطعام إلى أبيه فأكل منه، وقال: الصوت صوت يعقوب، والمجس مجس عيصو، فدعا له وجعله رئيساً على شعبه، وبعد ذلك أتى عيصو بالطعام الذي صنعه من صيده وقدمه لأبيه ليأكله، فعرّفه ما كان من أخيه يعقوب فبكى بكاءً شديداً وقال: يا أبة ولا دعوة واحدة تركت لي؟ قال: قد جعلته رئيساً عليك وعلى شعبه، فبغض عيصو يعقوب، واستوعده بالقتل، فأرسلته رفقا أمه إلى أخيها لابان إلى حران. ومات إسماعيل بن إبراهيم وعمره مائة وتسعة وعشرون سنة. وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة. ومات في شهر أيار في مائة وعشرين سنة من حياة يعقوب، ودفنه أولاده في المغارة التي دفن بها إبراهيم بمدينة الخليل(٢).

وفي أيام إسحاق بنيت أريحا، بناها سبع ملوك، وعمل كل واحد منهم(٣) سوراً وفي ذلك الزمان مات افريدون صاحب العجم وعمره مائة وأربعون سنة، منها قبل أنه يملك خمس وأربعون سنة، وبعد أن ملك خمس وتسعون سنة، ورأى أولاد أولاده إلى خمسة أحقاب. وكانت وفاته لتمام أربعمائة وخمس وتسعون سنة من مملكة النمرود الجبار ودفن في مدينة خراسان. وملك بعده ولده شهريار على جميع ممالك العجم ثلاثاً

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٥، الآيات ١٩ ـ ٢٣.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٧.

(٣) ت: منهما.

وتسعين سنة، وسار سيرة أبيه [١٦٢] أفريدون، وأحسن إلى الرعايا، وعدل فيهم وأجزل العطايا لأكابر مملكته. وفي السنة الثانية من ملكه مات وزير والده، فاستوزر ولده بهمن، ولقبه بلقب أبيه خواجا جهان، وفوض إليه تدبير دولته، فدبرها تدبيراً جميلاً، وأحسن السياسة وأجرى الناس على أحسن حال، وصار لشهريار أولاداً كثيرة.

قال روزنهار في تاريخه: أن شهريار لما رأى أكبر أولاده قد أخذ حد الرجال، وأن عنده شهامة وصرامة أراد أن يخلع أخاه ماهان من ولاية العهد، ويجعلها في ولده الكبير، وكان اسمه اسفنديار، والتمس ذلك من أخيه ماهان، فلم يوافقه، فتغير عليه تغيراً كثيراً، فلما رأى ماهان أن أخاه شهريار قد تغير عليه خاف على نفسه، فأخذ أخوته وغلمانه وما خف من أمواله وخرج على أنه يتصيد، فانهزم إلى بخارى ودخلها واستولى عليها وعلى بلادها، وتبعه جماعة كبيرة ممن كان يتهاواه ويميل إليه من عسكر أخيه، وكان كل من عليه دم أو تهمه قتل أو يخاف على نفسه شيئاً ينهزم إليه، فاجتمع عنده عسكر كبير، فشق هذا الأمر على السلطان شهريار ورآه أمراً عظيماً، فأرسل إلى أخيه ماهان، فطلبه أن يحضر إليه ولا يكلفه أن يخلع نفسه من ولاية العهد، وبذل له الأموال وما يختار من البلاد، فلم يفعل، فجهز له عسكراً كبيراً ليحضر إليه غصباً فخرج ماهان إليهم والتقاهم وهم على ضعف من أثر الطريق، فقاتلهم وكسرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ جميع ما كان معهم من الدواب والأسلحة والأمتعة، وغنم أصحابه منهم غنائم كثيرة، وهرب بعضهم إلى السلطان شهريار، فأخبره بذلك، فاشتد هذا الأمر عليه ثم جهز عسكراً ثانياً أكثر من الأول، وقدم عليه رجلاً من الأساورة اسمه قابوس، وكان من المحبين لماهان باطناً، فلما قرب منه اتفق [١٦٣] مع الجيش الذي معه بأن يدخلوا في طاعة ماهان وتسلم أنفسهم وأموالهم، فأرسل إليه وعرفه بذلك، وطلب منه أماناً له ولمن معه، فخاف ماهان أن تكون مكيدة، فأرسل إليه أحد إخوته ومعه الأمان، فلما توثق كل واحد منهما من الآخر، مضى قابوس بمن معه إلى خدمة ماهان فتلقاهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال والخلع، فلما بلغ ذلك السلطان شهريار، خاف خوفاً عظيماً، واستدعى أكابر مملكته وشاورهم في الأمر، فقالوا له: أنت تعلم أن مسافة بخارى بعيدة، وطرقاتها مشقة وفيها جبال وعرة وكل من يسير إليها لا يصل إلا عن ضعف كثير، فيلقاهم أخوك

وهو مستريح فيكسرهم، فكأنك تضني عسكرك وتتلفه، ولا تحصل على مقصود، والذي نراه أن تتركه في تلك الناحية ولا ترسل إليه أحداً، فوافقهم على ذلك في الظاهر، وفكر في نفسه في مكيدة يعملها بأخيه ماهان ليهلكه فاستحضر رجلاً عاقلاً عارفاً كان يثق به، فتحدث معه بأن يمضي إلى أخيه، وأعطاه سماً قاتلاً، وأوصاه بأن يتحيل ويسم أخاه، ووعده مواعيد جميلة إن هو فعل ذلك. فمضى وأظهر أنه قد فارق خدمة السلطان شهريار، فلما وصل إلى ماهان، أقبل عليه وقربه وأدناه، فلم يزل يستقري الأحوال على مهل إلى أن بلغه إلى شراب سلار الذي لماهان واحداً عليه، فاجتمع به وتحدث معه فوجده موغر الصدر عليه، فلطف به ولازمه، وأهدى إليه الهدايا الجميلة والتحف السنية، وصار يأكل معه ويشرب، فتحدث معه على الشراب فيما قدم لأجله فوافقه، فلما توثق منه أعطاه السم الذي معه، فأخذه شراب سلار، وخلطه في شراب ماهان، وسقاه، فمات لوقته، فاجتمع أكابر دولته وملكوا ولده ماكان، ويقال مهكان عوضه، وعاد الرجل الذي احتال على ماهان، فأخبره بالقصة، فسر بذلك [١٦٤] سروراً كثيراً ووفى له بما كان وعده.

ولما بلغ يعقوب أن أخاه عيصو يريد قتله، خاف، فأرسلته أمه رفقا إلى أخيها لابان إلى حران، فتوجه نحوها ونام في بعض الطريق إلى الصخرة التي ببرق شايم، فرأى في منامه رؤيا فنذر وقال: أن الله كان يحفظني في هذه الطريق، ويعطيني خبزاً لمأكلي وثوباً لملبسي وأرجع بسلام إلى بيت أبي، فأنا أعبده حق عبادته، وهذه الصخرة تكون بيت الله، وأعشر له كلما أملك، فانطلق إلى حران، فاستقبله لابان خاله، وخرج به وأدخله منزله، ورأى راحيل بنت خاله وكانت جميلة المنظر فطلبها من أبيها، فقال له: تخدمني سبع سنين وأزوجك راحيل، فخدمه سبع سنين فزوجه ليا أختها الكبيرة وكانت عمشاء، فقال لخاله: قد غدرت بي، فقال له لابان: نحن عندنا لا نزوج الصغيرة قبل الكبيرة، بل أخدمني سبع سنين أخرى أزوجك براحيل، فخدمه سبع سنين أخرى وزوجه براحيل، ثم تقرر بعد ذلك يخدمه بأجرته، وهي كل أسود في الضأن، وأحمر وأبلق في المعز، فصارت له مواشٍ كثيرة، فقال أولاد لابان: أن هذا جميعه اكتسبه من مال أبينا، ورأى وجه لايان خاله متغيراً، فأخذ نسوانه وأولاده وماشيته ورجع إلى أرضه، فسمع

عيصوا بقدومه، فركب واستقبله فخاف يعقوب خوفاً كثيراً، فجهز له هدايا كثيرة، وقسّم أولاده ونسوانه وماشيته قسمين، فأرسل كل قسم منهما في طريق، وقال: إن أخذ أخي القسم الواحد، بقي لي القسم الآخر، فأخذ عيصو الهدية ولم يأخذ غيرها، واستقبله وعانقه وبكيا. وبعد ذلك رأى يعقوب رؤيا في المنام، وقيل له: لا يكون اسمك يعقوب فيما بعد بل إسرائيل. وكان عدة أولاده اثني عشر ذكراً وبنتاً واحدة، وهم بنوليا بكر يعقوب وشمعون ولاوي ويهوذا ويستاخر وزابلون وبنت واحدة اسمها دنيا [١٦٥] وبنو راحيل، يوسف وبنيامين، وبنوبلها امتهادان ونفتالي، وبنو زلقا أمة لياكاد وأشير[١]. وهؤلاء الاثنا عشر هم الأسباط، وكل بني إسرائيل من نسلهم[٢].

وكان يعقوب يحب ولده يوسف أكثر من أولاده جميعهم، ورأى يوسف في منامه كأنه وأخوته في الزرع يحزمون حزماً وأن حزمته انتصبت، وسجدت له حزم أخوته، ثم رأى رؤية ثانية كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون له، وأخبر أباه وإخوته، فزجره أباه، وقال له: نسجد لك أنا وأمك وأخوتك، فحسده أخوته، وأرادوا قتله ثم اتفقوا على بيعه، فباعوه للعرب الرحالة بعشرين مثقالاً، وقيل غير ذلك. فمضوا به إلى مصر وباعوه لفوطيفور صاحب شرطة فرعون، فأحبته امرأة سيده، وطلبت منه أن يضاجعها فامتنع، وكذبت عليه، وقالت لسيده: أن هذا الغلام يراودني عن نفسي، فحبسه سيده[٣].

وبعد سنين كثيرة حبس فرعون رئيس السقاة ورئيس الخبازين، فرأى رئيس السقاة في نومه كأن في يده كرمة وقد أظلت منها ثلاثة عناقيد عنباً، وأنه اعتصرها في كأس فرعون وناوله لفرعون، فأخبر يوسف بالمنام، فقال له: بعد ثلاثة أيام يكون كما رأيت، فاذكرني عند ربك فرعون. ثم رأى رئيس الخبازين كأن على رأسه ثلاثة أطباق فيها من خبز فرعون وطعامه والطير تأكل منه، فقال له يوسف: بعد ثلاثة أيام تصلب ويأكل الطير من لحمك، فكان كذلك وقال بعضهم: كل واحد منهما رأى منام الآخر وتقايضاه، فلما

---

(١) ب: يشير.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٢٨.

(٣) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٣٧ ـ ٣٩، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٣٤١/١ ـ ٣٤٩.

علما تفسيره، أراد الساقي الرجوع، فقال له يوسف عليه السلام: قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان، فأصاب كل واحد تفسير المنام الذي أراد، وإن كان إنما رآه صاحبه[1].

وبعد ذلك بسنين رأى فرعون مناماً، ولم يجد من يفسره، فأخبره رئيس السقاة بما كان منه ومن رئيس الخبازين [١٦٦] وتعبير يوسف لهما المنامين، فاستحضره فرعون وقال له: إني رأيت سبع بقرات سمان صعدن من البحر وبعدهن صعدت سبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، ورأيت أيضاً سبع سنابل خضر وسبع سنابل يابسات، فقال له يوسف: أما البقرات السمان فإنها سبع سنين خصباً تأتي، والبقرات السبع العجاف سنين قحطاً تأتي على الأرض بعدها، وكذلك السنابل أيضاً، والرؤيا واحدة والتعبير واحد. فلتنظر في رجل حكيم توليه أرض مصر ليجمع غلات السنين المخصبة لأيام السنين المقحطة.

فقال فرعون لخاصته: وأين يوجد مثل هذا الرجل؟ فقال: اجعلني على خزائن الأرض أني حفيظ عليم. أراد بخزائن الأرض غلالها. وقلّد فرعون يوسف تدبير مملكته، وأعطاه خاتمه، وقال: إني لا أتميز عليك إلّا بالمنبر خاصة. وكان عمر يوسف يومئذ ثلاثين سنة، فجمع يوسف غلات سني الخصب، وخزنها في سنبلها حتى ضاقت الأهراء والمخازن. وزوجة فرعون باسياء بنت قوطيفور، فولدت له غلامين، فسمي الأكبر منشا والآخر أفرام. وبعد ذلك وقع بالشام مجاعة شديدة، فقال يعقوب لأولاده: اهبطوا مصر وابتاعوا لنا قمحاً، فأقبل أخوة يوسف إلى مصر، ووقفوا بين يديه، وسجدوا له، فعرفهم يوسف ولم يعرفوه، ولم يكن بنيامين أخوه لأمه معهم، فأراد يوسف أن يستخبرهم عن أبيه وأخيه بحيث لا يعرفونه، فقال لهم: أنتم جواسيس، فقالوا: لا يا سيدنا بل، نحن أولاد يعقوب، وكنا اثني عشر رجلاً، فأكل الذئب أحدنا، وبقي أخوه لأمه عند أبيه، فإنه شيخ كبير، وهو شديد الحزن على ابنه الذي فقده، فقال لهم يوسف: إن كنتم صادقين فيبقى أحدكم عندي، وارجعوا إلى أبيكم وأتوني بأخيكم الصغير، فأمسك شمعون واعتقله عنده، وأمر أن تملأ أوعيتهم قمحاً ويجعل الثمن في [١٦٧] أوعيتهم من حيث

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٤١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٣٥٩/١ - ٣٦٧.

لا يعلمون، وفعل كما أمر، فلما وصلوا إلى أبيهم يعقوب أعلموه بجميع ذلك، ووجدوا الثمن في أوعيتهم، فلما سمع يعقوب كلامهم حزن حزناً شديداً وقال لهم: قد فقدت يوسف، وهذا شمعون لم أره معكم، وتريدون أن تثكلوني في بنيامين أيضاً، فلما ذا أعلمتموه أن لكم أخاً آخر، قالوا: هو سألنا عنك، فأعلمناه بالحال جميعه، فلما فرغ قمحهم قال لهم يعقوب: اهبطوا مصر واشتروا قمحاً، فأخذوا بنيامين معهم، وأخذوا الثمن مضاعفاً، وأخذوا معهم من هدية البلاد، وساروا إلى مصر، ودخلوا قدام يوسف فسجدوا بين يديه، فلما رأى بنيامين أخاه معهم، أمر بإكرامهم، وصنع لهم طعاماً، وأمر أن تملأ أوعيتهم قمحاً عند انصرافهم، وتجعل الطاس الفضة التي ليوسف في وعاء بنيامين. فلما خرجوا من عنده متوجهين أمر يوسف غلمانه يلحقوهم، ويقولوا لهم ماذا فعل سيدنا معكم من الأذى حتى تأخذوا الطاس الفضة الذي له، فقالوا: من وُجد معه يكون عبداً لسيدكم، فوجدوه في وعاء بنيامين، فأخذه الغلمان، ورجعوا به، ورجع أخوته معه جميعهم، فوقفوا قدام يوسف، وقالوا: يا سيدنا، إن أبانا شيخ كبير، وأخو هذا أكله الذئب كما عرفناك، وأبوه يبكي إلى الآن، ومتى أخذت هذا فهو يموت حسرة عليه، فخذ أحدنا مكانه عبداً، وأطلقه، فعند ذلك بكى يوسف، وعرفهم بنفسه وعرف فرعون بذلك، فوجه القباب والعجل فحمل يعقوب وكل نسله إلى مصر، وأوصى الله إلى يعقوب أن اهبط إلى مصر، فدخل يعقوب إلى مصر في السنة الثانية من المجاعة، وكان ليعقوب حين دخل إلى مصر، ووقف بين يدي فرعون مائة وثلاثون سنة، وعدة أولاده الذين دخلوا إلى مصر سبعون رجلاً غير النسوان، وأقام يعقوب بمصر سبع عشرة سنة، فأعطاهم فرعون أرض وعمسين [١٦٨] وهي عين شمس[١].

ومات يعقوب وعمره مائة وسبعة وأربعون سنة، وحمله يوسف وأخوته إلى أرض كنعان، ودفنوه عند أبيه إبراهيم وإسحاق في المغارة التي بالخليل، وناح المصريون عليه سبعين يوماً، ورجع يوسف وأخوته، ومن كان صعد معه من المصريين إلى أرض مصر[٢].

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٤٣ ـ ٤٦.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الإصحاح ٤٩، الآية ٢٨.

وبنى يوسف مقياساً في منف يقاس فيه الماء عند زيادة النيل بمصر، وحفر الخليج الذي يعرف بالمنهى، وبنى اللاهون بالفيوم، وبنى الحجارة التي تدور بالماء في بلد الفيوم وهي إلى الآن.

وحكي أن السجان قال ليوسف عليه السلام لما أتى به: من أنت؟ قال له: ولم تسألني من أنا؟ قال: لأني أحبك، قال: لا حاجة لي بحب أحد إلا في حب إلهي الذي في السماء. قال: أخبرني من أنت؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله. قال: وما بالك لا تحب أن يحبك أحد؟ قال: أنه ما أحبني أحد إلا نالني منه بلاء، أحبني أبي يعقوب فنالني منه ما نالني من أجله، وأحبتني عمتي وهي أكبر ولد جدي إسحاق، وكنت عندها على سبيل الحضانة لحبها إياي، فأراد أبي يعقوب أن يستردني منها إذ كان لا اصطبار له عني، فسألته تركي عندها أياماً لتستوفي حظها من رؤيتي والنظر إليّ، فأبى أبي يعقوب، فلما أرادت الرجوع إلى عنده، احتالت العمة من فرط حبها إياي، وعمدت إلى منطقة إسحاق ودستها في ثيابي ثم ولولت وقالت: انظروا من أخذها، وفاز بها فوجدوها في ثيابي، وكانت الحكومة في السرقة في ذلك الزمان استرقاق السارق غير مدافع ولا منازع فيه، فادعت العمة رقبتي، وقالت: أصنع به ما أشاء، فأتاها يعقوب وسمع مقالتها، وقال: إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، فامسكتني عندها إلى أن ماتت، ثم صارت تلك المنطقة لأبي يعقوب، فردها إليّ، ثم أحبتني هذه المرأة، وكان سبب حبسي حبها[1].

وروي أن جبريل عليه السلام دخل [١٦٩] على يوسف عليه السلام السجن، فقال: يا طيب من أدخلك عليّ هنا؟ قال: أنت. قال له: اللهم يا شاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب، اجعل لي[2] من أمري فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث لا أحتسب. وفي رواية أبي سعيد مؤذن الطائف: إن جبريل أتى يوسف عليه السلام، فقال له: يا يوسف إذا اشتد عليك الحبس؟ قال: نعم. قال: قل اللهم اجعل لي من كل ما همني وأحزنني من

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ١/٣٥٤.

(٢) ساقطة من ت.

أمر دنياي وآخرتي فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث لا أحتسب، واغفر لي ذنوبي، وثبت رجاك في قلبي واقطعه ممن سواك، حتى لا أرجو أحداً غيرك.

وحكي عن غالب القطان قال: لما اشتد كرب يوسف وطال سجنه واتسخت ثيابه وشعث رأسه وجفاه الناس، دعا عند تلك الكربة، قال: اللهم إني أشكو إليك ما لقيت من حبيبي وعدوي، أما المحبون لي فباعوني، وأما عدوي فحبسني، الله اجعل فرجاً ومخرجاً، فأعطاه الله عز وجل ذلك.

وقال محمد بن سليم: بلغني أن ملك الموت استأذن ربه عز وجل في أن يسلم على يعقوب عليه السلام، فأذن له، فأتاه وسلم عليه، وقال: بالذي خلقك قبضت روح يوسف. قال: لا. ثم قال: أفلا أعلمك كلمات لا تسأل الله تعالى بهن شيئاً إلا أعطاك. قال: بلى. قال: قل يا دائم المعروف، يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصيه غيره قال: فما طلع الفجر حتى أتي بقميص يوسف عليه السلام.

وعن جعفر الصادق عليه السلام قال: أن ريح الصبا سألت ربها أن تبشر يعقوب بحياة يوسف صلوات الله عليهما، فأذن لها، فجاءت فهبت على يعقوب بذلك. قال: إن لأجد ريح يوسف. وكان يعقوب ساجداً، فلما رفع رأسه قال: أني لأجد ريح رحمة وإغاثة وزوال محنة، فلما دخلوا على يوسف رفع أبويه على العرش، وخرّوا له سجداً، كما فعلت الملائكة لآدم عليه السلام، ولم يضعوا جباههم [١٧٠] على الأرض، وقال: يا أبة هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن، ولم يقل أخرجني من الجب، لأنه لم يحب مواجهة أخوته بما صنعوا به بعد أن قال: لا تثريب عليكم اليوم، وقيل: إنه لم يقل من الجب، لأنه لم يكن من جنايته واختياره، والسجن كان باختياره حيث قال: رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه فشكر على النجاة فما اختاره لنفسه(١).

وعاش يوسف عليه السلام مائة سنة وعشر سنين، ورأى أولاد أولاده إلى ثلاثة أحقاب.

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ١/٣٧١.

ولما حضرته الوفاة، أوصى إخوته بنقل عظامه معهم عند خروجه من مصر إلى أرض الميعاد التي وعدهم الله بها. ومات يوسف ودفن بأرض مصر. ولما خرج بنو إسرائيل من مصر نقلوا عظامه معهم إلى أن دخلوا أرض الميعاد وملكوها، دفنوا عظامه في نابلس في الحقل الذي اشتراه يعقوب من بني حمور، وهذا من تاريخ النصارى[١].

وأما من تاريخ اليهود ـ ولعله أوثق ـ أن موسى عليه السلام أخرج معه تابوت يوسف فدفن بعد خروج بني إسرائيل من التيه بمغارة أبائة، وقبره الآن خارج المسور والله أعلم.
وفي ذلك الزمان مات شهربار ملك العجم، وملك بعده اسفنديار إحدى وسبعين سنة.

وفي أيام يوسف عليه السلام كان **أيوب النبي ﷺ وعلى نبينا وعليهم أجمعين، وهو أيوب بن آموص بن رازخ بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم** عليه السلام. وكان كثير الأموال والأولاد والمواشي، فامتحنه الله فصبر وابتلاه فشكر. وبعد ذلك عوضه الله من جميع ما عدم بمثله. وقصته مشهورة فيما جاء به دعائة وإزالة كربه وضره وبلائه[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل يحثوه في ثوبه قال [١٧١] فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك، قال: بلى، ولكن لا غنى بي[٣] عن بركاتك[٤].

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه قال: أمطر الله تعالى من السماء على أيوب فراشاً من ذهب، فجعل أيوب يأخذ ما كان خارجاً عن داره ويدخله داره، فقال له جبريل: أما تشبع يا أيوب. قال: ومن يشبع من فضل ربه[٥].

وقيل: أن الله تعالى لما قال لأيوب عليه السلام ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾[٦]،

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٣٧١/١.
(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٥٨/١٠.
(٣) ساقطة من ت.
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٧٦/١٠.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٧٦/١.
(٦) سورة ص، الآية ٤٢.

ركض أيوب رجله، فنبع ماء زلال فشرب منه واغتسل، وأنزل الله تعالى عليه ثوبين أبيضين من السماء، فلبسهما، ثم أمر أن يحطوا أربعين خطوة، فلما انصرفت امرأته وجدته قائماً يصلي سليماً صحيح الجسد، زائل الضر، وكانت قد عهدته من قبل بخلاف ذلك، وظنت أنها أخطأت الطريق، لطهارته ونظافته وطيب رائحته، فقالت له: أرشدني يا عبدالله، فإني أرى أني قد أخطأت الطريق، فقال: وأين تريدين ومن أنت، قالت: أنا خليلة أيوب. قال: ومن أيوب؟ قالت: أوما سمعت المبتلى، كأنك هو في زمان صحته، فتبسم أيوب ضاحكاً وتعانقا. فذلك قول الله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾[1]. الآية[2].

وقيل لأيوب عليه السلام لما عافاه الله تعالى ما أشد ما مَرّ عليك في أيام بلائك؟ قال: شماتة الأعداء[3].

وعن ابن عباس قال: أحيا الله عز وجل لأيوب عليه السلام وامرأته وأولادها وردّ عليهما أموالهما، وكل شيء ذهب لهما بعينه، وهما معتنقان قبل أن يفترقا، وأحدث لهما مالاً مثل مالهما. وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[4].

وزعم أهل الكتابين أن الله أعطاه من صلبه ولداً غير ولده الذين هلكوا وأحدث لهم مالاً غير مالهم الذي هلك. وقول الله أصدق حيث عين فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾[5].

ثم **لاوي بن يعقوب**، أولد فاهات بأرض كنعان، قبل دخولهم إلى أرض مصر. وكان عمر لاوي حين أولد فاهات أربعين سنة. وعاش [١٧٢] بعد ذلك سبعاً وتسعين سنة، فجميع عمره مائة وسبعة وثلاثون سنة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٧٦/٦ ـ ٧٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٧٧/٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٨٤ والخبر في ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٧٧/٦.

(٥) سورة ص، الآية ٤٣.

ثم عمران بن فاهات، من سبط لاوي، وتزوج أيضاً من بنات لاوي وكثر بنو إسرائيل، واعتز واحداً وقام ملك آخر على مصر لم يكن يعرف يوسف ولا أخوته، وهو فرعون موسى المذكور في القرآن الكريم. فقال لقومه: إن شعب إسرائيل قد كثروا، وصاروا أقوى منا، فلنعمل الحيلة في أمرهم لئلا يكثروا ولا نأمن أن يخرج علينا خارجي فيعينوه ويخرجونا من الأرض، فأمر أن يستعملوا في اللبن والحجر، وقال لقوابل العبرانيات: إذا ولدت امرأة من بني إسرائيل، فاقتلنه، فخفن الله ولم يفعلن، فأنكر فرعون عليهن، فقالوا: إن نساء العبرانيين لا يدخلن عليهن القوابل، إلا بعد أن يلدن، فأمر أن كل من يولد لهم من الذكور يلقى في النهر.

وعاش عمران ثلاث وسبعين سنة، وأولد مريم، وبعد سبع وسبعين سنة من عمره أولد هارون، وبعد ثمانين سنة أولد موسى النبي عليه السلام، فأخفوه ثلاثة أشهر، ولم يقدروا أن يخفوه بعدها، فأخذت أمه يوخايد تابوتاً من الخشب ووضعته فيه وألقته في النهر. وكانت أخته مريم تنظر إليه من بعد، لتعلم ما يكون منه، ونزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، فرأت التابوت فوجهت خدمها يشلنه من البحر فلما رأته يبكي رحمته، وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته: تريدون من يرضعه. قالت: نعم. فمضت ودعت أمه. فقالت لها ابنة فرعون: أرضعي هذا الغلام وأنا أعطيك أجرتك ولم تعلم أنها أمه. وقيل: إن التي أمرت بأخذه وتربيته إنما هي امرأته وهي آسية بنت مزاحم وهو الصحيح. ومات والده عمران وعمره مائة وسبعة وثلاثون سنة.

قال بعض المؤرخين: أن ابنة فرعون التي ربت موسى، أحضرت إليه جماعة من العلماء، وعلموه جميع العلوم والحكم [١٧٣] وآداب المصريين، وكان اسمها فيرى، وقيل أن اسمها يسعور. وصار موسى عظيم الشأن بمصر، فحسده خاصة فرعون لقربه من آسية ومكانته منها وموضع رئاسته في المملكة، فنشأ ورأوا في إبعاده. وفي ذلك الوقت حارب الكوشانيون وهم الحبش أرض مصر، وخربوا بلادها، وقطعوا كما ذكروا الماء عنها، لأن مادة النيل من الحبشة، فأشاروا على الملك أن يرسل موسى لغزوهم، فأجابهم فقال لموسى: قد علمت ما جرى من الحبوش، وأنهم يركبون السفن في النيل

ويغزون أرض مصر وقد خربوها وسبوا أهلها، وقطعوا ماء النيل عنها، ويجب عليك نصرة المملكة لما لها عليك من الحقوق التي تعرفها ولا تنكرها، وقد رأى الملك وجميع خاصته أن تسير إلى الحبشة وتغزوا أهلها، وتستصحب من تختار من العساكر، وتكون مقدماً عليهم. فانتخب موسى من بني إسرائيل عشرة آلاف فارس، ومن المصريين عشرة آلاف فارس. وبلغ موسى أن البراري والقفار التي بين مصر والحبشة كثيرة الحيات والأفاعي، فاتخذ موسى من الطيور التي تأكل الحيات شيئاً كثيراً، وقيل أن منها العقعق وبوحديج، فلما وصل إلى الأرض المذكورة، أمر أن لا تطعم الطيور إلا في أوائل النهار، فكان إذا نزل العسكر يفرق أقفاص الطيور في المنازل ولا تطعم شيئاً، فكانت تصيح في الليل كله لشدة جوعها، فتسمع الحيات أصواتها، فتغيب في الأرض لكثرة خوفها منها فلم يزل كذلك حتى وصل إلى أرض الحبشة، فلما رأى الكوشانيون كثرة العساكر أعظمهم الأمر جداً وخافوا خوفاً عظيماً، ونزلوا على مدينة الحبشة وقاتلوها قتالاً شديداً، واستظهروا على أخذها، فلما تحققت بنت ملكة الحبشة أن موسى سيظفر بالمدينة ويقتل كل من فيها [١٧٤] أرسلت إليه رسالة أن يتزوجها، وتعرفه مواضع يفتح المدينة منها، فأجابها إلى ذلك، فعرفته الأماكن، ففتح المدينة، واستولى على المملكة، وتزوج موسى بنت ملكة الحبشة، وهي السوداء التي ورد في التوراة خبرها. وأن مريم وهارون تكلموا في موسى من أجل أنه تزوج امرأة سوداء.

وأقام موسى بالعساكر التي معه في أرض الحبشة إلى وقت صعود النيل، وعرف أحوالهم، فبنى جسراً عظيماً بالحجر والكلس لحفظ الماء عند زيادته إلى أن تروى أرض الحبشة وتأخذ حاجتها منه، ثم ينحدر الماء إلى أرض مصر. وجعل موسى أخا زوجته على مملكة الحبشة مكان أبيه، واستحلفه أن لا يقطع الماء عن أرض مصر. وعاد موسى بمن معه من العساكر إلى الديار المصرية، فلما وصل خاف منه فرعون وجميع خاصته. وكانت ابنة فرعون التي ربت موسى في قول بعضهم توفيت وهو بأرض الحبشة، وبعد ذلك بأيام يسيرة أراد فرعون أن يقتله بمن قتل، فهرب إلى مدين، وكان عمره حينئذ أربعين سنة، وتزوج هناك بنتاً اسمها صفورا بنت شعيب بمدين على ما قصّ الله من قصتهما في كتابه. فولدت له ابنين، اسم الأول منهما حرشون والثاني لعازر.

وكان موسى يرعى الغنم لشعيب عليهما السلام، وكان موسى يأتي بالغنم إلى البرية حتى وصل إلى طور سيناء، فرأى ناراً فقرب منها، فرأى عوسجة تشعل ناراً ولا تحترق[1]، فتعجب، وأراد أن يدنو لينظر، فنودي يا موسى لا تدن، واخلع نعليك، فإن المكان الذي أنت فيه واقف مقدس، وأنا إلهك، وآله آبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأني مرسلك إلى فرعون، وقل لبني إسرائيل أني أرسلتك لتخلصهم. ورأى العصا الذي بيده ثعباناً، ثم عادت [١٧٥] عصاً كما كانت، وجعل الله يده بيضاء ثم أعادها كما كانت، وقيل له: إذا لم يؤمنوا بالآية الأولى آمنوا بالثانية. فقال موسى: يا رب، أني أردت المنطق، وأخي هارون أفصح مني، فقال له: خذ أخاك هارون معك مترجماً، فسمع موسى ما أمره الله عز وجل به، وجاء إلى بني إسرائيل وعرفهم ما قاله الله تعالى له. وكان عمره حينئذ ثمانين سنة. فمضى موسى وهارون إلى فرعون، وهو الذي يزعم القبط أن اسمه طلما بن قومس. وأما أهل الأثر فزعموا أنه هو الوليد بن مصعب، وأنه من العمالقة، وذكروا أن الفراعنة سبعة، فأراد موسى وهارون الوصل إليه، والدخول عليه، وعلى كل واحد منهما جبة صوف، فلم يتأت لهما الدخول عليه، لشدة غلظته وغلظ حجابه، إلى أن دخل مضحك له كان عرف حالهما، وقال له: بالباب رجلان يطلبان الإذن عليك، ويزعمان أن إلههما أرسلهما إليك، فأمر بإدخالهما، فخاطبه[2] موسى وأراه آيته في العصا، وآيته في بياض اليد، وهما آيتان من تسع. وكان من خطابه ما نصه الله عز وجل في كتابه العزيز في غير ما موضع، فغاظ فرعون أمره، وهمّ بقتله، فمنعه الله منه، وشغله عنه. ورأى فرعون كأن صورة أقبلت، فمسحت على أعينهم فعموا، ثم أمر قوماً آخرين بقتله، فرأى ناراً أتت عليهم، فأحرقتهم فازداد غضباً، وقال له: من أين لك هذه النواميس العظام، أسحرة بلدي علموك، أو تعلمته بعد خروجك من عندنا؟ فقال له: هذا ناموس السماء، وليس من نواميس الأرض، قال: ومن صاحبه؟ قال: صاحب البنيان العلي. قال: بل عُلِّمتها من بلدي، وأمر بجمع السحرة والكهنة وأصحاب النواميس،

(١) ت: تحتر.

(٢) ت: فخاطبهما.

وقال: ارفعوا إليّ أعمالكم، فأني أرى نواميس هذا الساحر [١٧٦] رفيعة جداً فعرضوا عليه أعمالهم، فسره ذلك، وأحضره وقال: قد وقفت على سحرك، وعندي من يربي عليك ويريني أعظم منه، فوعدهم يوم الزينة، وهو يوم عيده، على أن من غلب منهما تبعه الآخر. وكان جماعة من أهل البلد قد آمنوا بموسى، فقتلهم ظلماً، وجمعوا بينه وبين سحرة مصر جميعاً، وكانوا مائتي ألف وأربعين ألفاً، فعملوا من الأعمال ما حيروا به العيون من دخن ملونات، ترى الوجوه ملونة ومشوهة، منها الطويل، ومنها العريض، ومنها المقلوب جثته إلى أسفل ولحيته إلى فوق، ومنها ماله خرطوم وأنياب ظاهرة على قدر أنياب الفيلة، ومنها ما هو عظيم على قدر الترس العظيم، ومنها ماله قرون عظام، ومنها ما يشبه وجوه القردة، ومنها أجسام عظيمة تبلغ السحاب، وحيات عظام وبأجنحة تطير إلى الهواء، ويرجع بعضها على بعض. فتبلعه، وحيات تخرج من أفواهها ناراً، تجلل العالم فتكاد تحرقه، وحيات تطير وترجع منحدرة على كل من حضر لتبلعه، وعصاً تلحق بها في الهواء فتصير حيات برؤوس وأذناب فيها رؤوس حيات تدور تنقلب على الناس، فتنهشهم بأفواهها وتضربهم بأذنابها، ومنها ماله أجنحة، وأظهروا تماثيل في خلق الشياطين، ثم عملوا دخاناً يغشي أبصار الناس من النظر، فلا يرى بعضهم بعضاً، ويسمع لها قعقعة وضجة وصوت وصور خضر على دواب خضر وصور سود هائلة تميل على الناس. فلما رأى فرعون ذلك سرّه هو وجماعة ممن حضر. واغتم موسى عليه السلام وجماعة ممن كان آمن به، وكتم إيمانه خوفاً من فتنة الناس بذلك وظلالهم. وكان للسحرة ثلاثة رؤساء من كبارهم. والقبط تقول: كان لهم اثنان وسبعون رئيساً، فلما [١٧٧] رأى ذلك موسى وضاق به أتاه جبيريل عليه السلام وقال له: لا تخف، إنك أنت الأعلى، والقِ ما في يمينك، فسر بذلك موسى عليه السلام، وطمع في إيمان الناس، وسكن خوفه، فأشار إلى عظماء السحرة وقال: رأيت ما صنعتم، فإن قهرتكم تؤمنون بالله، قالوا: نشهد لنفعلن. ورآه فرعون وقد أشار إليهم، فغاضه وهمّ بمعاجلة الجميع، ثم توقف ليعلم آخر القصة، والناس يهزؤون بموسى ومن أخيه عليهما السلام، وعليهما دراعتان من صوف. وقد احتزتا، ووضع موسى عصاه، فسمى موسى عليه السلام بالله، ثم لوّح العصا وحلق بها في الجو فرفعها جبريل حتى غابت عن عيونهم، ثم أقبلت في صورة ثعبان عظيم له عينان كالترسين، يتوقدان ويخرج

من فيه مثل الحراب وهو يرتعد غضباً لله، فلا يقع من زبده شيء على أحد إلّا برصه وبرصت من ذلك بنت فرعون، والثعبان فاغر فاه، والقوم ينظرون، حتى قرب منهم، وأرسله فابتلع جميع ما عمله السحرة. وكان في النهر الذي يتصل بدار فرعون عمد كثيرة وحجارة، فأقبل الثعبان إلى قصر فرعون ليبتلعه، وكان في قبة له إلى جانب القصر يشرف على عمل السحرة، فوضع نابه تحت القصر، فصاح فرعون عند ذلك واستغاث بموسى، فزجره، فعطف على الناس ليبتلعهم، فسقط البعض على وجوههم، وهرب بعضهم، فأمسكه موسى وعاد في يده عصا كما كان. فلما رأى السحرة ذلك ولم يروا تلك الأعيان. قالوا: ما هذا من عمل الآدميين، وإنما نصنع نحن خيالات لا تغيب عن أعين من يلقها عليه، وهذا من فعل جبار قدير على الأشياء، فقال موسى: أوفوا بعهدكم وإلا سلطتها عليكم فتبتلعكم كما ابتلعت غيركم، ومصيركم إلى النار، وعند ذلك آمن السحرة بموسى وجاهروا فرعون وقالوا: هذا من آله السماء، وليس من فعل أهل الأرض. قال: قد علمت أنكم تواطأتم معه عليّ [١٧٨] وعلى ملكي حسداً لي، وأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبوا فكانوا يرون مساكنهم من الجنة قبل أن يموتوا، وجاهرته امرأته، ففعل بها مثل ذلك في قول بعضهم.

وكان فرعون هذا قد تجبّر وادعى الربوبية، وشق الأنهار وغرس الأشجار، فلما كان من أمر موسى ما كان، فسد/كل عمل، وسقطت الطلسمات وبعض الهياكل والمنازل وخرت الأصنام على وجوهها، وعلت آيات موسى من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فتحول ماءوهم دماً، حتى كانت الإسرائيلية تسقي القبطية من فيها ماءً فيعود دماً، وتعض على الرغيف لتأكل فتعض على ضفدع، وأتلف الجراد والقمل زروعهم، وهدم الماء بساتينهم وبعض منازلهم، وتبين للناس أن فرعون لا ينفعهم، وضاق صدر فرعون من ذلك، فرجع إلى مداراة موسى، ووعده أن يستخلفه على ملكه، فأشار عليه هامان والكهان أن لا يفعل، وأمر الرعية أن يقتلوا موسى، فخرجوا إلى الموضع الذي هو فيه لذلك، فأتت نار فأحرقتهم، ورأى فرعون أنه أخذ برجليه ونكس على رأسه في حظيرة نار، وكأنه يستغيث ويقول أنا مؤمن بموسى، فخلوا عنه، فدعا هامان وعرفه ذلك، وقال له: لم يبق بعد هذا شيء، أريد أن أومن بموسى. فقال له: هو الذي عمل

لك الرؤيا ليهول عليك. أتريد أن تكون عبداً بعد أن كنت رباً، وتستخف بك رعيتك، ويسلب ملكك، فتلطف به، وعده أنك تؤمن به، فكان يبعث إليه موسى وينتظره فكلما مر الأجل ولم يفعل، عظم البلاء عليهم وتهدمت منازلهم، وفسدت زروعهم، وكثرت الآفات في منازلهم، وكان الناس قد خافوا من موسى وهابوه، وكانوا يؤمنون به سراً، فمن آمن به زال عنه الأذى، فلما زاد الأمر على فرعون أحضر موسى وقال له: إن أجبتك، فمالي عندك؟ قال: أرد شبابك وأضعف عمرك وأومنك من جميع العلل ومن زوال [١٧٩] ملكك، وأعلي يدك على كل من ناوأك من الملوك، وأكثر نشاطك وأكلك وشربك. قال: إن فعلت ذلك فقط أنصفت، فانظر فيّ إلى غدٍ. ثم شاور هامان فمنعه، وقال له موسى: أطلق لي بني إسرائيل، فقال فرعون: إنما تريد إخراجهم من بلدي لتكون عليهم ملكاً، وأنا انتفع بهم وبخدمتهم، وإنما هذا حسد منك لي. قال: فانتقل عن ادعائك الربوبية، قال: إذا أنقص في أعين الناس. قال: فإن إلهي سيهلكك أنت وقومك وتصير أرواحكم إلى النار. قال: فإني أستعمل ذلك سراً ولا أستعمله علانية. قال: لا يقبله منك وأنت على هذه، والإقرار ظاهر يخلصك، فوعده بتخلية بني إسرائيل من العبودية والإحسان إليهم، قال: أعمل ذلك سراً. قال: إن لم تفعل خلصهم منك إلههم وأهلكك، فأزال عن بني إسرائيل الخدمة، وحضر عيد لهم، فأمر موسى نساء بني إسرائيل أن يستعرن حلي القبطيات وثيابهن يتزين بها في عيدهن، ففعل نساء بني إسرائيل، وأكلوا معهم وشربوا وألقى على القبط السبات، فأمرهم موسى بالتعدية إلى البرّ الشرقي، ليكون عيدهم هناك، ثم سار بهم من الليل، وكانوا ستمائة ألف ونيفاً وأربعين ألفاً، وأخرجوا تابوت يوسف من النيل وحملوه معهم، وكان الذي دلهم عليه عجوز مؤمنة، فحملوها معهم، ومضوا بها إلى ناحية بحر القلزم، لتخفى آثارهم. فلما كان آخر الليل عرف خروجهم بسقوط الأصنام والأعلام.

وكان موسى عرّف فرعون أن تلك علامة هلاكه، وقيل له ما عملته الإسرائيليات وأمر الناس بالتعدية والركوب، فركب معهم تابعاً لآثارهم، فلم يبق أحد من أولاد الملوك، ولا من فيه حشمة إلا ركب معه، فيقال أنه سار في ألف ألف ونيف، فلم يمروا على شيء من الأعلام إلا سقط ولا صنم إلا أكب على وجهه. وساروا مجدين حتى

لحقوهم على عبر البحر، فقال موسى لهارون: قف بالبحر وكنه بأبي العباس، ومره أن يكف عنا موجة [١٨٠] وضربه بعصاه، فانكشفت أرضه، ولحقه موسى ومعه بنو إسرائيل، فمشوا في وسط الماء وهو يطلبهم، وجعل لكل سبط طريقاً، وجعل فيه طاقات ليرى بعضهم بعضاً، فأقبل جبريلﷺ على فرس له بلقاء فدخل بها البحر، ودخل حصان فرعون خلفه وتبعه قومه، فلم يبق أحد منهم في البر، فلما توسطوا البحر، وقد خرج موسى إلى البر الآخر من الحين أمر الله البحر أن يأخذ فرعون وقومه. فقال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فألجمه جبريل بكف من حماة البحر، ضرب بها وجهه، فغرق الجميع ومر بأرواحهم إلى النار، وطرحهم البحر بعد هلاكهم إلى ذلك البر، وألقى فيهم فرعون حتى رئي وعرف، وانتقم الله منهم. وزعمت فرقة من اليهود أن فرعون نجا ساعة بعد غرق قومه، وملك مدينة صغيرة ليست من أرض مصر.

وقال بعض المؤرخين: لما غرق فرعون وأتباعه وعساكره، لم يبق من الرجال من يصلح للمملكة، فقعد النساء في مراتبهم بنت الملك ملكة وبنت الوزير وزيرة وبنت الوالي والحاكم على هذا الحكم، وكذلك القواد والأجناد، واستولت النساء على المملكة، وأقاموا كذلك سنين كثيرة، ثم بعد ذلك اشتهوا الرجال، فتزوجوا عبيدهم، وشرطوا عليهم أن الحكم والتصرف للنسوان. واستمر ذلك برهة من الزمان، ومن ثم كانت أنساب القبط مدخولة.

وأما موسى صلوات الله عليه وبنو إسرائيل، فإنهم دخلوا التيه، ثم كان من أمرهم ما كان، وكان من كرامة الله له أن الحجر كان يحمل فيوضع فيضرب بعصاه فيتفجر بالماء، ثم يأتي كل سبط قسم منه يجري بينهم، وظلهم بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، ولم يخلق لهم ثوباً ولا أبلى جديد، ولا أنضى ظهراً حتى أن الصغير منهم كان إذا طال، طال ثوبه معه. ثم كان تلونهم على موسىﷺ، وتلونهم له ما هو معروف، ولقد لاقى [١٨١] منهم المصاعب وحمل المتاعب حتى أتاه اليقين، ولحق بربه.

ومن جملة مناجاة موسىﷺ ربه عز وجل قال: أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. وعن بعض أهل البيت قال: أوحى الله تعالى إلى موسى،

أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي، قال: لا يا رب. قال: أني قلبت عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد أذل لي نفساً منك، يا موسى إذا صليت فضع خديك على التراب. وفيما ناجى به ربه أن قال: يا رب[1] ما لمن عاد مريضاً؟ قال: أوكل به ملكاً يعوده في قبره إلى محشره. قال: فيا رب فأي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: يا رب أي عبادك أغنى؟ قال: الذي يقنع بما يؤتى. قال: يا رب أي عبادك أعدل؟ قال: الذي جمع علم غيره إلى علمه، والذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: يا رب أي عبادك أحسن عملاً؟ قال: الذي لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه. قال: من يطيق هذا؟ قال: من يخافني. قال: أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يكثر ذكري. قال: أي عبادك أبغض إليك؟ قال: جيفة بالليل بطال في النهار. قال: أي عبادك أصبر؟ قال: أكظمهم للغيظ. قال: أي عبادك أسعد؟ قال: من آثر أمري على هواه، وغضب لي غضب النمر لنفسه. قال: يا رب أي خلقك أشقى؟ قال: من لا يذكرني إذا خلا بي، يا موسى إن أردت أن أقرب مجلسك يوم القيامة فلا تنهر السائل ولا تقهر اليتيم، وإن أردت أن لا يبقى ملك في السموات والأرض إلا سلم عليك وصافحك يوم القيامة، فأكثر التسبيح والتهليل. وإن أردت أن أباهي بك الملائكة فأمط الأذى عن الطريق، وإن أردت أن لا تدعوني دعوة إلا أجبتك فعليك بحسن الخلق. أن أبغض عبادي إليَّ الذي في قلبه كبر وفي لسانه غلظ وفي قلبه قساوة وكفاه يابستان من الخير إذا قيل له اتق الله، أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس [١٨٢] المهاد.

وعاش موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة. وقد جاء في الحديث الشريف رؤية النبي ﷺ واقفاً يصلي في قبره ووصفه، وقال: أنه في جانب الكثيب الأحمر إلى جانب الطريق. وقال: لو كنت ثم لأريتكموه وقبره المنسوب إليه الآن فوق أريحا مدينة الغور، وقد بنى الملك الظاهر بيبرس عليه قبة ومسجداً، وأقام له خادماً براتب أجراه له، وقد رأيت المكان، وصليت بهذا المسجد سنة تسع وثلاثين وسبعمائة، ويحكى أهل تلك الأرض آثار كرامات له، وقد جاء أن موسى عليه السلام قال عند موته: ربي فزيني من الأرض

(١) «قال: إني قلبت عبادي ... يارب» ساقطة من ب.

المقدسة ولو رمية بحجر. وقد قدمنا طرفاً من ذكره في ذكر المزارات في أوائل الكتاب.

ثم **يوشع بن النون**، وبعد وفاة موسى النبي عليه السلام، أوحى الله تعالى ليوشع فتى موسى، ثم اعبر الأردن وجميع من معك من بني إسرائيل إلى الأرض التي عهدت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكل موضع تطؤه أقدامكم أعطيه لكم، وجبل لبنان إلى نهر الفرات وإلى البحر الكبير، ولا يثبت أحد أمامك، وكل أيام حياتك. فأمر يوشع القوم بأن يستعدوا زاداً لثلاثة أيام لعبور الأردن ليرثوا الأرض، فأجابوه إلى ذلك. وقالوا له: نطيعك كما كنا نطيع موسى عليه السلام، ومن خالفك يقتل، فأرسل يوشع جاسوسين إلى أريحا، فمضيا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب، فبلغ الملك ذلك فطلبهما، فأخفتهما راحاب، وقالت: قد خرجوا ولا أعرف كيف توجهوا، ودخلت إليهم فعرفتهم بذلك واستحلفتهم أنهم إذا ملكوا أريحا أن لا يقتلوها، ولا أحد ممن في بيتها، وعادا إلى يوشع فأخبراه، فرحل إلى الأردن إلى أن وقفوا مقابل أريحا، وعند سماع ملوك الأموريين والكنعانيين ذابت قلوبهم خوفاً من بني إسرائيل، فأوحى الله إلى يوشع قد أسلمت أريحا وملكها في أيديكم، فدنا [١٨٣] إلى المدينة، وقاتلها قتالاً شديداً إلى أن انهدّ سور المدينة، فدخل القوم إليها، كل رجل من مقابله، وأوصى الله إليه أن تكون هذه المدينة وجميع ما فيها حرماً لله، وأمرهم بحفظ نفوسهم من الحرم، فعملوا كما أمر الله، وقتلوا كل من فيها بالسيف إلا راحاب وأهل بيتها لم يقتلوهم. وحملوا جميع ما فيها من الذهب والفضة وآلة النحاس والحديث، ثم بعد ذلك أرسل يوشع قوماً فعادوا وقالوا: أن أهلها قليل، وأن ثلاثة آلاف رجل يفتحونها، فأرسل إليها نحو ثلاثة آلاف، فقتل منهم ستة وثلاثون رجلاً. وانهزموا، فشق ذلك على يوشع ووقع على الأرض، فأوحى الله إليه أنهم قد أخذوا من الحرم. فأوقع القرعة بين الأسباط، فوقت على عاجار بن كرمي من سبط يهوذا، فأحضره يوشع وسأله فأقرّ أنه أخذ إزاراً عراقياً وسبيكة ذهب ومائتي مثقال من الفضة، فأمر يوشع بأن يرجم هو وأهل بيته، فرجموهم وحرقوهم بالنار، وبعد ذلك ساروا إلى الغيّ فملكوه وفعلوا بها كما فعلوا بأريحا، وقتلوا جميع أهلها وحرقوهم بانار. وغدة من قتل بها اثنا عشر ألف رجل، وأحضروا ملكها حياً وصلبوه على خشبة. وعند المساء أنزلوا جثته، ورجموه حتى صار عليه تل من الحجارة، وسمع الملوك، فاستعدوا لقتال يوشع، فأما

سكان جبعول فاحتالوا بمكر ولبسوا ثياباً مقطعة، وأخذوا معهم آلات عتيقة وخبزاً يابساً، وجاءوا إلى يوشع، وقالو: قد جئنا من أرض بعيدة نطلب أمانكم، فأعطوهم أماناً وعهداً، فسمع ملك مدينة السلام، فخاف واستنجد بخمسة ملوك من جيرانه على اهل جبعول، فانجدوه وحاربوهم، فاستجاروا بيوشع، فسار إليهم وقتل من أعدائهم خلقاً كثيراً وفي انهزامهم طرح الله عليهم حجارة برد من السماء، فمات أكثر من المقتولين بالسيف، وتبعهم يوشع وقال للشمس قفي، فأمر الله تعالى [١٨٤] الشمس مقدار نهار كامل إلى أن انتقم الله من أعدائه ووقوف الشمس ليوشع مشهور.

وبهذا ألمع أبو تمام قوله:

لحقنا بأخراهم وقد حوم الهوى	قلوباً عهدنا طيرها وهي وقعُ
فردت علينا الشمس والليل راغم	بشمس لهم من جانب الخدر تطلعُ
نضاضؤها صبغ الدجنة وانطوى	لبهجتها ثوب السماء المجزعُ
فوالله ما أدري أحلام نائم	ألمت بنا أم كان في الركب يوشعُ

ولم نذكر هذه الأبيات إلا لاستجادتها، ولأن كل ما قيل في هذا المعنى من مادتها.

وهرب الملوك الخمسة، واختفوا في مغارة، فأخبر يوشع بذلك، فأمر أن يدحرج حجارة كثيرة ووكل بها من يحفظها إلى أن قتلوا جميع أعدائهم وعادوا سالمين، فاستحضر يوشع الملوك الخمسة، وأمر بقتلهم فقتلوهم وصلبوهم. وعند غروب الشمس أنزلوهم وألقوهم في المغارة التي اختفوا فيها وسدوا بابها، واجتمع الملوك بجموع كثيرة لا تحصى ولا تحصر لمحاربة بني إسرائيل، فقاتلوهم وقتلوهم حتى لم يبق منهم أحد. وفتح قيسارية أول هذه الممالك، وقتل كل من فيها بالسيف، وقتل ملكها وحرقهم بالنار، وفتح مدناً وقتل ملوكها وأهلها ولم يحرقها، وجعل سلبها ومهاجمتها لبني إسرائيل، ولم يسلم من بني إسرائيل إلا جيعون وباقي المدن أخذوها بالسيف. وأهلك يوشع العلوج من الجبال، وأخذ جميع تلك الأرض وأعطاها لبني إسرائيل، وقسمها بين الأسباط بالقرعة، ووقعت الهدنة في الأرض من الحرب، وعدة الملوك الذين قتلهم بنو إسرائيل، وورثوا

أرضهم في غير الأردن أحد وثلاثون ملكاً، وبعد أيام كثيرة استدعى يوشع مشايخ بني إسرائيل وقال لهم: أنا قد شخت، وأنتم قد رأيتم كيف أهلك الله الأمم بين أيديكم، فخافوا الله واعبدوه باعتقاد صحيح وقلب سليم، واتركوا المعبودات [١٨٥] وأزيلوها، وإلا فأنا وأهل بيتي نعبد الله، فقالوا: ونحن نعبد الله، فإنه إلهنا ولا نعبد سواه، فكتب عليهم عهداً، وبعد هذه الأمور مات يوشع بن نون وعمره مائة وعشر سنين، ودفنوه في جبل كنعان(١).

ويقال: أن يوشع وكالب هما الرجلان المعنيان بقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٢).

ثم **فينحاس بن العازر بن هارون.** وكان فينحاس مع يوشع بن نون، وكان يوشع مع موسى، ولم يتعين له مدة منفردة، وهو الذي دبّر الشعب بعد يوشع، وتزعم اليهود أن فينحاس هو الذي تسميه العرب الخضر. وبعد وفاة يوشع أمر الله يهودا من بني إسرائيل أن يحاربوا الكنعاني، وصعد معهم بنو شمعون أخوتهم، فهرب الكنعانيون والفرازيون، فقتلوا منهم في بازاق عشرة آلاف رجل ومسكوا ملكهم، وقطعوا إبهام يديه ورجليه، وبعد ذلك قتلوه في أورشاليم وهي بيت المقدس، وقتلوا كل من فيها بالسيف وحرقوا قراها بالنار، وفتحوا غزة وتخومها وعسقلان وحدودها وورثوا الجبل، ولم يقتلوا أهل الغور. وأما بنو بنيامين فلم يقتلوا اليابوسيين وبنو نفتالي سكنوا بين الكنعانيين وأخذوا خراجهم واختلطوا بهم وعبدوا معبوداتهم، وتركوا عبادة الله، فغضب الله عليهم، بأن ملك عليهم كوشيان شعتايم المنافق، وتفسير كوشيان شعتايم: أظلم الظالمين. ويذكر أنه ملك آرام وصور وصيدا، ويسمى ملك البحرين وملك أدوم وهو الذي استعبد بني إسرائيل، وتسلط عليهم ثمانين سنة وعذبهم. ومن شدة تعذيبه لهم عادوا إلى عبادة الله وتضرعوا له فخلصهم بابن أخي كالب الأصغر. وفي هذا الزمان عرف قروطس

---

(١) التوراة، سفر يشوع، الإصحاح ٢٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ٢٣.

وفرونيطس في مدينة قيسون وهما [١٨٦] أول من أحدث اللعب والرقص بجميع آلات السلاح[(١)].

ثم عثنيال بن قينان[(٢)] ابن أخي كالب الاصغر من سبط يهوذا، صار قاضياً على بني إسرائيل، وحارب كوشيان المنافق، ملك حران، فقتله ودبّر بني إسرائيل وعبدوا الله في أيامه واستراحت الأرض من الحرب أربعين سنة، وفي السنة الأولى من ملك عثنيال ملك ففرولس مدينة إيناس تسعاً وأربعين سنة[(٣)]. وزعم بعض المؤرخين أن في زمانه أيضاً كان طوفان آخر.

ثم **عجلون** ملك مؤاب، ويقال عقلون، وهو من بني لوط، جمع جميع عماليق وعمان، وقوي على بني إسرائيل واستعبدهم وأذاقهم أشد عذاب ثماني عشرة سنة، وأخذ منهم قرية النخل[(٤)].

ثم **إهود بن حار الأعسم** من قبيلة بنيامين، كان قاضياً على بني إسرائيل، وقتل من أهل فلسطين ستمائة رجل، وخلص بني إسرائيل، ولم يكن له مدة تتعين[(٥)].

ثم **دبورا زوجة البيدوب** من سبط أفرام. زعم بعضهم أنها نبئت، وكانت تقضي بين بني إسرائيل، فاجتمعوا إليها، وشكوا ما هم فيه من الضرر بمابين[(٦)].

وكان مابين هذا ملك كنعان، وكان يعبد بني إسرائيل عشرين سنة، فأحضرت باراق من سبط نفتالي وفوضت إليه تدبير العساكر، وقالت له: تأخذ معك من بني نفتالي وزابلون عشرة آلاف رجل، وتسيروا إلى سيسرا، فإن الله ينصركم على مابين ويظفركم به وبسيسرا، فصعد بنو إسرائيل مع باراق، فجمع سيسرا جميع عسكره ولقيهم، فانهزم

(١) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١ ـ ٣.
(٢) في الأصول: ابن أخي قينان.
(٣) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٣، الآيات ٩ ـ ١١.
(٤) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٣، الآيات ١٢ ـ ١٥.
(٥) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٣، الآيات ١٥ ـ ٢١.
(٦) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٤، الآيات ٤ ـ ٦.

هو ومن معه من العساكر على يد باراق، وهرب سيسرا ودخل خيمة امراة، وطلب منها ماءً، فسقته لبناً، فشرب ونام، وغطته بقطيفة، وأخذت وتداً من أوتاد الخيمة ومرزّبه، فضربت الوتد في صدغه حتى وصل الأرض، فتمحص ومات. وجاء باراق في طلبه، فأدخلته المرأة الخيمة، وأرته سيسرا ميتاً [١٨٧] فاعتز بنو إسرائيل، وشكرت دبورا الله تعالى وسجدت له، وسبحته وسلمت الأرض من الحروب أربعين سنة(١).

وفي ذلك الزمان بنت بيقر مدناً التي هي الآن القسطنطينية، ثم خسف الله بها وبناها سورس الملك، وسماها بيزنطية. وبعد زمان، ودهور ملكها قسطنطين الملك المؤمن، فغيرها وزاد في سعتها، وسماها باسمه القسطنطينية.

وفي ذلك الزمان ملك فعلريوس البلاد التي على نهر النيل، وكان يذبح الغرباء من عابري السبيل ويأكلهم. وفيه أيضاً ظهر قريوسوس الذي يقال عنه أنه من شدة سرعته لا تدركه العتاق من الخيل ولا الظباء.

ثم **راراح وصلمناع من ملوك مدين**، وهم عرب إسماعيليون، تسلطوا على بني إسرائيل، وحصروهم إلى الجبال، وأفسدوا زروعهم(٢)، ونهبوا دوابهم، وأقاموا كذلك مدة سنين(٣).

ثم **جدعون بن يوآش**، وهو الذي خلّص بني إسرائيل ونصرهم، وذلك أن الله تعالى أرسل إليه ملكاً، وقال له: أنت تخلص بني إسرائيل. فقال: كيف أقدر على تخليصهم وعشيرتي أقل عدداً، وأنا أصغر أولاد أبي؟ فقال له الملك: إن الله معك. فجمع بني إسرائيل، وأراد أن يقاتل أهل مدين، فأوحى الله إليه: لا تأخذ معك جميع بني إسرائيل، ولكن خذ بعضهم. فأخذ معه ثلاثمائة رجل، وجاء إلى أهل مدين فدخل عليهم بليل، وتجسس في عسكرهم، فسمع أحدهم يفسر رؤيا رآها على آخر. فقال له المفسر:

---

(١) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٤، الآيات ١٠ ـ ٢٤، والإصحاح الخامس كاملاً.

(٢) ب: زرعهم.

(٣) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٦، الآيات ١ ـ ٦.

إن الله قد دفع عسكر مدين لجدعون، فسجد جدعون لله، فخرج وأمر الثلاثمائة الذين معه أن يحملوا جراراً فارغة فيها مصابيح نار والقرون، وقال لهم: اعملوا مثل ما أعمل. فلما دخلوا هتف بالقرون وهتفوا معه، وكسروا الجرار، وأخذوا المصابيح بشمائلهم، وصرخوا الغلب لله ثم لجدعون، فوقع المدينيون بعضهم على بعض، وصار الرجل يقتل صاحبه، فانهزموا، وأرسل جدعون إلى بني إسرائيل أن اخرجوا [١٨٨] واستقبلوهم، واقتلوا عوزيب وزيب القائدين، وآتوا برأسيهما إليّ. وقتلوا مائة ألف وعشرين ألف مقاتل، وأحضروا إليه من الأقراط التي كانت على جمالهم ألف وسبعمائة مثقال ذهباً، لأنهم عرب اسماعيليون. وظفر جدعون بملكي مدين راراخ وصلمناع وقتلتهما، وسكنت الأرض من الحرب أربعين سنة. وولد له سبعون ولداً، لأنه تزوج نساءً كثيرات. وتوفي بعد هرم[١].

وفي ذلك الزمان، ظهر قرلوس القاسوم وصطلوس وكانا يظهران الخفيات، حتى كانت الناس تتعجب من أمرهم. وظهرت في زمانه أمور غريبة. وفي زمانه انحدر فرنسيس إلى بلاد الفرس، وقطع رأس عرعور الزانية التي كان لحسنها وجمالها نُصير الذين ينظرون إليها مثل الحجارة سموداً من النظر إليها.

وفي أيامه ظهرت بنات ابليوس وهم سبعة. وكانوا قاسوميات، وقيل أن الإنسان كان يرى وجهه في وجوههن لشدة حسنهن، وصفاء أجسامهن، وحسن ألوانهن، ومتى كانت الواحدة في الظلمة، فإن ذلك الموضع يضيء.

وفي ذلك الزمان بنيت مدينة قرونيتا ومدينة ملطيا. وفيه أيضاً ملك قوسوس، ويقال أنه كان يزمر بالقفار فتجتمع إليه السباع وسائر الوحوش لسماعه، ولا يؤذي بعضهم بعضاً. وزعموا أن بعضها كان إذا سمع غناءه وزمره ينام.

وفي ذلك الزمان بنيت مدينة قوريفوا على شط البحر، وهي التي فيها البيت الذي لا ينزل عليه المطر دون بيوت المدينة، وهو من العجائب.

---

(١) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٦ ـ ٩.

ثم **أبيمالخ ولد جدعون** من الأمة، مضى إلى أخواله أهل نابلس، وقال لهم: أي الأمرين خير لكم، أن يتسلط عليكم سبعون رجلاً أو رجل واحد؟ وطلب منهم مساعدة على قتل اخوته، فأعطوه سبعين مثقالاً من الفضة. وقيل: بل أعطوه سبعين قنطاراً من الفضة، فاستأجر بها أقواماً شداداً، وقتل اخوته السبعين على صخرة واحدة، ونجا أصغرهم [١٨٩] وتسلط أبيمالخ على بني إسرائيل ثلاث سنين، وحاصر حصناً، وأحرق فيه ألف نفس، ورمت امرأة على رأسه حجراً فشدخته، فقال لحامل سلاحه: اقتلني لئلا يقال أن امرأة قتلتني[١].

ثم **يرعال بن نوال** ابن عم أبيمالخ من سبط ايساخر كان نازلاً في سامير جبل افرام، ثم صار قاضياً على بني إسرائيل ثلاثة وعشرون سنة، ومات ودفن في سامير[٢].

ثم **يابين الجلعادي**، من جلعاد، صار قاضياً عليهم وكان له ثلاثون ابنا، وثلاثون قرية ومات وولايته عليهم مدة اثنتين وعشرين سنة[٣].

ثم ملوك فلسطين، وهم بنو عمون من بني لوط، تسلطوا على بني إسرائيل لما رجعوا عن عبادة الله وعبدوا الأصنام، فغضب الله عليهم وملك عليهم أعدائهم ثمان عشرة سنة إلى أن تابوا ورجعوا إلى عبادة الله، فأنقذهم مما كانوا فيه. وفي أول سنة من غلبة بني عمون بنيت مدينة صور[٤].

ثم **يفتاح[٥] بن جلعاد**، ابن امرأة زانية، صار رئيساً، وراسل بني عمون وطلب منهم قرية النخل فامتنعوا، وقالوا: لم يطلب أحد من بني إسرائيل هذه الأرض، فلماذا تطلب الشر؟ فلم يلتفت لقوله، فنذر يفتاح إن ظفرني الله ببني عمون، فأول من يستقبلني من باب بيتي أقربه لله تعالى، فظفر بهم وهزمهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ لهم

---

(١) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ٩ ـ ١٠.
(٢) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٠، الآيات ١ ـ ٣.
(٣) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٠، الآيات ٣ ـ ٥.
(٤) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٠، الآيات ٦ ـ ١٤.
(٥) ب: يفتا بن جلعاد.

عشرين مدينة، ورجع إلى مصغبا إلى منزله، فخرجت ابنته تستقبله ولم يكن له غيرها فمزق ثيابه، وقال لها: يا بنيتي، إني نذرت لله نذراً ولا أرجع عنه، واعلمها الخبر، فقالت له: لا ترجع في نذرك، ولكن أمهلني شهرين لأنوح على نفسي، فأمهلهما، فمضت إلى الجبل هي وصواحباتها العذارى، فبكت مدة شهرين على شبابها، ورجعت إلى أبيها، فصنع

بها كما نذر. وبقي يفتاح قاضيا ست سنين(١). وقيل أن يفتاح أشار عليه اكابره وخواصه بأن يمضي إلى فنحاس النبي بن العازر بن هارون [١٩٠] لعله يفتيه بما يخلص به ابنته، فمنعه عزالملك أن يمضي إليه، وفنحاس لم يأت إليه لشرف النبوة.

وفي ذلك الزمان كانت مجاعة عظيمة في أرض اليونانيين، فمات الناس من الجوع حتى امتلأت الطرقات والأسواق من الموتى. وكانت الكلاب تأكل من الموتى، فما كثر ذلك حفروا نواويس ودفنوا الموتى فيها. وهم أول من حفر النواويس.

ثم ابيصان وقيل افصان، وهو يعشور من بيت لحم، وصار قاضياً وكان له ثلاثون ذكراً من أولاده وثلاثون إناثاً. فزوج أولاده الجميع ذكروهم وإناثهم، واستقر قاضياً سبع سنين. ومات ودفن في بيت لحم(٢).

ثم الكور بن زابلون، وهو من سبط زابلون صار قاضياً عشر سنين(٣).

ثم عجران بن هليان الاقراباني، وقيل عيدون بن هلال، صار قاضياً على بني إسرائيل، وكان له أربعون ابناً، وثلاثون بنو أبيه. وكانـــوا يركبون سبعين مهراً، وبقي قاضياً ثمان سنين، ومات ودفن في عيون في أرض أفرام في جبل العمالقة(٤).

ثم شمشوم الجبار، كانت أمه عاقراً فجاءها ملك وقال لها: لا تشربي خمراً ولا

(١) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١١ ـ ١٢.
(٢) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح١٢، الآيات ٨ ـ ١٠.
(٣) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٢، الآية ١١.
(٤) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٢، الآيات ١٢ ـ ١٥.

مسكراً، ولا تأكلين نجساً وأنت تحبلين وتلدين ولداً، ويكون حصوراً ولا تحلقي رأسه. وهو يخلص بني إسرائيل. فقالت لمتوخ زوجها، فاشتهى زوجها أن يرى الملك فرآه وبشره بذلك، وبعد ذلك جامعها، فولدت ابناً وسمته شمشوم، وشبَّ ورأى امرأة من بنات فلسطين فطلب إلى والدته أن يتزوجها. فخرج والده معه ليخطب له المرأة، فرأى في الطريق شبل أسد يزأر، فوثب عليه وفسخه كما يفسخ الجدي بلا سيف ولا عصا، ونزلوا فكلموا المرأة، فتزوجها وظهرت نجابته، وكان أهل فلسطين تعبدوا بني إسرائيل وتسلطوا عليهم إلى أن ظهر شمشوم، فأذاقهم الوبال، وحرق زروعهم، وبدّد جموعهم. وله أخبار كثيرة أضربنا عنها [١٩١] لطولها. ومات ودفن بأقريطية. وعاش سبعمائة وثمانين سنة[١].

ثم ميخا، وبعد ذلك أقام بنو إسرائيل بغير مدبر ثمان سنين، وكان كل إنسان منهم يعمل ما يريد. وكان عابداً متجاهداً عابداً زاهداً، فدبّر أمرهم[٢].

ثم عالي الكاهن، بقي قاضياً على بني إسرائيل أربعين سنة، وكان قد كبر وثقلت عيناه، وكان ذا رأي سديد وعقل راجح مديد[٣].

ثم شموال النبي بن هلقانا، ويقال صموئيل، دبّر بني إسرائيل عشرين سنة، فصدقوا قوله وشكروا فعله، وكان شديد الطاعة لله تعالى، وعلم ذلك منه بنو إسرائيل، فصدقوا قوله، وشكروا فعله. وبعد مضي عشرين سنة له معهم أقبل عليهم وقال لهم: إن كنتم تقبلون على الله بقلوبكم، فاصرفوا عنكم الآلهة المعبدة عنه، المقربة إلى سخطه، لينجيكم من أهل فلسطين، ففعلوا كذلك، ونهضوا إلى أهل فلسطين، فهزموهم وقتلوا منهم خلق كثيراً. وردّ شمويل على بني إسرائيل جميع القرى التي كانوا أخذوها منهم[٤].

---

(١) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٣ ـ ١٦.

(٢) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٧.

(٣) التوراة، سفر القضاة، الإصحاح ١٨ ـ ١٩.

(٤) التوراة، سفر صموئيل الأول.

ثم شاؤول بن قيس، وهو أول ملوك بني إسرائيل من بني بنيامين[1]، وذلك بإشارة شمؤيل النبي المقدم ذكره، وكان جملتهم ثلاثمائة ألف رجل، ومن آل يهوذا ثلاثين ألفاً، وهجم على عسكر بني عمون، فقتل عامتهم، ومن بقي هرب. وخافوا شاؤول من ذلك الوقت[2].

ثم داود النبي بن ينشا من سبط يهوذا، ملك على آل يهوذا بحبرون سبع سنين وستة اشهر، ثم ملك على جميع بني إسرائيل ثلاث وثلاثين سنة، فجميع ملكه أربعون سنة وستة أشهر. ولما مات شاؤول، وصح ذلك عند داود شق ذلك عليه فقطع ثوبه وكذلك جميع من معه، وبكوا على شاؤول وناحوا [١٩٢] وصاموا، فأمر الله داودﷺ أن يصعد إلى حران أرض يهوذا. وكان لشاؤول ولد كان عمره أربعين سنة، وكان ببروشليم ملكاً على بني إسرائيل، وبقي سنتين، وكان بين داود وبين هذا حروب كثيرة، وبعد ذلك أشار أكابر الجماعة على ولد شاؤول بمصالحة داود، فسمع قولهم، وأرسل إلى داود وطلب معاهدته، ثم إن ولد شاؤول أغضب أكثر قواده فقتلوه وأتوا برأسه إلى داود، فقتل داود قاتله، وقطع أيديهم وأرجلهم وسلبهم، فاجتمع بنو إسرائيل إلى داود فصيروه ملكاً عليهم وعمره حينئذ ثلاثون سنة. وحارب أهل فلسطين والمؤابيين والأدوميين وغيرهم، وظفره الله بهم وقتل منهم كثيراً وصاروا له عبيداً يؤدون الخراج، ورتب نواباً بدمشق، وصار الدمشقيون عبيداً له، وسمع به ملك انطاكية، فأرسل إليه ولده بهدايا كثيرة من آلات ذهب وفضة ونحاس. وبنى داود مدينة صهيون وسكنها، ونقل التابوت إليها، وكان في أيامه ناتان وأصاف وابيتار عظيم الكهنة. ولما استراح داود قال لناتان النبي أني ساكن في بيت مسقف بالأرز وتابوت السكينة في خيمة، فأوحى الله إلى ناتان النبي لا يبن لي بيتاً لأنه مارس الحرب، وأنا أخلق من صلبه ولداً وهو الذي يني لي بيتاً[3].

وروي أن داود جاء إلى ناحية دمشق وقتل جالوت عند قصر أم حكيم، وملكه

---

(١) «من بني بنيامين» ساقطة من ب.

(٢) التوراة، سفر صموئيل الأول، الإصحاح ١١ وما بعده.

(٣) التوراة، سفر صموئيل الثاني، وهذه هي الرؤية التورانية لحكم داود عليه السلام.

الله تعالى على بني إسرائيل بعد طالوت[1].

وذكر الكلبي أن داود كان له أربعة أخوة خرجوا مع طالوت وتخلف أبوهم وكان شيخاً كبيراً وأمسك داود يرعى غنماً له فنودي: يا داود أنت قاتل جالوت فما تصنع ها هنا؟ استودع غنمك ربك عزوجل، والحق باخوتك، فإن طالوت قد جعل لمن يقتل جالوت نصف ماله، ويزوجه ابنته [١٩٣]. فخرج داود ومعه عصاه ومخلاته ومرجمته وهي القدافة وهي المقلاع الذي يرمي به السباع عن غنمه، وأنفذ معه أبوه زاداً لاخوته، فبينا هو يمشي ناداه حجر ثم آخر ثم آخر، كل واحد منهما يقول يا داود احملني أنا قاتل جالوت بإذن الله. فقال داود: كيف تقتله؟ فقال: استعين بالريح فتلقي بيضته وأصيب جبهته، فحمل الثلاثة في مخلاته، فلما تقدم داود أدخل يده في مخلاته فإذا تلك الحجارة الثلاثة صارت واحداً، فوضعه في مقلاعه وكبر، فأجابه الخلق غير الثقلين، فسمع جالوت وجنده شيئاً ظنوا أن الله تعالى حشر عليهم أهل الدنيا، وهبت ريح فأظلمت عليهم، وألقت بيضة جالوت، وقذف داود الحجر فصار ثلاثة، فأصاب أحدها جبهته جالوت فأنفذها فوقع قتيلاً وأصاب الآخران الميمنة والميسرة، فظنوا أن الجبال قد خرت عليهم، فانهزموا فقتل بعضهم بعضاً، فانصرف طالوت ببني إسرائيل مظفراً، فزوج ابنته من داود عليه السلام، وقاسمه نصف ماله[2].

وروى أنه افتخر عند رسول الله ﷺ أصحاب الإبل وأصحاب الغنم. فقال رسول الله ﷺ: بعث داود وهو راعي غنم، وبعث موسى وهو راعي غنم، وبعثت أنا وأنا أرعى غنماً لأهلي بأجياد[3].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أنزلت الصحف على إبراهيم في ليلتين من رمضان، وأنزل الزبور على داود في ست، وأنزلت التوراة لثماني عشرة من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين من رمضان[4].

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٠/١٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨١/١٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٢/١٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق/ ٨٤/١٧.

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: كان لقمان يؤازر داود بالحكمة. قال له داود: طوبى لك يا لقمان، أوتيت الحكمة وصرفت عنك البلية، وأوتي داود الخلافة، وابتلى بالرزية(١).

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: كان داود يقول اللهم إني(٢) أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم [١٩٤] اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد(٣).

قال: وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر داود وحدّث عنه يقول: كان داود أعبد البشر(٤).

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير الناس. قال: ذاك إبراهيم. قال: يا أعبد الناس. قال: ذاك داود(٥).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: خير الصيام صيام داود، كان يصوم نصف الدهر، وخير الصلاة صلاة داود، كان يرقد نصف الليل الأول، ويصلي آخر الليل، حتى إذا بقي سدس الليل رقده(٦). وفي رواية كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى. وفي أخرى: فإنه أعدل الصيام عند الله عز وجل(٧).

وكان سفيان: سألت الأعمش عن قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾(٨). قال: مثل الخيوط(٩).

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٦/١٧.
(٢) ساقطة من ب.
(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٦/١٧.
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٦/١٧.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٦/١٧.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٧/١٧.
(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨٧/١٧.
(٨) سورة سبأ، الآية ١٠.
(٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٠/١٧.

وقال قتادة: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[1] قال: كانت صفائح، وأول من سردها وحلقها داود[2].

وقال وهب: أقام داود عليه السلام صدراً من زمانه على عبادة ربه ورحمته للمساكين وكان قلّ أن يكون يوم إلا وهو يخرج منكراً لا يعرف، فإذا لقي القدام سألهم عن مقدمهم، ثم يقول: أرأيتم داود النبي، كيف حاله مع أمته وهل تنقمون من أمره شيئاً. فيقولون: لا هو خير خلق الله عز وجل لنفسه وأمته حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل قادم، فلقيه داود فسأله عما كان يسأل غيره. فقال: هو خير الناس لنفسه وأمته إلَّا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً. فقال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله، فالآن الله عز وجل له الحديد، وعلمه صنعة الدروع وعمل الدرع، وهو أول من عملها، فإذا ارتفع من عمله درع باعها فتصدق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله وأمسك الثلث يتصدق بها يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها[3].

وقال: إن الله عز وجل أعطى داود شيئاً [١٩٥] لم يعطه غيره من حسن الصوت كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش وتصغي إليه حتى تؤخذ بأعناقها وما تنفر وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلَّا على أصناف صوته، وكان شديد الاجتهاد. وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة، كأنما ينفخ في المزامير وكان قد أعطي سبعين مزماراً في حلقه، وكان قد هوّن عليه القرآن، وكان يأمر بدابته فتسرح فيكمل القرآن حين يقدم إليه[4].

وقال هشام بن عروة: كان داود النبي عليه السلام يخطب الناس، وهو نبي وهو يعمل قفة ويقول لبعض من يليه اذهب فبعها[5].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٠.
(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩١/١٧.
(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩١/١٧.
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩١/١٧ - ٩٢.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٢/١٧.

قال أبو الزاهرية: كان داود النبي عليه السلام يعمل القفاف فيبيعها ويأكل ثمنها. وكان موسعاً عليه[1].

وقال ثابت البناني: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار فما ثم ساعة إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فعمهم الله تعالى في هذه الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2].

قال مسعر: لما قيل لهم اعملوا آل داود شكراً لم تأت على القوم ساعة إلا ومنهم مصل[3].

قال ثابت: كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ثم يركع ثم يرفع رأسه ثم يقول: إليك رفعت رأسي يا رافع السماء، نظر العبيد لأربابها[4].

وعن الزهري في قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[5] سبحي معه وفي قوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ قال: قولوا الحمد لله[6].

وعن سفيان في قوله ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾[7] ذا القوة في أمر الله[8].

وقال وهيب بن الورد: كان داود عليه السلام قد جعل الليل عليه وعلى أهل بيته دولاً لا تمر ساعة من الليل إلا وفي بيته ساجد وذاكر[9].

قال صدقة بن بشار: كان داود يوماً في محرابه، فنظر إلى دودة صغيرة، فعجب

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٢/١٧.

(٢) سورة سبأ، الآية ١٣، والخبر في ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٣/١٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٣/١٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٣/١٧.

(٥) سورة سبأ، الآية ١٠.

(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٣/١٧.

(٧) سورة ص، الآية ١٧.

(٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٤/١٧.

(٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٤/١٧.

من خلقها، فأنطقها الله عز وجل. فقالت: يا داود، أنا على صغري أطوع لله منك على كبرك. وفي رواية: أنا على ما أتاني الله من فضله(١).

قال عبد [١٩٦] الوهاب بن حفص: أمسى داود عليه السلام صائماً، فلما كان عند إفطاره، أتى بشربة لبن، فقال: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: من شاة لنا. قال: ومن أين لكم شاة؟ قالوا: اشتريناها. فلم تسألنا يا نبي الله؟ قال: أنا معاشر الرسل أمرنا أن نأكل من الطيبات، وان نعمل صالحاً(٢).

قال مغيرة بن عتيبة: قال داود: يا رب، كيف أطيق شكرك وأنت تنعم عليّ، ثم ترزقني الشكر على النعمة، ثم تزيدني نعمة بعد نعمة. فالنعمة منك يا رب والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتني يا داود حق معرفتي(٣).

قال أبو سعيد المقبري: قال داود: يا رب قد أنعمت عليَّ كثير، فدلني على أن أشكرك. فأوحى الله إليه تذكرني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني(٤).

قال فضيل بن عياض: قال داود عليه السلام: كيف لي أن أشكرك إلَّا بنعمتك، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه إذا علمت أن ثيابك من النعمة فقد شكرتني(٥).

قال سعيد بن عبدالعزيز: كان داود يقول: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء(٦).

قال الحسن: قال داود النبي: لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار وما قضيتا نعمة منك(٧).

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٤/١٧ - ٩٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٦/١٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٦/١٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٧/١٧.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٧/١٧.

(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٨/١٧.

(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٨/١٧.

قال الأوزاعي: حدثني عبدالله بن عامر قال: أُعطي داودﷺ من حسن الصوت ما لم يعط أحد فقط حتى إن كانت الطيور والوحش لتعكف حوله حتى تموت عطشاً وجوعاً. وأن الأنهار لتقف[1].

قال وهب بن منبه: كان داود إذا قرأ الزبور لم يسمعه شيء إلا جلجل كهيئة الرقص[2].

قال ابن عائشة: كان لداود صوت يطرب المحموم ويسلي الثكلى، وتصغي إليه الوحوش حتى تؤخذ بأعناقها وما تشعر[3].

وعن مالك قال: كان داودﷺ إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى[4].

وعن ابن جريج قال: سألت عطاء عن القراءة على الغناء، فقال: وما بأس بذلك [١٩٧] حدثني عبيد بن عمير أن داودﷺ كان يأخذ المغرفة فيضرب بها، ثم يقرأ فترد عليه صوته يلتمس بذلك أن يَبكي ويُبكى وفي هذا نظر[5].

قال وهب بن منبه: أن بدأ ما صنعت المزامير والبرابط والصنوج على صوت داود، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله قط فتعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً، فخرج إبليس مذعوراً لما رأى من استيناس الناس والدواب بصوت داود بالزبور، فدعا عفاريته فاتخذوا المزامير والبرابط والصنوج على أصناف صوته، فلما رأى ذلك غواة الناس والجن انصرفوا إليهم، وانصرف الدواب والطير أيضاً. وقام داود في بني إسرائيل يحكم فيهم بأمر الله نبياً حكيماً عابداً مجتهداً، وكان أشد الأنبياء اجتهاداً وأكثرهم بكاءً حتى مات[6].

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٩/١٧.
(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٩/١٧.
(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٩٩/١٧.
(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠٠/١٧.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠١/١٧.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠٠/١٧.

وحكى جهلة القصاص أنه عرض له من فتنة تلك المرأة ما عرض وحاشاه.

وعن أبي موسى الأشعري قال: داود أول من قال: أما بعد، وهو فصل الخطاب[1].

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[2] قال: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه[3].

وعن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود. فقال: إن هذا غصبني بقراً لي. فسأل الرجل داود عن ذلك. فجحده، فسأل الآخر البينة، فلم تكن له بينة. فأوحى الله عز وجل إلى داود في منامه أن يقتل الرجل الذي استعدى عليه، فأرسل داود إليه. فقال: لا تعجل عليَّ أخبرك، أني والله ما أخذت بهذا الذنب فأرسل داود إليه فقال: لا تعجل عليَّ أخبرك، أني والله ما أخذت بهذا الذنب، ولكني كنت اغتلت أبا هذا فقتلته، فبذلك أخذت، فأمر به داود فقتل، فاشتدت هيبة بني إسرائيل لداود عند ذلك. وهو قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾[4].

قال وهب بن منبه: لما كثر الشر في بني إسرائيل وشهادات الزور، أعطى الله تعالى لداود عليه السلام [١٩٨] سلسلة لفصل الخطاب، وكانت من ذهب معلقة من السماء إلى الأرض بحبال الصخرة إلى بيت المقدس، فإذا تشاجر اثنان في شيء قال لهما داود: اذهبا إلى السلسلة، فكان أولاهما بالعدل ينالها، وإن قصيراً قال: فاستودع رجل لؤلؤة لها خطر، ثم ابتاعها منه، فقال له: رددتها عليك، فاستعدى عليه، فانطلق المستدعى عليه فنقب عصا وجعل فيها اللؤلؤة، ثم قبض على العصا وغدا معه إلى داود، فقال داود: اذهبا إلى السلسلة، فذهبا، فجاء صاحب اللؤلؤة، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني استودعت هذا لؤلؤة فلم يردها علي، فأسألك أن أنالها، فنال السلسلة. وقال الآخر: كما

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠١/١٧.

(٢) سورة ص، الآية ٢٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠١/١٧.

(٤) سورة ص، الآية ٢٠، والخبر في ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠٢/١٧.

أنت، حتى ادعوا أنا أيضاً، فامسك عصاي هذه، فدفعها إليه. وقال: اللهم إن كنت تعلم أني دفعت إليه لؤلؤته، فأسألك أن أنالها، فنالها. فقال داود: ما هذا؟ ينالها الظالم والمظلوم، فأوحى الله إلى داود أن اللؤلؤة في العصا، فارتفعت السلسلة[1].

قال وهب: ورأى داود الملائكة سالين سيوفهم ثم يغمدونها وهم يرتقون في سلم من ذهب من الصخرة إلى السماء. فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد، فأسس داود قواعده وأراد أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنك قد صبغت يدك في الدماء، فلست ببانيه، ولكن ابناً لك أملكه بعدك اسمه سليمان، فلما ملك سليمان بناه[2].

وقال عباد بن شيبة: بلغني أن داود النبي عليه السلام خلا يوماً وقال: يا رب هجرني الناس فيك وهجرتهم لك. فأوحى الله إليه: ألا أدلك على شيء يستوي فيه وجوه الناس إليك أن تخالط الناس بأخلاقهم، وتحتجز الإيمان فيما بيني وبينك[3].

وقال وهب: كان داود يقول في مناجاته: طوبى لمن أرضاك في دار الفناء لترضيه في دار البقاء، طوبى لمن ذكر ساعة [١٩٩] موته فعمل في ساعة حياته. إلهي ما أحلا ذكرك في أفواه المخلصين.

قال أبو سليمان الداراني شهدت مع أبي الأشهب جنازة بعبادان، فسمعته يقول: أوحى الله إلى داود: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني. إن أهون ما أصنع بعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته عليَّ أن أحرمه طاعتي.

قال بشر بن الحارث: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أني لم أخلق الشهوات إلا للضعفاء من عبادي، فأما الأبطال فما لهم ولها.

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠٣/١٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠٤/١٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٠٤/١٧.

قال وهب في حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه، حتى على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه ولذته فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات، وإجماماً للقلوب. وحق على العاقل أن لا يرى ظاعناً إلا في ثلاث: زاد لمعاده، ومرمرة لمعاشه، ولذة في غير محرم[١].

وقال داود عليه السلام: رب كلام ندمت عليه وما ندمت على صمت قط. وقال: انظر ما تكره أن يذكر منك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت. وقال: لا تعدن أخاك شيئاً ثم لا تنجزه له، فإن ذلك يورث بينك وبينه عداوة[٢].

قال الكلبي: تزوج داود مائة امرأة، وتزوج سليمان سبعمائة امرأة، واتخذ ثلاثمائة سرية[٣].

قال حماد بن زيد: سمعت أبي يحدث عن بعض أشياخه قال: ربّ نظرة لأن يلقي فيها الرجل الأسد فيأكله خير له منها، وهل لقي داود عليه السلام ما لقي إلا في نظرة هذا ما حكاه القصاص مما يحاشى داود [٢٠٠] عليه السلام منه ويجل قدره عنه، وسأذكر ما ذكروه لا مصدقاً له، ولكن حاكياً، رووا عن الحسن وغيره: أن فتنة داود عليه السلام كانت يوم الاثنين بعد العصر في ثلاث عشرة مضت من شهر رجب. قالوا: بينما هو في محرابه مكبٌّ يقرأ الزبور، دخل طائر من الكوة، فوقع بين يديه، فأعجبه، وله ولد صغير، فقال: لو أخذت هذا الطائر ينظر إليه ابني، فأهوى إليه، فتباعد فما زال يدنو ويتباعد الطير[٤] حتى خرج من الكوة ورمى بنفسه في بستان أوريا، وكان في أصل المحراب حوض يغتسل فيه حيض بني إسرائيل، فاطلع داود عليه السلام، فإذا بامرأة تغتسل فأبصرت ظله،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٧٧/١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٧٨/١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٧٨/١.

(٤) ساقطة من ب.

فأسدلت شعرها، فجللت جسدها، فرجع وفي نفسه منها ما في نفسه، وكان زوجها في جيش محاصرين قلعة بالبلقاء فكتب داود إلى أمير الجيش أن يقدم أوريا مع التابوت، وكان في سنتهم أن يتقدم التابوت من كل سبط في كل عام رجل، فإما أن يفتح وإما أن يقتل، وكان من فر منهم صار لعيناً، ففعل صاحب الجيش ذلك فقتل أوريا في ثالث مرة، فلما انقضت عدة امرأته، تزوجها داود، ونزل الملكان على داود يقصان على قصته، ففطن داود، فسجد فمكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض جبينه. قلت الأصل أن هذه القضية ما وقعت، فإن كانت وقعت فحاش لله أن يأمر داود وهو نبي الله المعصوم خليفته في الأرض العدل أن يأمر بما فيه قتل رجل يريد قتله عمداً ليتزوج امرأته، ولئن كان داود أمر بتقديمه مع التابوت فهو لمصلحة اقتضت تقديمه، إما لشجاعته في اللقاء، وإما لثبات عرفه منه، إذ كان يعلم أنه لا يقوم أحد في ذلك مقامه ولا يبلي ببلاءه. على أن هذا الخبر كله من أصله مردود، وبابه عند هل الحق مسدود.

ولقد [٢٠١] تورط رجل في زماننا وأورد في هذا قول هؤلاء القصاص، فقامت قيامة مشايخنا رؤساء الشافعية بدمشق ومنهم: أبو المعالي محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب، وأبو المعالي بن الزملكاني. وعاندا كافل الممالك الشامية وناقضاه، وقد مالت حفدته برأيه لنصرة ذلك المجتري، وإقرار فرية ذلك المفتري، حتى أظهر الله عصمة أنبيائه، ونصر رسله، وعجل دمار رجل كانت تلك الفرقة المبطلة تنتظر مقدمة، وتظن أنها ستحارب الله به، وليغلبن مغالب الغلاب.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ما عمل داود عليه السلام عملاً قط كان أنفع له من خطيئه، ما زال منها خائفاً هارباً حتى لحق بربه.

قال جعفر بن سليمان: حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام يذكر ذنبه، فيخاف الله عز وجل خوفاً يفرج أعضاؤه من مواضعها، ثم يذكر عائدة الله ورأفته على أهل الذنوب، فيرجع كل عضو إلى مكانه.

وعن مجاهد قال: بكى داود أربعين يوماً حتى نبت حول رأسه عشب غيبت

رأسه، فقال: أي رب، قرحت جبهتي، وجمدت عيني، وداود لم يرجع إليه في ذنبه شيء، فنودي أجائع فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى، أم مظلوم فتنتصر. فأجيب في غير ما طلب، فلما رآه أنه لم يرجع إليه في ذنبه شيء[1]، انتحب نحبة أحرق ما كان حوله من العشب من حر جوفه، قال: يا رب، اجعل خطيئتي في كفي، فكانت مكتوبة في كفه، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا غيره إلا رآها فأبكته، وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء فإذا تناوله أبصر خطيئته، فما يضعه على شفتيه حتى يفيض من دموعه.

قال وهب: لما أصاب داود الخطيئة اعتزل فر ش الملك، ثم بكى حتى رعش وحتى خدت الدموع في خده.

قال [٢٠٢] ثابت البناني: اتخذ داود سبع حشايا من شعر، حشاهن بالرماد، ثم بكى عليها حتى أنفذها من دموع عينيه.

قال الحسن: لما أصاب الداود الخطيئة خرّ ساجداً أربعين ليلة، فقيل له: يا داود ارفع رأسك فقد غفرت لك. فقال: يا رب أنت حكم عدل، وقد قتل الرجل، قال: استوهبك فيهبك لي وأثبته في الجنة. وهذا أيضاً من قول القصاص الذي لا يتعول عليه ولا مرجع إليه. قال: وكان داود قبل خطيئته يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر، فلما كان من خطيئته ما كان، صام الدهر كله، وقام الليل كله. قال وهب: مكث حياته لا يشرب ماء إلّا مزجه بدموعه ولا يأكل طعاماً إلا بلّه بدموعه، ولا يضجع على فراش إلا أعراه بدموعه حتى انهرم، وكان لا يدفيه لحاف.

قال عبدالله بن عمير: لما قيل لداود ارفع رأسك فقد غفر لك، فرفع وجهه وما في وجهه طاقة من لحم. قال عطاء الخراساني: لما قيل لداود ارفع رأسك، فذهب ليرفع، فإذا هو قد نشب بالأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع عن الشجرة صمغها. قال: ونقش داود خطيئته في كفه لكي لا ينساها، فكان إذا رآها اضطربت يده. قال وهب: وما قام خطيباً في الناس إلّا بسط يده، واستقبل بها الناس، ليروا وسم خطيئته.

---

(١) ساقطة من ب.

قال هشام بن حسان: اتخذ داود فراشاً حشوه رماد، فبكى حتى استنقع الماء تحت جنبه بعدما نشف الرماد، فلما وجد مس الماء دخله من ذلك شيء، فقال: هذه خطيئة أخرى فخرج إلى الجبل يتعبد، فمكث فيه ستة أشهر حتى كاد يعرى، فرجع.

قال ابن بريده: لو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء داود ما عدله، ولو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء آدم حين هبط إلى الأرض ما عدله[1].

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: كان الناس يعودون [٢٠٣] داود يظنون أن به مرضاً، وما هو إلا شدة الخوف من الله عز وجل. قال يزيد الرقاشي: كان لداود جاريتان قد أعدها، فإذا جاء الخوف سقط واضطرب فقعدا على صدره ورجليه، مخافة أن تغرق أعضاؤه ومفاصله فيموت.

قال منصور بن عمار حديث عن خالد بن دريك قال: لقي داود لقمان، فقال: كيف أصبحت يا لقمان؟ قال: أصبحت في يد غيري. ففكر فيها داود، فصعق.

قال سليمان التميمي ومالك بن دينار: لما أصاب داود الخطيئة أكثر في الدعاء، فلما رأى أنه لا يستجاب له، أخذ في نوح من النياحة فرحم فغفر له.

قال يزيد القراشي: بلغني أنه كان في بني إسرائيل زمن داود أربعمائة جارية عذراء، فجئن إلى داود يوم نوحه، فقمن حيث يسمعن الصوت ولا يرين وجهه، فرفع صوته في قراءة الزبور والنياحة على نفسه حتى متن عن آخرهن، فما رأى في بني إسرائيل أكثر من باكية يومئذ. وقال: كان داود إذا أراد أن يعظ الناس خرج بهم إلى الصحراء، فخرج بهم ذات يوم في ثلاثين ألف من الناس فوعظهم فمات منهم عشرون ألفاً ورجع في عشرة آلاف من الناس مرضى.

وروي عن وهب: أن داود عليه السلام بكى على خطيئته ثلاثين سنة، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين

---

(١) «ما عدله» ساقطة من ب.

بني إسرائيل، ويوم لنسائه، ويوم يسيح في الفيافي والجبال والسواحل، ويوم يخلو مع المعتزلين، فينوح معهم على نفسه. وقيل: كان يحضر وعظه الناس، والطير والوحوش والهوام، فيموت من كل طائفة. وقال أبو عبدالله الجدلي: ما رفع داود رأسه إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات حياء من ربه. وقال بعضهم: أتى ملك الموت داودﷺ وهو يصعد في محرابه أو ينزل فقال له: جئت لأقبض نفسك، فقال: دعني حتى أنزل أو أرتقي. قال: مالي إلى ذلك [٢٠٤] سبيل، نفذت الأيام والشهور والسنين والآثار والأرزاق فما أنت بمؤثر بعده أثراً. قال: فسجد داود على مرقاة من ذلك الدرج فقبض نفسه على تلك الحال[١].

قال أبو السكن الهجري: مات خليل الله فجأة، ومات داود فجأة. ومات سليمان ابن داود فجأة والصالحون. وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الكافر[٢].

وعن الحسن: مات داود وهو ابن مائة، ومات يوم الأربعاء فجأة. زاد غيره: فعكف الطير عليه تظله. وقيل كان موته يوم السبت. وعن وهب بن منبه قال: أن الناس حضروا جنازة داودﷺ فجلسوا في الشمس في يوم صائف، وكان شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب، عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون نبي كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود. قال: فأدلفهم الحر، فنادوا سليمان أن يعجل عليهم لما أصابهم من الحر، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها فأظلت الناس، فتراص بعضهم إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح، فكاد الناس يهلكون غماً، فصاحوا بسليمانﷺ وشكوا له ذلك، فخرج سليمان فنادى الطير أن يظل الناس من ناحية الشمس، وتنحي عن ناحية الريح، ففعلت فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح، فكان ذلك من أول ما رأوا من ملك سليمان[٣].

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١/٤٨٠.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١/٤٨٠.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ١/٤٨٠ ـ ٤٨١.

فتنوا وما بدلوا، ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة(1).

وعن عبيد بن عمير قال: ما يأمن داود يوم القيامة يقول رب ذنبي ذنبي. فقال له: أدنه ثلاث مرات، حتى يبلغ مكاناً الله أعلم به، فكأنه يأمن فيه فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾(2).

وقال مالك بن دينار: يقيم الله عز وجل داود عند ساق العرش [٢٠٥] فيقول: مجدني يا داود بذلك الصوت الحسن الرخيم الذين كنت تمجدني به في الدنيا، فيندفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنة. وقال: والرخيم من الأصوات الشجي(3).

وعن عكرمة أن داود يقوم على أطول سور في الجنة ينادي: لا إله إلا الله. وقال بعض المؤرخين: ولما حضرت داود الوفاة، دعا سليمان عليه السلام وقال له: أنا منصرف عنك، فاتق الله، واحفظ شرائع الله واسلك طرائقها لتنجح، وكل شيء تحتاج إليه لبناء البيت قد أعددته لك، فمن الذهب مائة ألف بدرة ومن الفضة ألف ألف بدرة، ومن النحاس والحديد والخشب والحجارة مالا ينحصر بعدد. وقيل: بل قال له: وقد جمعت مال النفقة بضعفي ومسكني وهو ألف ألف بدرة من ذهب وألف ألف بدرة من فضة. وقال هذا لإدهان حيطان البيت.

ثم سليمان بن داود عليه السلام، أمه امرأة أوريا المتقدم ذكره كما يقال ملك على جميع بني إسرائيل، وكان عمره حين ملك اثني عشرة سنة، وجلس في موضع داود عليه السلام، وثبت ملكه واستقامت له الأشياء، وسأل ربه أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فسخر الله له الأنس والجن والطير والريح، غدوها شهراً ورواحها شهراً، وكان قد جلس سليمان عليه السلام للحكم في بعض الأيام عند ابتداء أمره، فجاءت إليه امرأتان فقالت إحداهما: كنت أنا وهذه المرأة ساكنتين في بيت واحد. فولدت أنا ابناً، وبعد ثلاثة أيام ولدت هي أيضاً ابناً فرقدت على ولدها وهي نائمة، فمات، وأخذت ابني وأنا نائمة

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٨١/١.

(2) سورة ص، الآية ٤٠.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية: ٤٧٦/١.

فصيرته في حضنها، وصيرت ابنها الميت عندي، فلما انتبهت، لم أجد ابني ووجدت هذا وهو ابنها، والذي في حضنها هو ولدي. فقالت لها الأخرى: بل ابنك الميت وابني هو الحي، فاستدعى سليمان عليه السلام سيفاً، وأمر أن يقطع [٢٠٦] الصبي الحي نصفين ويعطي لكل واحدة نصفه، فقالت أم الصبي من شفقتها عليه: لا تقطعه يا نبي الله، وقالت الأخرى: لا لي ولا لك، فأعطاه للتي أشفقت عليه، فخاف منه جميع بني إسرائيل، وعلموا أن له أمراً من قبل الله عز وجل.

وكان لسليمان عليه السلام اثنا عشر وكيلاً يحملون النفقة من بني إسرائيل، وينفقون عليه لكل واحد شهراً من السنة. وكان متسلطاً على جميع الممالك التي في مجاز نهر الفرات، وكان يهدون إليه الهدايا ويتقربون إليه بالخدمة ويلاطفونه. وأعطاه الله الحكمة والنبوة، وفاقت حكمته حكمة أهل المشرق وأهل المغرب، وشاع خبره في الأقطار. ولما كمل لسليمان في الملك أربع سنين، أراد أن يبني البيت، فأرسل إلى حيرام ملك صور، فقال له: أن أبي لم يقدر أن يبني بيتاً لله تعالى، لأنه كان مشغولاً بالحروب، وقد منعه الله عز وجل من ذلك، ووعده ببنائه على يدي من بعده، وقد نويت بناءه لربي، وأريد أن يكون عبيدك مع عبيدي على قطع خشب الصنوبر من لبنان، فليس فينا من يحسن قطع الخشب، ففرح بذلك حيرام ملك صور، وأجابه إلى ذلك، وأجرى عليهم في كل سنة عشرين ألف كرّ من الطعام وعشرين ألف كر من الزيت إلى غير ذلك مما يحتاجون إليه. وانتخب سليمان عليه السلام من بني إسرائيل سبعين ألف رجل يعملون في لبنان، وقسطهم عشرة آلاف في كل شهر، وكان له سبعون ألفاً يحملون القفاف، وثمانون ينحتون الحجارة، غير الوكلاء والمسلطين على الأعمال، وهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة. وشرط سليمان عليه السلام لبناء البيت وأسواره خراج أورشليم، وصيّر من بقي حوله من الشعب عبيداً يؤدون الخراج، وكان طول البيت ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وارتفاعه مائة ذراع. وجعل بدائره أروقة وفوقها مسطرات وجعل [٢٠٧] للبيت افريزان بدائره من خارج ولم يسمع في بنائه صوت آلة الحديد، وصفح البيت من داخله بالذهب الأبريز، وكذلك من فوقه. وصنع في بيت المقدس داروش من خشب، ولبسهما بالذهب، وعمل أبواب صنوبر لبيت المقدس، ونقش عليها النقوش العجيبة، وبنى بيتاً كبيراً لسلاحه على أربع

صفوف من أعمدة خشب الصنوبر في غاية الإتقان والإحكام، وعمل رواقاً ومنبراً ليجلس فيه للقضاء، وعمل كراسي كثيرة من عاج وألبسها ذهباً، وعمل لها ست درجات. وحين تم له بناء البيت، شكر الله وصلى له وتضرع بين يديه، ودعا لبني إسرائيل ولكل من حضر البيت، وأمرهم بالاستغفار والالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء في أن يغفر لهم ويعينهم على أعدائهم. فأوحى الله إليه أن ثبت على عهدي مثل داود أبيك فملكك يدوم على بني إسرائيل، وأن نفضت عهدي وخالفت أمري أزيل ملكك وأبيد بني إسرائيل من الأرض حتى يكونوا مثلاً، وأخرب البيت الذي بنيته لي وأقلعه من الأرض. وعمل سليمان وليمة عظيمة أسبوعين، ذبح فيها من البقر اثنين وعشرين ألفاً، ومن الغنم ثلاثة وعشرين ألفاً. وكان بنو إسرائيل كلهم من مدخل حما إلى مدخل وادي مصر، وبعد ذلك صرفهم إلى منازلهم وقلوبهم طيبة، وتحصل له من الذهب كثير، وكانت أوعيته كلها مملوءة، ولم تكن الفضة تعد شيئاً[1]. وكان يجمع إليه في السنة من الذهب والذخائر مالا يعد ولا يحصى، وهدايا الملوك كانت تأتيه. وكانت له سفن تأتيه من الهند في كل ثلاث سنين بالذهب والفضة والأفيلة والطواويس. وفاق الملوك بالغنى والحكمة. وكانت الملوك تشتاق إلى نظره وسماع حكمته[2]. وسمعت ملكة سبأ بحكم سليمان عليه السلام فجاءت إليه في جيش كثير، ومعها جمال موقورة ذهباً وجوهراً وعنبراً، ورأت البيت الذي بناه وسمعت [٢٠٨] حكمته، وقدمت له مائة وعشرين قنطاراً من الذهب وجوهراً كثيراً رفيعاً وطيباً كثيراً، فأجازها وأحسن إليها، وانصرفت إلى بلادها[3]. وكانت له سبعمائة امرأة حرة، وثلاثمائة سرية. وفي السنة الرابعة والعشرين هدمت أنطاكية، وبنى تدمر بالبرية، وكانت خربة وململك سليمان على بني إسرائيل أربعين سنة، وكان في أيامه من الأنبياء فاتان وأحيا وعظيم الكهنة صادوق، وكان وزيره يشوع بن شيراخ وهو جمع كتب سليمان وجعلها خمسة أسفار، منها أدب وأمثال وحكمة جامعة. وليشوع وزيره

(١) التوراة، سفر الملوك الأول، الإصحاح ٥ ـ ٩.

(٢) التوراة، سفر الملوك الأول، الإصحاح ٩، الآيات ١٠ ـ ٢٨.

(٣) التوراة، سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٠.

كتاب مفرد معروف محتو على فنون من الحكمة وجواهر الكلام، ومات سليمان ودفن مع أبيه حيث دفن عليهما السلام.

ولما غلب سليمان والد جراده الملك وقتله واصطفى جراده لنفسه، وكانت من أجمل الناس، وأحبها حباً شديداً، وكانت لا تزال تبكي أباها. قال القصاص -ونحن نخليه ولا نصدقه ـ قالوا: فوجد لذلك سليمان حتى سألته أن يأمر الجن أن يصوروا لها صورة أبيها لعلها تسكن، فأمر سليمان بذلك، فعمدت إلى الصورة ولبستها وعممتها، وجعلت تسجد لها هي وأولادها غدوة وعشية، وبلغ ذلك آصف، وكان صديقاً، فاعمله بذلك فكسر سليمان الصنم، وعاقب المرأة، فسلبه الله خاتمه، قالوا:وكان من حديثه أنه لما غزا جزيرة صيدون، وكان دله عليها بعض الجن، وهذه الجزيرة مسيرة شهر في مثله، وصيدون هذا كان ملكاً كبيراً وكان في هذه الجزيرة عجائب كثيرة ومصانع رفيعة وأنهار وأشجار، وكان صيدون ساحراً، وكانت الجن تطيف به وتعمل له العجائب، وكان له في وسط الجزيرة مجلس من ذهب على عمد من رفيع الجوهر مشرف على جميع الجزائر، فلما أخذ سليمان الجزيرة وخربها وقتل [٢٠٩] ملكها وقتل أكثر أهلها، لأنهم كانوا يعبدونه، وأسر منهم خلقاً كثيراً، فآمنوا به، وأسر ابنة لصيدون ولم يكن على وجه الأرض أجمل وجهاً منها ولا أكمل جمالاً وظرفاً، فاصطفاها لنفسه، وتزوجها، وكانت تديم البكاء لمفارقة أبيها وأنس مملكته، فقال لها سليمان: مالي أراك كئيبة، وأنا خير لك من أبيك، وملكي أجلُّ من ملكه. قالت: أجل، ولكن إذا ذكرت كوني مع أبي وانسي به، هاج لي ذلك حزناً شديداً. ووجداً، فلو أمرت الشياطين أن يصوروا صورته في مجلس مثل المجلس الذي كان فيه. وكان المتولي لذلك شيطان يصحب أباها، وهو الذي أشار عليها بذلك. فكان كذلك المجلس والصورة في مقاصيرها التي صنع لها سليمان، وقد غرس لها فيها بدائع الأشجار، وفجر لها بها الأنهار في قني من ذهب وفضة مطوقة بأصناف الجواهر، فعمدت إلى صورة أبيها، فألبستها أصناف الحرير من الثياب المنسوجة بالذهب، وجعلت على رأسه إكليلاً من الجوهر النفيس، وألبسته تاجاً منظوماً بالجوهر الفاخر الملون، وجعلت حوله مساند الديباج المذهب، ونثرت عليه سحيق المسك، وأوقدت بين يديه مجامر تدخن بالعنبر الطيب، وفرشت بحذائه على بعد

منه أصناف الأفاوية والرياحين، فكانت تدخل عليه بكرة وعشية فتسجد له مع جميع وصائفها، كما كانت تصنع لأبيها، وكان قد دخل في هذا الصنم شيطان يخاطب المرأة بلسان أبيها، ويقول لها: قد أحسنت فيما فعلت، وما فقدت بك شيئاً، فاتصل أمره بآصف بن برخيا، وكان كاتب سليمان ومن أهله، وهو الذي كان عنده علم من الكتاب، وهو الذي أحضر عرش بلقيس، وكان علم موضع المرأة من قلب سليمان وحبه لها، فلم يدر كيف يتوصل إلى تعريفه بما أحدثت عنده إلى أن اتجه له وجه ذلك، فقال: يا نبي الله، أني كبرت، وإني لا آمن من الموت، وقد أردت أن [٢١٠] أقوم مقاماً أذكر فيه الأنبياء واثني عليهم، وتأمر بإحضار بني إسرائيل ووجوه الناس فيجلسون في مراتبهم، فأجابه سليمان إلى ذلك، فقام آصف على المنبر فخطب وحمد الله تعالى وأثنى عليه، وأقبل يذكر الأنبياء نبياً نبياً ويثني عليهم، على كل واحد في صغره وكبره ومدة أيامه، إلى أن بلغ داود، فأثنى عليه واستغفر له، ثم ذكر سليمان، وأثنى عليه في صغره خاصة، ولم يذكره في كبره، ولا ذكر شيئاً من أيامه بخير ولا شر، فتفطن لذلك سليمان، فاستدعاه خالياً، وأوقفه على ذلك، فقال: ذكرت ما علمت، فلما ألحّ عليه قال له: وبما استحققت أن أثني عليك، وفي أيامك غير الله يعبد في دارك منذ أربعين يوماً، وما هذا جزاء نعمة الله عليك، ولا شكر تمليكه لك، فارتاع لذلك سليمان، وقام فعاقب المرأة وكسر الصنم، وهرب شيطانه فظفر به بعد ذلك فسجنه(١).

وفتن سليمان لذلك وأخذت الجن خاتمه، فخرج من ملكه، فكان يطوف ببني إسرائيل فينكرونه، ثم ردّ الله عليه ملكه وخاتمه بعد أربعين يوماً، وهي عدد الأيام التي سجدت فيها المرأة للصنم، ثم أن المرأة ثابت وصح إسلامها، وكان ولد سليمان منها وهي جرادة المسامة قبل هذا(٢).

وذكر أن سليمان كان إذا رأى شجرة نابتة بالأرض المقدسة، يقول لها: ما اسمك، ولأي شيء أنت؟ فإن كانت لدواء كتبت وعلمت، فبينا هو يصلي رأى شجرة

---

(١) الخبر بطوله في ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٤٢/٢٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٤٩/٢٢.

نابتة، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال لها: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سليمان: اللهم غُمَّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، فنحت الجريد واتخذها عصاً، وتوكأ عليها ميتاً حولاً. قال: فسلطت الأرضة على العصا فأكلتها، فسقط سليمان عليه السلام عنها، فعلمت الجن أنه قد مات، فشكرت الجن الأرضة، فهي التي تأتيها بالماء، وتنقل إليها الطين حيث كانت[1].

ثم [٢١١] **راحبعام بن سليمان عليه السلام**. وهو الرابع من ملوك بني إسرائيل، ملك بعد أبيه على آل يهوذا سبعة عشر سنة، وكان عمره حين ملك اثنين وأربعين سنة. وفي أول سنة من ملكه اجتمع إليه بنو إسرائيل وقالوا له: أن أباك شد علينا ضرائبه فخففها أنت ونطيعك، فاستشار المشايخ الذين كانوا يخدمون أباه، فأشاروا عليه بأن يطيب قلوبهم ويكلمهم كلاماً ليناً ليطيعوه، فتركهم واستشار الأحداث الذين كانوا معه فلم يوافقوهم، وقالوا له: قل لهم أن خنصري أغلظ من إبهام أبي، فإن كان شدد عليكم ضرائبه، فأنا أزيد عليه واستعبدكم، فلما قال لهم ذلك، انصرفوا إلى قراهم. وقالوا: ليس لنا قيمة مع بيت داود، فأرسلوا إلى يوريعام بن ناباط الأقرباني ليجعلوه ملكاً عليهم. وأما بنو يهوذا فارتضوا راحبعام ملكاً عليهم. وبعث راحبعام نائبه إلى بني إسرائيل ليجمع الخراج على عادة أبيه، فرجموه إلى أن مات، وعصى بنو إسرائيل آل داود إلى اليوم. ولم تتبع راحبعام سوا سبط يهوذا وقبيلة بنيامين، فاجتمع له منهم مائة ألف وثمانون ألفاً من الرجال لحرب بني إسرائيل الخارجين على آل داود، ليردوا الملك إلى راحبعام، فأوحى الله تعالى إلى شمعيا[2] النبي وقال له: قل لآل يهوذا وبني بنيامين لا سبيل أن يصعدوا لمحاربة إخوتهم، فرجعوا وعمل بنو إسرائيل القبائح وارتكبوا السيئات، واتخذوا المذابح للأصنام على الآكام المرتفعة، وعند ذلك لم يزل راحبعام بن سليمان يحارب يوريعام بن ناباط ملك بني إسرائيل مدة حياته[3].

وتزوج راحبعام بن سليمان ثمانية وعشرين امرأة، وكانت له ثلاثون سرية، وولد

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٢٢/٢٤٩.

(٢) ب: شمعيان.

(٣) التوراة، سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٢.

أولاداً كثيرة ذكوراً وإناثاً. ومات راحبعام، ودفن في قرية داود مع أبويه عليه السلام.

ثم **أبيا بن راحبعام بن سليمان.** وهو الخامس من ملوك بني إسرائيل [٢١٢] ملك بعد أبيه على آل يهوذا ثلاث سنين، ومات وصار إلى الله ودفن مع آبائه(١).

ثم **آيسى بن أبيا بن راحبعام بن سليمان بن داود.** وهو السادس من ملوك بني إسرائيل، ملك بعد أبيه على آل يهوذا، وأحسن طريقته مع الله تعالى مثل داود أبيه، وأبعد الزناة من أرضه وقلع الأصنام، وكان سليماً في عبادة الله. ومات يوربعام بن ناباط في السنة الثانية من ملك آيسى. وملك ناداب بن يوربعام بعد أبيه على بني إسرائيل سنين، فارتكب القبيح مثل أبيه، وعبد الأصنام وعمل الخطايا، فسلط الله عليه نقسا بن أحيا فقتله وقتل آل يوربعام، وملك نقسا عوضه، وكان بين آيسى وبين نقسا ملك بني إسرائيل حروب كثيرة، فأرسل آيسى ملك آل يهوذا إلى جبرائيل ملك دمشق هدايا كثيرة وطلب منه النجدة على نقسا، وكان يبني مدينة وسماها راما، فهرب وترك البنيان، وأخذ آيسى جميع الآلات والحجارة والخشب، فبنى فيها الجواسق والقلاع التي في أرض يهوذا، ثم استراحت الأرض من الحروب في أيام آيسى مدة احتوائه على ملك يهوذا عشرين سنة. وبعد ذلك خرج عليهم زرح الهندي ملك الكوش، وهم السودان في ألف ألف مقاتل وثلاثين ألف محمل، فجمع آيسى من آل يهوذا ثلاثمائة ألف مقاتل، ومن بني بينامين مائتي ألف وثلاثين ألفاً كذلك، وحاربوا الهندي فكسروه، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا منهم سبياً عظيماً. ومات ودفن في قرية داود أبيه عليه السلام(٢).

ثم يوشافاط بن آيسى، ملك بعد أبيه على آل يهوذا، وكان عمره حين ملك خمساً وثلاثين سنة، وسار سيرة حسنة، وعبدالله عز وجل حق عبادته، واجتمع ملوك عمان وعماليق، وجميع الملوك المجاورين له ليحاربوه، فجمع رجاله، وكان عدتهم ألف [٢١٣] ألف ومائة ألف وستين ألف مقاتل، ورتب عليهم مقدمين، فخرج إليهم وهزمهم، ونهب أصحابه خيامهم وجميع ما كان معهم مدة ثلاثة أيام. وكانت لهم سفن في البحر

---

(١) التوراة، سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٥.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ١٤.

لاجتلاب الذهب والجوهر وغير ذلك من بلاد الهند، فانكسرت جميعها وهلكت، وكان ملك على بني إسرائيل في زمانه آجاب، فسار بسيرة يوربعام جده، وأقام الشرور أكثر منه. وتزوج أزيال بنت ملك صيدا، وبنى هيكلاً بسامرة، وجعل فيه باعل الصنم، وقتل أنبياء الله تعالى، وكثرت شرور بني إسرائيل، فسأل الله تعالى إيليا النبي أن لا تمطر السماء على الأرض، فأجاب الله دعاءه، فانقطعت الأمطار ثلاث سنين وستة أشهر، وأوحى الله تعالى إلى إيليا أن يمضي إلى البرية، وكانت الغربان تعوله، ثم انتقل إلى شعب فيه ماء، فأقام فيه[١] إلى أن فرغ الماء من الشعب، فأمره الله تعالى أن ينتقل إلى صارفية صرفند وعند وصوله إليها، وجد امرأة تحطب حطباً، فطلب منها ماء ليشرب فسقته، وطلب منها خبزاً ليأكل، فحلفت باسم الله تعالى أنه لم يكن عندها خبز بل يسير من دقيق وزيت أكله أنا وابني، وعند فراغه تنتظر الموت، فقال لها إيليا: اعملي منه قرصاً وآتيني به لآكل، وآتيني بجرة الدقيق وبرنية الزيت، وأنا أدعو لك ويبقى ذلك معك مملوءاً إلى أن يقع المطر فكان كذلك[٢].

ثم[٣] **ملك يورام بن يوشافاط** وهو الثامن من ملوك يهوذا، ملك على آل يهودا ثماني سنين، وكان عمره حين ملك اثنين وثلاثين سنة، وأساء السيرة بين يدي الله تعالى، وسار في طريق ملوك بني إسرائيل، لأنه تزوج بنت آجاب ملك بني إسرائيل، وعند ذلك أمر الله تعالى برفع إيليا إلى السماء، فعلم بذلك اليسع تلميذه فتبعه ولم يفارقه. وقال له إيليا: انتظرني هاهنا حتى أرجع إليك، فإن الله أرسلني إلى بيت إيل[٤]، فحلق أنه لا يفارقه وانطلق معه، ثم قال ثانية: انتظرني هاهنا، فإن الله أرسلني إلى الأردن [٢١٤] فحلف أن لا يفارقه، وانطلقا جميعاً فخرج خمسون من بني الأنبياء فقاموا مقابلتهما من يعيد وهما على شط الأردن فأخذ إيليا عمامته، فلفها وضرب بها ماء الأردن، فصار نصفين، فجاز في اليبس وجاز معه اليسع، فبينما هما يمشيان، وإذا جبل

---

(١) ب: فأقام فيه ما أقام فيه إلى أن فرغ الماء.
(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ١٧.
(٣) ساقطة من ت، ك.
(٤) ك: أريحا.

من نار ومركب من نار، وفرق ذلك بينهما، فرُفِعَ إيليا إلى السماء ورآه اليسع، فبكى ومزق ثيابه، ووقعت عمامة إيليا النبي التي كانت عليه، فأخذها ورجع إلى الأردن، فضرب بها ماء الأردن، فانقسم نصفين وجاز، فرأوه من أريحا فعظموه لذلك. وقال له أهل القرية: أن الماء الذي لنا مالح، فدعا الله تعالى فصار عذباً[1].

وكان ملك موأب يؤدي لملك بني إسرائيل قطيعة في كل سنة مائة ألف شاة ومائة ألف كبش، ثم قطعها وعصى عليه، فاجتمع ملك بني إسرائيل وملك آل يهوذا وخرجا إليه، فساروا سبعة أيام فلم يجدوا ماءً، فأرسلوا إلى اليسع النبي فعرفوه، فقال لهم: في الغد يمتلئ الوادي بالماء، وتشربوا أنتم ودوابكم، ويرفع الله المؤابين في أيديكم، فكان كذلك، فجرى الوادي بالماء، فرأى المؤابيون حمرة الماء، فظنوا أن العساكر قد اقتتلوا، وجرى دمهم في الماء، فخرجوا لينهبوا، فقام إليهم بنو إسرائيل فقتلوهم، وحرقوا قراهم[2].

وجاءت امرأة من نساء الأنبياء إلى اليسع وقالت له: إن زوجها مات، وترك عليها ديناً بسببه، وأصحاب الدين يريدون أخذ أولادها في دينهم عبيداً لهم، فقال لها اليسع: امض واجمعي الأوعية التي في بيتك واستعيري أوعية من السوق ومن جيرانك، أملؤها ماءً فتصير زيتاً، فتبيعه، وتوفين دين زوجك، وما بقي عيشي فيه أنت وأولادك، فكان كما قال[3].

وكان وقع في البلاد جوع شديد، فاجتمع إليه بنو الأنبياء فأمر حجرى تلميذه أن يطبخ لهم طعاماً ليأكلوا، فخرج أحدهم [٢١٥] إلى الغيط، فجمع من الحنظل جملة وألقاه في الطعام، فلم يقدروا أن يأكلوه لشدة مرارته، فأمر اليسع أن يلقي فيه دقيقاً، فألقوه وأكلوه فلم يجدوا مرارة، ومع ما رأوا من اليسع من الأمور الخارقة والأحوال الصادقة، ولم يقلعوا عن ما هم عليه من عبادة الأصنام، فسلط الله عليهم الجبابرة حتى

---

(١) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢١.

(٢) التوراة، سفر الملوك الثاني، الإصحاح ٣.

(٣) التوراة، سفر الملوك الثاني، الإصحاح ٤، الآيات ١ ـ ٧.

انتزعوا منهم السكينة وغلبوهم عليها، ومات ملكهم كمداً لذلك، فلم يزالوا مقهورين. ومات يورام ابن شافاط ملك آل يهوذا، ودفن في قرية داود أبيه عليه السلام[1].

ثم ملك آخزيا هو آخازيا بن يهورام من يوشافاط على آل يهوذا، وهو التاسع من ملوكهم، ملك بعد أبيه، وعمره حينئذ اثنان وعشرون سنة، فأساء السيرة في عبادة الله، ومشى على طريقة آخاب. وكان في عصره من الأنبياء: اليسع تلميذ إيليا، وعاموس ومنحا. وكان يورام ملك بني إسرائيل، فإنه خرج لحرب الأدوميين في رامة جلعاد، وخرج معه آخازيا ملك آل يهوذا لينجده، فقتلا معاً، وقيل أن الملك بقي بعده سنة واحدة بغير ملك، فسمعت عيليا أم آخازيا ملك آل يهوذا أن ابنها قتل في الحرب، فطلبت الملك لنفسها، وقتلت جميع الذكور من بيت داود، لأنها كانت من نسل إسرائيل، وملكت عيليا على آل يهوذا[2].

ثم عيليا بنت عمري، ملكت على آل يهوذا ست سنين ونصف، وكان لولدها آخازيا بن يورام بن يوشافاط ولد صغير طفل اسمه يوآش أخفته عمته أخت آخازيا ست سنين، ولم تعلم عيليا بحياته، وعلم به يوباداع الكاهن، لأنه كان متزوجاً بعمته أخت آخازيا المذكورة، وكان يتردد إليه سراً، فلما تم ليوآش سبع سنين استحضر يوباداع الكاهن القواد ورؤساء الألوف والأجناد وأدخلهم إلى بيت الله، وعرفهم بأمر الصبي، واستحلفهم [٢١٦] فلما حلفوا أظهره، فوضعوا تاج الملك على رأسه، فسمعت عيليا ضجة الناس وفرحهم، فجاءت إلى بيت الله، فرأت الملك قائماً على العمود مثل عادة الملوك والقواد بين يديه، وجميع الشعب فرحون، فمزقت ثيابها، فأمر يوباداع الكاهن بأن تقتل، فأدخلوها إلى بيت وقتلوها هناك هي ومن معها بالسيف في السنة السابعة من ملكها. ودخل بيت صنمهم فهدموه وكسروا تمثاله، وقتلوا خدامه[3].

ثم يوآش بن آخازيا، ملك على آل يهوذا أربعين سنة، وأحسن السيرة في عبادة

---

(١) التوراة، سفر الملوك الثاني، الإصحاح ٤، الآيات ٣٨ ـ ٤٣.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٢.

(٣) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٣.

الله وطاعته، وكان يسمع مشورة يوباداع الكاهن، وكان في أيامه من الأنبياء اليسع وزكريا وعوبديا فلما مضى ليوآش ثلاثة وعشرين سنة في الملك قال ليوباداع الحبر والكهنة: إلى متى يتركون بيت الله بغير رم ولا صلاح، فأمر ببنائه ورممه وأصلحه، ومات يوباداع الكاهن وعمره مائة وثلاثون سنة، ودفن في قرية داود عليه السلام. وبعد ذلك عبد يوآش الأصنام، فخرج عليه ملك الشام بجموعه وحاربه، وبعد ذلك أرسل إليه هدايا وتحفاً، فانصرف عنه. ومات يوآش قتله عبيده، ودفن في قرية داود عليه السلام[1].

ثم أموصيا، ملك بعد أبيه يوآش، وكان عمره حين ملك خمساً وعشرين سنة[2]، وملك تسعاً وعشرين سنة، فأحسن السيرة والعدل، وحين تمكن من الملك قتل العبيد الذين قتلوا أباه. ثم دخل إلى الأدوميين وقاتلهم، وقتل منهم نحو عشرين ألفاً، وفتح مسلع وظفر بها. وكان في أيامه من الأنبياء هوشع ويونان وياحوم ونباعاموص، وهو الذي وبخ بني إسرائيل على عبادة الأوثان وعبادة كواكب السماء، وأما نهواش ملك آل إسرائيل، فإنه ارتكب القبيح وأساء السيرة، وجاء نحو أموصيا فحاربه، فهزم آل يهوذا ودخل [٢١٧] ودخل ملك بني إسرائيل أورشليم، فهدم من سورها نحو أربعمائة ذراع، وأخذ الذهب والفضة والمتاع الذي في بيت الله تعالى وبيت الملك، وسبى سبياً كثيراً وعاد إلى سامرة. وكان في أيامه من الأنبياء هوشع وأموص ويوفاس. وقتل أموصيا جنده ودفن بأورشليم في قرية داود عليه السلام[3].

ثم ملك عوزيا بن أموصيا بن يوآش على آل يهوذا اثنين وخمسين سنة، وهو الثالث عشر[4] من ملوك آل يهوذا. وكان عمره حين ملك ستة عشر سنة. وأحسن سيرته في رعيته، لكنه لم يهدم المذابح، وابتلي بالبرص، فاستتر في بيته إلى يوم وفاته. وكان ابنه ينظر في أمور الناس. وهو بنى مدينة إيلة، وصيّرها لآل يهوذا. وفي سنة خمس من ملك عوزيا كان ابتداء وضع سني الكبيس كل أربع سنين كبيسة. وفي ست سنين من

---

(١) التوراة، سفر الملوك الثاني، الإصحاح ١١.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٤.

(٣) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٥.

(٤) ساقطة من ت، ك.

ملك عوزيا انقرضت مملكة الأمورانيين التي هي مملكة الموصل، وصارت المملكة إلى الموابين ناحية بابل، وبعد ثلاث وعشرين سنة من ملك عوزيا غزا قول ملك بابل مدينة سمرا التي هي مدينة ملوك أسباط بني إسرائيل العشرة فافتتحها ودفع له ملكها ألف بدرة من المال، فرجع عنه إلى المشرقين(١).

وفي زمانه ملك أردشير الأول، وانقرضت ملوك الأقريانيين، وملك على اليونانيين، وكان عوزيا بن أموصيا ملك آل يهوذا رجال جبابرة يمسكون الحراب اثنان وثلاثون ألفاً وستمائة من الرجال هؤلاء معه، والذين يسكنون البرية ثلاثمائة ألف رجل، ورجال يمسكون السيوف برسم حراسة الملك، سبعة آلاف وخمسمائة. وكانوا يقومون كل يوم يحرسون الملك، قال: وتجبر عوزيا، وكثرت أمواله ودخل إلى البيت ليطلع على أدراج الفجور، فدخل عليه كاهن وقال له: ليس هذا الموضع لك ولا [٢١٨] يجب عليك أن تطلع عليه، فانتهره عوزيا الملك وأمر أن يخرجوه. وفي تلك الساعة ظهر عليه البرص، وتغيب في بيته، ولم يظهر للناس، وأخذت له بلاد كثيرة من أجل بلاده.

وكان في أيامه من الأنبياء هوشع وأشعيا ويونان وهو يونس بن متى، هذا نبي بعثه الله إلى مدينة نينوى لينذر أهلها بالخسف، فقال: يا رب أنت إله رحيم، وأخاف أن يتوبوا فتغفر لهم، فأكون كذاباً، فهرب ونزل في سفينة ليمضي إلى برسيس، فهاج البحر، فألقوه في البحر، فابتلعه الحوت، وأقام في بطنه ثلاثة أيام، وهو يصلي ويتضرع إلى الله. وذلك قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾(٢). فأمر الله الحوت فقذفه على البر وقد تعرى عظمه، فأوحى الله إليه أن يمضي إلى نينوى وينذر أهلها بالخسف، فمضى إليها ونادى فيها بما أمره الله تعالى، فيسمع به الملك، فنزل عن سرير الملك ونزع التاج عن رأسه، ولبس مسح شعر، وأمر جميع أهل بيته أن يخرجوا إلى ظاهرها، وأن يلبسوا المسوح، ويفرشوا تحتهم الرماد ويمتنعوا عن الطعام وشرب

---

(١) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

الماء، ويتوبوا إلى الله ليرفع عنهم سخطه، ففعلوا كما أمرهم الملك، وصاموا ثلاثة أيام بلياليها هم وبهائمهم وأولادهم، وتضرعوا وصرخوا إلى الله ورجعوا عن خطاياهم، فرفع الله غضبه عنهم. وكان يونس قد طلع إلى جبل مشرف عالٍ ليشرف على نينوى لينظر ما يكون منها، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين لتمنع عنه السموم. وفي اليوم الرابع أمر الله الدودة أن تقطع أصل اليقطين، وأمر ريح السموم أن تمر عليه، فضاقت نفسه وبكى وقال: أن الموت خير من هذه الحياة، فأوحى الله إليه أنك قد تأسفت على ورق اليقطين الذي لم تزرعه ولم تتعب عليه، فكيف لا أرحم أنا مدينة نينوى التي فيها اثنا عشر ألف ربوة من الناس [٢١٩] لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم لا تحصى، هكذا نقل بعض المؤرخين. ويونس هذا هو الذي قال الله فيه في قومه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[1].

ثم يوثام بن عوزيا، ملك على آل يهوذا، واستمر ملكه ببورشليم ست عشرة سنة. وكان عمره حين ملك خمساً وعشرين سنة، وأحسن يوثام السيرة، وبسط العدل في رعيته، وبنى باب البيت الأعلى، وبنى ضياعاً في أرض يهوذا ومتنزهات وجواسق، وكان يحارب بني عمون وقوي عليهم، فخافوا منه، فأعطوه قطيعة في كل سنة مائة بدرة مالاً وعشرة آلاف كرّ حنطة ومثلها شعيراً. وعظم أمر يوتام جداً، لأنه أصلح سيرته. وكان في أيامه عدة أنبياء. ومات ودفن في قرية داود عليه السلام[2].

ثم أحازيا بن يوثام، ملك آل يهوذا ست عشرة سنة، وكان عمره حين ملك عشرين سنة. وقيل خمسة وعشرون. ولم تحسن سيرته، وسجد للأصنام وعبدها، وسيّر مالاً لملك الموصل، واستنجد به على ملك أدوم، فجاء وحصر دمشق، وأخذها وسبى كل من بها، وعاد إلى بلاده[3].

---

(١) سورة يونس، الآية ٩٨.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٧.

(٣) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٨.

وفي زمانه ملك على الروم الذين هم الإفرنجة غير اليوناني رومانس وروبالوس، وهما أول من ملك على الفرنج. وبنى مدينة عظيمة وسماها رومية باسمه، وكان أخوه روبالس شريكه في الملك فقتله، وحين قتله ظهرت الزلازل في المدينة إلى أن كادت تنقلب فتضرع رومانس إلى الله تعالى أن تسكن الزلازل، فرأى في نومه أن الزلازل لا تسكن إلا أن يجلس أخاه معه على كرسي المملكة. فأشار أكابر المملكة أن يعمل صورة أخيه من ذهب ويجلسه معه على سرير المملكة. وصار إذا تكلم بكلام أمر أو نهي تكلم عنه وعن أخيه، فيقول: قد أمرنا بكذا أو نهينا عن [٢٢٠] كذا، وصارت هذه لغة ملوك الروم إلى الآن، ولما أجلس الصورة معه على السرير سكنت الزلازل. وفي أيام أخازيا ملك يهودا كانت أنبياء منهم: هوشع واشعيا وميخا المرسامي. ومات أخازيا ودفن في قرية داود عليه السلام.

ثم حزقيا بن أخازيا، ملك آل يهوذا، بيروشليم تسعة وعشرين، وكان عمره حين ملك خمس وعشرين سنة وسار سيرة حسنة، وعمل الحسنات كداود أبيه ورمى الأصنام وقلع مذابحها، وقطع حية النحاس التي كان موسى النبي صنعها لبني إسرائيل، لأنهم ضلوا بها وعبدوها وسموها(١) حية الظنون. ولم يكن في ملوك يهوذا مثل حزقيا لا قبله ولا بعده. وحفظ وصايا الله تعالى لأنبيائه، فأعانه الله بسبب ذلك ونصره وظفره. وكان حزقياً شديد الغيرة لله تعالى وقد كان بلغه عن جماعة من عبيده أن بيدهم طلسم في صورة إنسان، وكل من مرض وحصل له ألم في عضو من أعضائه نظر إلى ذلك العضو من الصنم فيبرأ لوقته. فقال حزقيا في نفسه: أن هذا الطلسم من الشياطين وهؤلاء قد اعتمدوا عليه وتركوا الاعتماد على الله، فلم يزل يحتال إلى أن أخذه وكسره. ومات حزقيا الملك، ودفن مع أبيه بقرية داود عليه السلام(٢).

ثم منشا بن حزقيا، ملك بعد أبيه، وكان عمره اثنين وعشرين سنة وكان سيئ السيرة، مرتكباً للسيئات وعمل القبائح، وبنى مذابح الأصنام التي هدمها أبوه، وسجد

---

(١) ب: وعبدوهماوسموهما.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٩.

لنجوم السماء وعبدها، وألقى الأصنام في بيت الله تعالى، فمنعه أشعيا النبي عن هذا الفعل الرديء فقتله وقتل الصالحين وسفك الدماء الزكية. وقيل: بل نشره بالمنشار نصفين. وقيل: أن أشعيا النبي هلك من شدة العطش، وأن عين سلوان ظاهر القدس ظهرت له وشرب منها(١).

وفي أيام منشا بنيت بيزنطة، بناها قارويس الملك التي كانت قبل [٢٢١] ذلك تسمى نيقو، وكان خشف بها، وبعد ذلك بسنين كثيرة جددها قسطنطين الكبير وسماها باسمه، وفي أيام منشا بن حزقيا ملك مدينة رومية فريموس ثلاثة وأربعين سنة، وهو الذي زاد في شهور الروم كانون الثاني وشباط، فإن شهور الروم كانت في ذلك الزمان عشر شهور، وكانت كل شهر ستة وثلاثين يوماً. ومات منشا وصار إلى آبائه بقرية داود عليه السلام.

ثم أمون بن منشا الملك، ملك بعد أبيه سنتين، وكان عمره حين ملك اثني وعشرين سنة. وعمل الأعمال الرديئة مثل أبيه، وعبد الأصنام وسجد لها. وقتله عبيده في بيته، واجتمع الشعب وقتلوا الذين قتلوه(٢).

ثم يوشيا بن آمون، ملك على آل يهوذا إحدى وثلاثين سنة، وكان عمره حين ملك ثماني سنين، وأصلح طريقه مع الله تعالى، وسار بسيرة داود أبيه، ورم البيت وسدده بالدخل الذي يدخل إليه. وفي أيامه ظهر خليقيا الكاهن، وهو والد أرميا، وهو الذي جاءه وقرأ عليه شيئاً من التوراة فجزع يوشيا لما فيه، وأمر بهدم بيت الأصنام، وحرقها على الإطلاق، وقتل جميع كهنة الأصنام وهدم المذابح، وهدم بيوت الروابي. وفي ثلاثة عشرة سنة من ملكه تنبأ أرميا. وكان في أيامه من الأنبياء صفونيا. وأخبرت يوسياجلدى امرأة سالوم النبية بأن الله تعالى شكر له فعله، وأن الله ينزل بهم البلاء الشديد، لأنهم أسخطوا الله بعبادتهم الأصنام، وأنه سالم من عذابهم وما ينزل بساحتهم. وأخبره بذلك أيضاً صفونيا(٣).

---

(١) التوراة سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٣، الآيات ١ ـ ٢.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٣، الآيات ٢١ ـ ٢٥.

(٣) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٤.

وفي أيام يوشيا ملك المجوس بابل ثلاث وثلاثين سنة. وفي سنة إحدى وثلاثين من ملك يوشيا، ملك فرعون الأعرج على مصر، وقيل أن في أيامه كان لقمان الحكيم. وبعد هذه الأمور جميعها صعد فرعون الأعرج ملك مصر ليحارب أهل منبج بالفرات، فخرج يوشيا وعارضه [٢٢٢] ليحاربه، فقتل بسهم، وحمل ميتاً ودفن بقرية داود عليه السلام مع آبائه.

ثم ياهوخاز ولد يوشيا، ملك على آل يهوذا ثلاثة أشهر، وكان عمره حين ملك ثلاث وعشرين سنة، وارتكب على ملكه القبائح مثل منشا، فأتى فرعون وأخذه، ووضع على الأرض خراجاً مائة قنطار فضة وعشر قناطير ذهباً وساق ياهوخاز معه إلى مصر، فمات هناك، وترك فرعون الياقيم ملك عليهم. وتنبأ في أيامه تاحوم النبي، فحذرهم عذاب الله وانتقامه لأعدائه، ووعدهم ثوابه وإنعامه لأوليائه(١).

ثم الياقيم بن يوشيا بن آمون، صيّره فرعون ملك مصر ملكاً على آل يهوذا، وكان عمره حينئذ خمسة وعشرين سنة، وملك إحدى عشرة سنة. وكان يواقيم يأخذ الخراج لفرعون ملك مصر من كل واحد على قدر حاله، وارتكب القبائح. وجاءه بختنصر ملك بابل، فاطاعه ثلاث سنين ثم عصاه، وسلط عليه الغزاة من آدوم ومؤاب وعمون والكلدانيين على آل يهوذا ليهلكوهم كما أخبر به الله تعالى على لسان أنبياء بني إسرائيل لما تقدم ذكره. وفي سنة ثلاث من ملكه غزا بيت المقدس وسبى طائفة منها، وحمل جميع متاع البيت وانتهب كما أخبر به الله تعالى. وكان الذي فعل هذا بختنصر، وكان في جملة من سبى بختنصر في ذلك الوقت دانيال وحنينيا وعزاريا وميصائيل. وفي سنة خمس من ملك يواقيم قاتل بختنصر فرعون الأعرج ملك مصر، وملك على شُمري. وفي ذلك الزمان خرب فرعون مدينة منبج التي كانت على الفرات. وفي سنة ثمان من ملك يواقيم غزا بختنصر بيت المقدس ثانية ووضع عليهم الخراج، وثبت يواقيم مكانه على ملكه. وفي أيام يواقيم تنبأ دانيال النبي. ومات يواقيم ودفن مع آبائه في قرية داود عليه السلام(٢).

---

(١) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٦.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٦.

ثم يوناحين بن يواقيم، صار بعد [٢٢٣] أبيه ملكاً، وكان عمره حينئذ ثمان عشر سنة، وملك ثلاثة أشهر، وبعد ثلاثة أشهر أخذه بختنصر هو ووالدته وأشراف مملكته وعبيده وجميع قواده وأجناده وجميع الرجال الأقوياء، وأكثر أهل المدينة، ولم يدع غير المساكين والضعفاء، وأخذ ما كان في بيت الملك وما كان في بيت الله، وجعل بختنصر بدل يوناحين منشا عمه ملكاً على الأرض على آل يهودا وسماه صداقيا[1].

ثم منشا عم يوناحين، صيره بختنصر ملكاً بدل يوناحين، وكان عمره حينئذ إحدى وعشرين سنة، وملكه أحد عشرة سنة، فارتكب القبائح وخوفه أرميا النبي، فلم يفزع، وعرفة أنهم يسبون إلى بابل وأقام أرميا ينذر آل يهوذا سنين كثيرة فلم يسمعوا منه، وحبسه صداقيا إلى جانب داره وضيق عليه. ثم عصا صداقيا ملك بابل في السنة التاسعة من ملكه، فصعد إليه بختنصر وحاصر بيت المقدس حتى لم يقدروا على خبز الخبز، وهدم سورها بالمنجنيقات، فهرب الملك وأبطاله ليلاً، فأدركه الكلدانيون في أريحا، فأخذوهم ومضوا بهم إلى بختنصر، فأحضر صداقيا وحاكمه، وذبح ابنيه قدامه، وأعمى عينيه وقيده بقيدين وأرسله إلى بابل، وجعله في منزل المطالبات إلى موته، وهو آخر ملوكهم[2].

ثم ملك بختنصر أرض إسرائيل في السنة التاسعة عشر من ملكه. ومدة ملكه عليها ست وعشرون سنة، فجميع مملكته خمسة وأربعون سنة. وفي السنة الخامسة والعشرين من ملكه مضى إلى مصر فأحرقها وقتل ملوكها، وملك مصر والشام وأرض يهوذا وآدوم والروم وأرض اليونانيين وفارس وبابل والموصل وعظمت مملكته. وغزا بختنصر أيضاً مدينة صور، فهرب أهلها في السفن إلى الجزائر، فأخذ حيران ملكها وانصرف، وعند ذلك صارت أرض مصر في أيدي [٢٢٤] جيوش بختنصر، ولما سبى بختنصر من بني إسرائيل ما سبى، أمر صاحب أمانيه وكان اسمه متنصر بأن يحضر من أولاد أكابر بني إسرائيل، فتياناً لاعيب فيهم حسانا ذوي فطنة وحكمة ليقدمهم على

(١) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٦.

(٢) التوراة، سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٦.

خدمه، ففعل وأمر بتعليمهم الكتاب ولسان أهل بابل، وأجرى عليهم من مائدته طعاماً وشراباً، وأمر بتأديبهم ثلاث سنين، وأن يعرضوا عليه بعد ذلك، وكان منهم من بني يهوذا دانيال وحنانيا وعزاريا وميصائيل، وأعطاهم فهماً وحكماً في جميع الكتب[1].

وكان دانيال يفسر الرؤيا، ولما رأى بختنصر رؤيا في نومه أفزعته فاستحضر الحكماء، فلم يقدروا أن يعرفوه بالرؤيا وتأويلها، فأراد قتلهم، فدخل دانيال إليه وعرفه بالرؤيا وتفسيرها. وقال: إن الملك رأى تمثالاً عظيماً قائماً مرهوب المنظر، رأسه ذهب ودرعه فضة، وبطنه وفخذه نحاس، وساقاه حديد، وقدماه بعضها حديد وبعضها فخار، ورأيت حجراً قطع من الجبل بغير أيدي البشر فضرب قدمي التمثال فرضهما وصار الحديد والنحاس والفخار والذهب والفضة كالعود اليابس، فاحتملته ريح شديدة حتى لم يبق له أثر، وصار الحجر الذي ضرب التمثال جبلاً عظيماً، وامتلأت منه الأرض كلها. وتأويل ذلك أن الله أعطاك ملكاً عظيماً، فأنت رأس التمثال الذي هو ذهب، والملك الثاني هو الفضة وهو الصدر والذراع، والملك الرابع هو الحديد في الجدة والشدة والمدة. وأما القدمان بعضها حديد وبعضها فخار فهو ملك فيه اختلاف، وفيه من الحديد الشدة، ومن الطين الضعف، وكما رأيت اختلاط الطين بالحديد كذلك يختلط الناس ولا يلتئم الواحد بالآخر كما لا يلتصق الحديد بالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك، يقيم إله الناس ملكاً لا يتغير إلى الأبد، ولا يعطي ملكه الشعب آخر بل يبيد هؤلاء الملوك جميعهم، ويدوم ملكه إلى آخر [٢٢٥] الدهر وهو الحجر الذي انقطع من الجبل بغير يدي بشر فضرب الحديد والنحاس والفخار والفضة والذهب. وقد بين الله تعالى ما يكون في آخر الأيام. والرؤيا حق وتأويلها صدق. فحسن كلام دانيال عند بختنصر، وعظمه وأجزل له العطية وسلطه على جميع أهل بابل وحكمائها وساداتها[2].

وفي السنة الثامنة عشر من ملك بختنصر صنع تمثالاً من ذهب، طوله ستون ذراعاً، وعرضه ستة أذرع، ونصبه في حقل إيرامن كوربابل، وأمر جميع أهل مملكته

(١) التوراة، سفر دانيال، الإصحاح ١.

(٢) التوراة، سفر دانيال، الإصحاح ٢.

بالسجود للصنم فسجدوا، ومن لم يسجد يلقيه في نار موقدة كانت معدة لذلك، فسجد جميعهم غير دانيال وأصحابه، فعرفوا الملك أن دانيال وأصحابه أبوا من السجود للصنم، فأمر بإحضارهم، وقال لهم: إن لم تسجدوا وإلا ألقيتكم في النار حتى أنظر إلهكم إن كان يقدر على تخليصكم، فقالوا: إن لنا آلهاً نعبده وهو يقدر على خلاصنا من النار، فإن خلصنا فهو إلهنا، وإن لم يخلصنا فهو إلهنا، فأمر أن يوثقوا ويلقوا في النار، فبعث الله ملكاً من السماء فأطفأ النار عنهم وهم يسبحون الله عز وجل ويمسون في وسط النار، وبلغ الملك أمرهم، فجاء إلى النار، فرآهم ورأى معهم رجلاً زائداً فتعجب وقال: نحن أمرنا أن نلقي ثلاثة رجال في النار وهذا رجل رابع معهم، فارتعب الملك وخاف، وأمر بنهب مال كل من يستهزئ بهم أو يفتري عليهم، ومات بختنصر[1].

ثم ملك بعده ولده **أويل مردوخ**، ملك بعد أبيه بختنصر على جميع مملكته ثلاث عشرة سنة، وأخرج ياحين ملك آل يهوذا المتقدم ذكره من السجن وغير ثيابه وأكل الطعام بحضرته، وكان يجلس عنده، ويأكل معه طول أيام حياته، ومات ودفن بأرض بابل.

ثم بلطشاصر بن أويل مردوخ، ملك بعد أبيه عشرين سنة وقيل غير ذلك، ولكن الأول [٢٢٦] هو الصحيح. قيل هذا بلطشاصر حين تحارب داريوس الماهي وكورش الفارسي صير هو عسكره فحاربهم وكسرهم وصنع وليمة عظيمة لأكابر المملكة وأحضر آنية البيت التي كان أخذها جده بختنصر من بيت الله تعالى، وشرب عليها مع عظماء مملكته وسراريه وشيوخ الأصنام، وفي ذلك الوقت في حين طغيانه وسوء سيرته وعصيانه، خرجت أصابع إنسان وكتبت على الحائط كلاماً لم يقدر أحد من الحكماء والعارفين على تفسيره، فأخبر الملك أن دانيال كان يفسر لبختنصر الرؤيا، فأمر بإحضاره، فلما أحضر ورأى المكتوب على الحائط وتأمله وعلم تأويله اغتم كثيراً. وقال: أيها الملك، أما المكتوب فإن الله أحصى مدتك وقد انقضت، وإن الله نظرك فوجدك ناقصاً لأنه ملكك وظفرك بأعدائك ولم تحمده، وسجدت للأصنام، وأن الله قد نقل مملكتك

---

(١) التوراة، سفر دانيال، الإصحاح ٣.

إلى ملوك ماري وفارس، فاغتم بلطشاصر وعظماؤه والأشراف الذين حضروا وليمته، وقام من مجلس شرابه، وتفرقوا إلى أماكنهم، وفي تلك الليلة قتل بلطشاصر[1].

ثم ملك بعده داريوس من احسويوس الماهي وكورش الفارسي منها، وهما مشتركان في المملكة ست سنين، ومات داريوس في أول السنة السابعة. وصارت المملكة جميعاً لكورش الفارسي وفي أيامه كمل خطاب الله لأرميا النبي، ورد السبي، وذلك لتمام سبعين سنة. واختلف المؤرخون في السبعين سنة التي تنبأ فيها أرميا، فمنهم من قال: أولها السبي الأول وهو سبي يهودا حين، ومنهم من قال: إن أولها سبي بختنصر. والصحيح أن أولها سبي بختنصر، فإن مدة مملكته على أرض يهوذا كانت ستاً وعشرين سنة كما تقدم[2]، وبعده أويل مردوخ ولده ثلاثة عشرة سنة، وبعده بلطشاصر عشرين سنة.

وفي أول [٢٢٧] سنة من ملك داريوس وكورش تمت السبعين فأنار الله روح كورش. وقال: إن الله تعالى أعطاني كما طلبت، وأني نذرت رد السبي وبناء البيت، فأمرهم بالمسير إلى بيت المقدس، وأن يحملوا الذهب والفضة والمراكب، ورد جميع ما كان عنده من ذخائر البيت. وكانت الآت الذهب والفضة خمسة آلاف وأربعمائة قطعة. وشرع في بناء البيت وتأسيسه. وفي أيامه كان زكريا صلوات الله عليه. وفيها تنبأ وملك داريوس سنة واحدة، وكان عمره اثنين وسبعين سنة، ومات وملك كورش الفارسي بعده ثلاث عشرة سنة، وقيل بل ملك كورش ثلاث سنين. وقيل بل ملك داريوس ثلاث عشرة سنة، ملك بعده كورش الفارسي، وكان مهاباً، وكان محباً في دانيال، وقد أدناه إليه وقربه. وكان دانيال يعبد الله ويسجد له، وكورش يعبد نبل الصنم، ودانيال يمنعه من ذلك، ويقول له: أنه لا يضر ولا ينفع. وكان الكهنة يأخذون رسم الصنم كل يوم اثني عشر جريباً من السميد، وأربعين كبشاً، وست خوابي من الخمر وقال له: إن الصنم لا يأكل ولا يشرب لكونه حجراً، والكهنة يأخذون ذلك لأنفسهم، فأمر الملك أن يعمل

(١) التوراة، سفر دانيال، الإصحاح ٥.

(٢) التوراة، سفر إرميا، الإصحاح ٢٩.

الطعام ويوضع أمام الصنم، ويختم الموضع بخاتم الملك وخاتم دانيال، فأمر دانيال غلمانه بأن يفرشوا الرماد على الأرض في بيت الصنم بحيث لا تعلم الكهنة وفي اليوم جاء الملك ودانيال إلى البيت، فلم يجدوا شيئاً من الطعام، فقال الملك لدانيال: انظر إليه فإنه أكل وشرب، فقال له دانيال: انظر إلى الرماد، فرأى أثر الأقدام فيه، فقصوا الأثر، فوجدوا سرباً[1] تحت الأرض، كان الكهنة إذا غلق الباب يخرجون منه، ويأكلون الطعام هم وأولادهم ونسوانهم وتقدمت وفاته وعدة ما ملك.

ثم ملك ابنه فمنوسيوس بن كورش الفارسي، ملك بعد ابنه ثمان سنين، وذكره بطليموس في كتاب [٢٢٨] المجسطي.

ثم ملك بعده داريوس بن ياصيف، ملك خمساً وعشرين سنة. وهو من الملوك المحمودين السيرة.

ثم ملك بعده سمرديوس المجوسي، أول ملوك المجوس، قيل: إنه ملك سنة واحدة، وقيل ثلاث عشر سنة.

ثم إحشوريش بن داريوس، ملك عشرين سنة.

ثم ملك ابنه أرطحشا بن أحشوريش، ملك أربعين سنة، وكان يلقب بطويل اليدين.

ثم ملك بعده ازطحاست الكيس ملك ثلاثين سنة. وفي عصره كان أبقراط صاحب صناعة الطب.

ثم ملك صعدنيوس ملك سنة واحدة، وكانت به أمراض لازمة له، ولم يزل في نفيه إلى أن مات.

ثم ملك دار الثاني ملك تسعة عشر سنة. وكان في عصره من الحكماء سقراط وإقليدس.

---

(١) ب: أسرابا.

ثم ملك بعده أرطخشاشت من بني أخوة كورش ملك أحد عشر سنة، وقيل اثنين وعشرين سنة.

ثم ملك بعده أخوش عشرين سنة.

ثم ملك أرسيس بن أرطخشاشت، ملك مصر أحد عشر سنة، وكان في عصره من الحكماء أفلاطون.

ثم ملك بعده الاسكندر بن فيلبس اليوناني الماقدوني، ويسمى ذا القرنين، لأنه ملك قرني الشمس من مشرقها إلى مغربها، وملك بعد أبيه وعمره ستة عشر سنة وطمع فيه الملوك لصغر سنه وبعثوا إليه ليدخل في طاعتهم، فشاور شيخه أرسطو طاليس، وجزم بالخروج إليهم ومحاربتهم، فكتب له كتاب السياسة في تدبير الرياسة، وضمنه حكماً وطلسمات وطباً ونجامة، فخرج، فهابه الملوك وجزعوا منه وغزا غزواتٍ كثيرة، وملك ممالك عظيمة، ملك جميع ممالك العجم العليا والسفلى وملك العراقين وملك السواحل، وجزائر البحر الجوانية، وبلاد بني الأصفر، وبلاد الكرج والصقالبة وبلاد المغرب ومصر، ووصل إلى جبل قاف عند مطلع [٢٢٩] الشمس، وعمل السد وحبس يأجوج ومأجوج، فلما ملك الأقاليم السبعة واتسع له الملك رجع إلى بابل ليكشف أحوالها، سُقي سماً، ومملكته عظيمة وأحواله جسيمة، واستمرت مملكته.

ثم ملك بعده بطليموس أخو الاسكندر .وقيل غلامه، ملك على مصر والإسكندرية والبلاد المغربية بعد أخيه سبع سنين.

ثم ملك بعده الاسكندس، ملك على مصر والإسكندرية وأرض المغرب أيضاً إحدى وعشرين سنة، وكان اطلع على كتب بني إسرائيل، وما أخبرت به عن إتيان المسيح. وكان يرغب إلى الله تعالى أن يفسح في مدته أن يراه، ففسح الله في أجله وعاش ثلاث مائة وخمسين سنة إلى أن ولد المسيح عليه السلام، وأخذه في ذراعه ومات لوقته.

ثم ملك بعده بطليموس الملقب بالأرنب، ملك تسعة عشر سنة وقيل تسعة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس أوغسطس، وكان يقال له محب أخبه.

ثم ملك بعده بطليموس الطايع، ملك خمسين سنة، ومات مخنوقاً على سريره.

ثم ملك بطليموس محب أبيه، ملك سبعة عشر سنة، وكان ادعى النبوة في زمانه يودس فقتل بالشريعة.

ثم ملك بطليموس المطهر ملك أربعة وعشرين سنة.

ثم ملك بطليموس محب أبيه خمساً وعشرين سنة وقيل أنه ملك عشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الصايغ ثلاثة وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس المخلص ملك عشرين سنة، ويقال له أيضاً بطليموس الفاعل. وقيل ملك ثمانية وعشرين سنة، وقيل سبعة وعشرين سنة.

ثم ملك بطليموس بن قساس ملك ثمانية عشر يوماً، وقيل أنه ملك ثمان سنين ويقال له محب، وبعضهم لم يتعرض لمدة تمليكه، ولا ذكره في سياقة تواريخ الملوك.

ثم بعده بطليموس ديونوسيوس ملك إحدى وعشرين [٣٣٠] سنة وقيل ثلاثين سنة، وتوفي.

ثم ملكت بعده اكلاوبطره بنت ديونوسيوس، وتفسير أكلاوبطرة الباكية على الصخرة. ملكت ثلاثين سنة، وقيل اثنين وعشرين سنة وقيل خمسة عشرة. وهي التي حفرت خليج الاسكندرية وأجرت فيها الماء الحلو من نيل مصر، وبنت بالاسكندرية أبنية عجيبة، وبنت بمدينة إخميم مقياساً يقاس فيه الماء في زيادة نيل مصر. وهي التي بنت الحائط المسمى بمصر حائط العجوز بنت حائطا من الفرما إلى النوبة من ناحية المشرق على ساحل نيل مصر، وبنت حائطاً آخر من النوبة إلى الاسكندرية على شط النيل من جهة المغرب، وآثار هذا الحائط باقية إلى الآن، وتقدم الكلام عليه. وكان لها ولدان اسم أحدهما الشمس واسم الآخر القمر، وغزاها بعض قواد قيصر فقتلها وقتل زوجها وقتل ولدها، وقيل هي قتلت نفسها بسم خشية الفضيحة. وكان مدة ملكها ثلاثين سنة. وبطلت مملكة مصر وصارت تحت يد الروم.

ثم ملك اوغسطس قيصر ملك ستة وعشرين سنة ونصف سنة.

وملك بعده ملك يسمى عاسوس، حكم أربع سنين ويقال أن أمه ماتت وهو جنين في بطنها، فبقروا بطنها وأخرجوه من بطنها، وربي حتى بلغ وملك على الروم برومية. وكان يفتخر على الملوك أنه لم يولد من حيث يولد الأولاد. واوغسطس هو الذي قتل اكلابطره على ما تقدم ذكره. ومن حين استقلاله بمصر إلى حين مولد المسيح عليه السلام ببيت لحم يهوذا خمسة وعشرين سنة، وعاش بعد أن ولد المسيح عليه السلام خمسة عشرة سنة. وفي زمانه مضى هيرودس بن انطفير إلى مصر ومنها إلى رومية إلى اوغسطس قيصر، فصيره أوغسطس ملكاً على اليهود [٢٣١] بيرورشليم. ولم يرض اليهود أن يكون هيرودس ملكاً عليهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، ودفن كتبهم التي كتبها عزره الإمام بأنسابهم وقبائلهم وحرقها بالنار، حتى لا يدري أحد منهم من أي سبط هو، وأخذ كل ما كان للكهنة من الآلات، وفتح مدينة القدس. وفي السنة الثامنة عشر من ملك هيرودس اهتم لأجل القدس وتهمم به بأن بناه على ما كان عليه في أيام سليمان بن داود، وحصل إليه جميع ما يحتاج إليه برسمه في مدة ست سنين وبناه في ثمان سنين. وولد السيد المسيح في السنة الثانية والثلاثين من ملكه، وجعل أركلاوس ولده ولي عهده، ولما دنت وفاته أوصى ولده إركلاوس أن يقتل جميع من في الجيوش. ومات وعمره سبعون سنة.

ثم ملك أركلاوس ولده ويسمى باسم أبيه هيردوس وملك سبع سنين، وصيرا اوغسطس قيصر المتقدم ذكره، فقبض عليه وقيده وحمله إلى رومية، ومن بعد سنتين من مولد المسيح وافى المجوس من المشرق إلى أرض يهودا يسألون أين ولد الملك العظيم، فسمع ذلك هيردوس فاضطرب لأجل ذلك، واستدعى المجوس فسألهم عن الخبر، فأخبروه وقالوا له: رأينا نجماً عظيماً في المشرق وعلماؤنا من أرباب صناعة النجامة حكموا أنه ولد في هذه الأرض مولود عظيم فجئنا لنسجد له ونقدم له الهدايا، ولم يزل الكوكب يسير معنا إلى هذا الموضع فخفي عنا، فجمع هيردوس أكابر مملكته وعلماؤهم وسألهم: هل كانت الكتب أخبرت بهذا؟ فقالوا: لعل هذا هو المسيح. فقال لهم: وأين يولد؟ قالوا: في بيت لحم يهوذا، فاستدعى هيردوس المجوس واستخبرهم متى ظهر

النجم لهم. قالوا له: من مدة سنتين. فقال لهم: امضوا واسألوا عن هذا [٢٣٢] المولود، واعلموني به حتى أجي إليه وأسجد له، وكان القول مكراً منه وخديعة، فأما المجوس فذهبوا إلى بيت لحم ورأوا المسيح مع مريم أمه، فسجدوا له وقدموا له الهدايا التي كانت معهم. وأخبروا في اليوم أن يذهبوا إلى بلادهم ولا يرجعوا إلى هيردوس، ورأى يوسف النجار خطيب مريم في اليوم، بأن يأخذ الصبي وأمه ويذهب إلى أرض مصر ففعل كذلك. فأما هيروس فإنه انتظر المجوس فلم يعودوا إليه فحنق حنقاً شديداً وأمر أن يقتل كل مولود في بيت لحم من ابن سنتين فما دونهما، فقتل جميع الأطفال بأرض اليهودية حتى لم يبق منهم واحد، وحين فشا الأمر بمولده بلغ ذلك اوغسطس قيصر فكتب إلى هيردوس أن فرساً من المشرق دخلوا سلطانك، واهدوا الهدايا للمولود الذي ولد بفلسطين، فأما من هو وأين هو، فلم يبلغنا بعد، وبهذا كتب إلينا لوغسوس الحكيم، فابحث عن أمره وعن المجوس الذين أتوا إليه، وما سبب ذلك والألطاف التي لاطفوه بها، ولا تخفي عني من أمره شيئاً. فكتب هيردوس الجواب يخبره بأمر الصبي المولود وبخبر المجوس وجميع ما ذكروه من أمره، وأنه أمرهم أن يعرفوه موضعه، ولم يرجعوا إليه، ومضوا إلى بلادهم بغير علمه، وأنه سيّر جماعة كثيرة من عسكره في إثرهم ليلحقوهم ويأتوا بهم إليه فلم يجدوهم، وأنه قد قتل أطفال بيت لحم جميعهم من ابن سنتين فما دونها. ولا شك أن الصبي قتل في جملتهم، ففرح اغسطس قيصر بذلك. ومات هيردوس.

ثم ملك من بعده أركلاوس بيت لحم وبيت المقدس، فلما سمع يوسف النجار الذي هرب بعيسى وأمه إلى مصر المتقدم ذكره بموت هيردوس، خرج من مصر وقد استوفى عليه ست سنين [٢٣٣] فمضى وسكن الناصرة. ومات أركلاوس ومدة ملكه تسع سنين، ولم يخلف وارثاً.

ثم ملك طيباريوس قيصر بن اوغسطس قيصر ملك بعد أبيه على جميع مملكته ثلاثة وعشرين سنة، وجعل فيلاطس المسطي نائبه على أورشليم واليهودية. وفي السنة السابعة من ملك طيباريوس قيصر بنى مدينة نيطس، فطرد اليهود من ناحية طيباريوس قيصر، وفي سنة خمسة عشر من مملكة طيباريوس قيصر ظهر يحيى بن زكريا بالنبوة،

وكان زاهداً ناسكاً، وكانت إقامته في البراري وكان طعامه الجراد وعسل البر، ولباسه وبر الأبل وجلد على حقويه، وكان يتعمد اليهود في الأردن في عين نون جانب أورشليم، ويأمرهم ويحضهم على التوبة، وينهاهم عن الإساءات وأخباره كثيرة عظيمة لا تحصى. وكان نبياً وقتله هيردوس، والسبب في ذلك أن هيردوس كان قد أخذ زوجة أخيه، وقال له يحيى: هذا لا يحل في شريعة موسى، فاعتقله وبعد ذلك قتله، وحكاياته شهيرة، وأخباره في زمانه معروفة مأثورة.

ثم من بعده **ظهر عيسى**عليه السلام وينبغي أن نذكر هنا شيئاً من حكمه وأخباره الدالة على صدقه ونبوته: منها أنه تكلم في المهد صبياً، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى بإذن الله، وخلق طيراً بإذن الله. وكان يطوف في المدن والقرى ويبشر بملكوت الله، وانتخب تلاميذه اثني عشر، وابتدأ يعلمهم فأول تعليمه لهم: طوبى للمساكين فإن لهم ملكوت السموات، وطوبى لأهل الحزن فإنهم يعزون، وطوبى للمتواضعين فإنهم يرثوا الأرض، وطوبى للرحماء فإنهم يرحمون، وطوبي للنقية قلوبهم فإنهم يعاينون الله.

وكان يقول: من لطمك على [٢٣٤] خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر، ومن أراد خصومتك وأخذ ثوبك فدع له رداءك، ومن سألك فاعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده. وكان يقول: اغفروا يغفر لكم، فإن غفرتم للناس خطاياهم، غفر لكم ربكم خطاياكم، وكان يقول: من نظر إلى امرأة بعينه واشتهاها بقلبه فقد زنى بها. وكان يقول: اقرضوا ولا تطلبوا العوض، فإن أقرضتم من تطلبوا منه العوض فأي فضل لكم.

وظهرت على يديه خوارق وآيات دالة على صحة نبوته من إحياء الموتى وشفاء المرضى، وإخراج الشياطين وإبراء البرص وإطلاق المقعدين وإبصار العميان، وإطلاق الألسن الخرس، والمشي على الماء وكان يصنع ذلك يوم السبت وغيره، وكانت اليهود تنكر ذلك عليه لإظهاره ذلك يوم السبت غاية الإنكار وكان يؤنبهم وينكيهم ويقول لهم: من منكم يقع حماره أو ثوره في بئر يوم السبت ولا يخرجه منها. ولما رأى اليهود أن الشعب كله تبعه وآمنوا به امتلأوا حسداً واجتمعوا في دار قيافا رئيس الكهنة وتآمروا على قتله. فقال قيافا: موت رجل واحد بدل الشعب خير من أن يهلك الأمة كلها. واجتمع عيسى عليه السلام في ليلة الجمعة مع تلاميذه وأخبرهم أن اليهود قد هموا به، وأن واحد منهم

يريد أن يسلمه إليهم وهو يهوذا الأسخريوطي، فخامر الشيطان قلبه، ومضى إلى رؤساء اليهود من ليلته وقرر معهم أن يسلمه إليهم، وبذلوا له على ذلك مالاً، وأما المسيح، فخرج إلى ظاهر مدينة أورشليم وهي القدس، فأخذ يصلي ويسجد ويدعو ويبتهل إلى الله تعالى وقال لهم: قوموا بنا فقد قرب الذي يسلمني، وأما يهوذا فأصبح معه جنداً من عظماء الكهنة وشرطاً، وجاء إلى الموضع [٢٣٥] الذي كان فيه المسيح وأسلمه إليهم، وأسلمهم إلى دار فيافا رئيس الكهنة، وشهدوا عليه بشهادات زور كثيرة مختلفة، عظموا فيها الافتراء والكذب، ومضوا به إلى بلاطس المسطي النائب عن طيباريوس قيصر، وقالوا له: إن هذا الرجل قد أفسد شريعتنا وحل ناموسنا، ويدعي أنه ملك اليهود ونحن ليس لنا ملك إلا قيصر، فلما سمع بلاطس كلامهم، خاف جداً ودخل إلى داره، وأحضر المسيح وحده، وقال له: أنت ملك اليهود؟ فقال له: لو كنت ملكاً لكان عسكري يحارب عني حتى لا أدفع إلى اليهود. ولكن الأمر لله، فخرج بلاطس إلى اليهود وقال: إني لم أجد على هذا الرجل حجة، وأنا بريء من دمه، فصرحوا جميعاً: أصلبه، أصلبه. فرأى بلاطس أن موافقتهم أحسن له، فوافقهم وأمر بصلبه، فألقى الله شبهه على الذي وشي به، فرفع الله المسيح إليه كما نطق القرآن الكريم، وصلب المشبهة به. وقد كان الأبحر الأسود ملك الرها، بعث رسلاً إلى أرض العبرانيين في حوائج له، فاجتازوا بأورشليم، فشاهدوا الآيات التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام وبغض اليهود لهم، وأنهم قد أجمع رأيهم على قتله، ولما عادوا إلى الأبحر، أخبروه بذلك وعرفوه أنه يبرئ المرضى وذوي الأسقام من غير علاج. وكان بالأبحر أمراض مزمنة، فلما سمع بذلك، اشتهى أن يراه ويشاهد أفعاله والأمور التي تصدر عنه، ولم يمكنه أن يتجاوز مملكته خوفاً من الأعداء. فأرسل حنان المصور وكتب معه كتاباً إلى المسيح عليه السلام يسأله القدوم عليه والمقام عنده ليستريح من معاندة اليهود، ويكون معه ليبرئه من أمراضه، فأرسل إليه بالسلام والتحية والبركة وقال له: إنما جئت لهذا الأمر الذي اجتمع اليهود إليه، وأنا أبعث إليك من تلاميذي فيبرئون أرجاعك وأسقامك. فلما [٢٣٦] أخذ حنان الجواب أخذ صورة المسيح في منديل ويقال أن حنان رسول الأبحر قال لعيسى عليه السلام: أن الأبحر يشتهي أن يراك، وأن المسيح أخذ منديلاً ومسح به وجهه المكرم فأخذ حنان المنديل ومضى به إلى الأبحر فقبله

بكرامة عظيمة، وجعله في خزانته، ويقال أنه في خزائن الملوك إلى هذه الغاية وبعد الصعود وانتشار التلاميذ في أقطار الأرض، مضى يوماً إلى الرها، فلما رآه الأبحر عظمه وأكرمه وآمن هو وأهل بيته، وقال له: لولا مواثيق بيني وبين الروم لا يمكنني نقضها لكنت غزوت اليهود الذين صلبوا المسيح وغزوتهم وأهلكتهم. قال هذا لظنه أنه صلب.

قال المؤرخ: وإن توما أبرأ الأبحر ملك الرها من جميع أمراضه، لما صلب الذي ألقي عليه شبه المسيح عليه السلام وهم يظنونه هو، كتب الأبحر إلى طيباريوس قيصر صاحب الروم بما نسخته: أما بعد، فاعلم أيها الملك أن اليهود الذين في سلطانك صلبوا المسيح من غير ذنب أوجب ذلك، ولما صلبوه أظلمت الشمس وتزلزلت الأرض، وحدثت أمور كثيرة جداً. فكتب قيصر في جوابه: أني عرفت كل شيء عمله اليهود بالرجل الذي ذكرت وأردت الانتقام منهم فأشغلتني الحروب، وأن تفرغت قليلاً أنزلت بهم النقمة والعذاب. أما فيلاطس الذي جعلته قاضياً عليهم فقد عزلته بذل شديد وهوان عظيم لأنه أطاعهم وعمل بقولهم، فلما قرأ الأبحر ملك الرها الكتاب فرح وسر به، وذلك أرسل عسكراً من جهته طيباريوس قيصر، فأهلك رؤساء اليهود. وقيل أن أمه مريم عليها السلام ماتت بعد صعود ولدها بخمس سنين. وقد كمل عمرها إحدى وخمسين سنة، لأنها ولدته وعمرها ثلاثة وعشرين سنة، وأقام على الأرض ثلاثة وثلاثين سنة. وأقامت أمه مريم بعد الصعود [٢٣٧] خمس سنين، ثم توفيت بأرض القدس ودفنت بها، فقيل أنها دفنت في الجبل المطل على المسجد من شرقيه وهو المعروف بالطور وبنى على قبرها الدير الكبير المسمى بالمصعد، ويقال أن منه كان خروج المسيح عليه السلام. وهذا الدير جليل البناء، دخلته ورأيت بناءه وإحكام عقوده وهو من محاسن الأبنية، وقد اتخذ مسجداً وأسكنه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله قوماً من الأكراد يعرفون الآن بالطورية، هم كبراء القدس وأعيانه. وقيل أنها دفنت بالوادي بين الطور والمسجد. وقيل دفنت بالكنيسة التي داخل باب المدينة الشرقي وهي المعروفة بالصلاحية، وقد جعلها الملك الناصر رحمه الله مدرسةً للشافعية وهي المعروفة بالصلاحية، وفيها قبر تزوره النصارى إلى اليوم، ولا يمنع منه، ومن الناس من يقول إنما هو قبر أم مريم ابنة عمران لا قبر مريم بنفسها.

وحدثني الحافظ العلامة صلاح الدين أبو سعيد خليل بن العلائي نفع الله به وهو مدرس هذه المدرسة في وقتنا هذا، أن النصارى تكثر إتيان هذا القبر وزيارته وتقول هذا قبر أم مريم قال: والذي لا تشك فيه النصارى أن قبر مريم بالوادي وعليه بناء وهو معروف هناك.

فهؤلاء مشاهير سكان الأرض من ولد إسحاق عليه السلام، وسنتلوه بذكر أخيه إسماعيل عليه السلام وولده ومن جاء من العرب من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لأنهم وأممهم سكان الأرض أو غالب سكان الأرض، وبقية الناس كالتبع، وقدمنا هنا ذكر ولد إسحاق ﷺ لتقدم دولتهم في الزمان.

وأما إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو أبو العرب المستعربة، ومن ولده سيد ولد آدم خاتم الأنبياء سيدنا ونبينا محمد ﷺ، فكفى ولد إسماعيل به فخراً على الأمم وذكراً، تضيء به حنادس الظلم ولو عدت بنو إسرائيل ما عدت [٢٣٨] فضلها بنو إسماعيل بمولد سيدنا محمد سيد الأولين، والآخرين صلوات الله وسلامه عليه. وفي العرب أنبياء كرام وملوك عظام، ولابد أن نطرّز بشيء من ذكرهم حلل هذا الكتاب ونذهب صفحات هذا الكتاب.

وأول ما نبدأ منهم إسماعيل صلوات الله عليه، لأن إليه ينتهي عمود نسب هذه الأمة، ومن ولده سيدنا محمد ﷺ نبي الرحمة، فنقول: إن إسماعيل أمه هاجر القبطية كان قد أخذها فرعون مصر لسارة زوجه إبراهيم الخليل عليه السلام على ما هو مشهور. قال وهب: يقال له صادوق، وكان سبب أخذ أمه هاجر لسارة، أنه ذكر له حسن سارة فتشوق إليها وأرسل إلى إبراهيم فسأله عنها، فقال له: هي أختي وخاف أن يقتله عليها لو قال زوجتي، فقال: زينها وأرسل بها أنظر إليها، فمر بيده إليها فيبست يد فرعون إلى صدره. فقال لها: ادعوا لي ربك أن يطلق يدي ولا أمسك ففعلت، وأطلق الله يده، فوهب لها هاجر، ثم وهبتها سارة لإبراهيم، فولدت منه إسماعيل عليه السلام. وعمره يومئذ ست وثمانون سنة. فلما بلغ إسماعيل ثلاث عشرة سنة ختنه أبوه، وضاقت سارة من هاجر وابنها إسماعيل، فحملهما إبراهيم عليه السلام، ودعا إبراهيم الله لهما، قال الله تعالى

حكاية عنه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾(١) وأمضهما الظمأ حتى فحص إسماعيل برجله فانفجرت زمزم، فجعلت هاجر تحوط بيدها عليه.

قيل: ولولا هذا لكان عيناً معيناً وأنزل الله جرهما إلى جانبهم ورزقهم من الثمرات وتقبل دعوة إبراهيم ثم [٢٣٩] بنى إبراهيم وإسماعيل البيت، قيل كان إسماعيل ينقل الحجارة وإبراهيم يبني، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧﴾(٢). واختلف في الذبيح من هو، فإن قيل أن قصة الذبح كانت بمنى فهو إسماعيل لأن إسحاق عليه السلام لم يأت منى، والصحيح أن إسحاق كان هو الذبيح، وعليه الأكثر.

ثم أن إسماعيل تزوج من جرهم. وقد كان إبراهيم اشتاق إلى إسماعيل، فاستأذن سارة أن يأتيه، فأخذت عليه العهد أن لا ينزل غيرة على هاجر فركب البراق ثم أقبل وقد ماتت أم إسماعيل وتزوج إسماعيل امرأة من جرهم. فلم يجد إسماعيل في منـزله، ورأى المرأة فظة غليظة فقال: إذا جاء زوجك فقولي له: جاء هنا شيخ من صفته كذا وكذا، وقولي لا يرضى عتبت بابك، ففعلت، فلما أخبرته طلقها وتزوج ثانية، فجاء إبراهيم مرة أخرى، فلم يجد إسماعيل ووجدا امرأة سهلة طلقة، فأتته باللحم واللبن، فدعا لهما بالبركة، وجاءته بالمقام فوضعته تحت شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر قدمه فيه، فعدلت شق رأسه الأيمن ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر، فوضع قدمه عليه، فبقي إثر قدمه، وغسلت شقه الأيسر، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقريه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، واسم هذه السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وهي التي رضي عنها أبوه إبراهيم عليه السلام، وهي التي ولدت له اثنى عشرة ولداً ذكوراً، وبعث الله تعالى إسماعيل إلى العماليق وإلى قبائل اليمن، وإسماعيل عليه السلام أول من ذلل الخيل

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

وركبها، وكانت قبل وحوشاً نافرة، وإلى بنيه ينسب جيادها، فيقال: خيل عراب وعربيات وقال أبو عبيد البكري: أنه أول من صنع القوس العربية، ورمى بها. والذي لا شك فيه أنه كان يجيد [٢٤٠] الرماية بالقوس. وقد قال النبي ﷺ: ارموا يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً. وكان صاحب صيد وقنص وكرم، وكانت العربية لسانه ولسان ولده، وتوفي بمكة المعظمة، ودفن على ما يقال بالحجر. قيل ولهذا يقال حجر إسماعيل نسب إليه لدفنه.

ومن كان في العرب من مشاهير الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين **هود صلوات الله عليه.** قيل أنه هود بن عبدالله بن الجلود بن عاد بن عوض بن آدم بن سام بن نوح عليه السلام. ورأيت بخط الشريف النسابة الحسن بن علي بن أبي كاسب الحسني أن هود هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقد ساق في المشجر نسب إبراهيم الخليل عليه السلام إليه فقال: إبراهيم بن مارح وهو أزار بن ياحور بن شاروغ بن أرغو ابن فالغ بن عابر. وقال: وعابر هو نبي الله هود. وذكر في المشجر أنه أولد ثلاثة هذا فالغ وعليه عمود النسب إلى إبراهيم عليه السلام ويقظان وقحطان المنسوب إليه القحطانية. وقال: إليه ينسب كل اليمانية. قال: وولد قحطان يعرب وولد يعرب يشجب، وولد يشجب سبأ وولد سبأ حمير، وإليه ينسب كل حميري، ومنهم الملوك التبابعة وكهلان هو أخو حمير ولم يذكر أن كان كهلان أعقب أم لا. انتهى ما ذكره النسابة مما رأيته في خطه.

وقد ذكر أبو عبيد البكري(١) أنه هود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح وكذلك ذكر ما ذكرناه أولاً. والذي رأيت البكري(٢) صححه في نسب صالح عليه السلام ما ذكرناه آخراً فقال: صالح بن عبيد بن جابر بن هود بن عابر بن آرم بن سام بن نوح. والبكري ذو تنقيب على هذا نسوق نسب صالح إلى نوح عليه السلام والله أعلم. أرسله الله إلى عاد وكانوا ثلاثة عشر قبيلة، وكان الملك بعد نوح قد تأثل في عاد الأولى قبل انتشاء الملوك. وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾ [٢٤١] ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ٩١/١.

(٢) البكري، المسالك والممالك: ٩٧/١.

﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾[1]. ويقال أنهم كانوا كالنخل طولاً والأقرب والله أعلم أنهم كانوا ذوي هيئات وأشكال، وإنما قيل كالنخل من باب المجاز لا الحقيقة لموضع التنبيه[2].

قال أبو عبيد البكري[3]: كان عاد رجلاً جباراً بعيد الغور وتزوج بألف امرأة ورأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وعاش ألف سنة ومائتي سنة. ثم ملك بعده ابنه شداد وهو الذي بنى إرم ذات العماد، وفي زمانه كانت عاد الثانية.

قال[4]: وقد بين هلاك الأولى قوله تعالى: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[5] وبين هلاك الثانية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾[6].

قال البكري[7]: ولشداد هذا مسير في الأرض وحروب، ويقال أنه تغلب على ممالك الأرض وكان أكثر مساكن عاد الدّو والدهناء وعالج وبيرين ووبار وعُمان والشجر وحضرموت والأحقاف، وكانت الأحقاف مقر ملكهم، ومكان ساداتهم وكبرائهم. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[8]، وكانت بلادهم أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها أنيساً إلى أن أحل الله بها غضبه نعوذ بالله من غضبته، فصارت قفاراً موحشة، ولحق هود ومن تبعه بمكة، وأقاموا بها حتى ماتوا. ويزعم أهل دمشق أنه مات بدمشق ودفن في الجدار القبلي بمسجدها الجامع، ويزعم أهل حضرموت أن قبره بها، وقيل بمهرة[9].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٩.

(٢) البكري، المسالك والممالك: ٩١/١.

(٣) البكري، المسالك والممالك: ٩٢/١.

(٤) البكري، المسالك والممالك: ٩٢/١.

(٥) سورة النجم، الآية ٥٠.

(٦) سورة الفجر، الآية ٦ ـ ٧.

(٧) البكري، المسالك والممالك: ٩٢/١.

(٨) سورة الأحقاف، الآية ٢١.

(٩) البكري، المسالك والممالیك: ٩٢/١.

وقال أبو الطفيل: سمعت علياً عليه السلام يقول: رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء إلى أراك وسدر بآخر كذا وكذا من أرض حضرموت هل رأيته، فقلت: نعم والله أنك لتنعته نعت رجل رآه، فقال: لا ولكن حدثت عنه، وفيه قبر هود عليه السلام.

وفي كتاب الوافدين: أن رجلاً من أهل حضرموت أتى على عهد أبي بكر رضي الله عنه يريد الإسلام، فوجد علياً [٢٤٢] كرم الله وجهه فأسلم على يده، ثم أتى به أبا بكر، ثم كان الرجل يأتي نادى علي، فأتى إليه يوماً فجلس إليه، فقال له علي: أعالم أنت بحضرموت؟ قال: إذا جهلتها لم أعرف غيرها. قال: أتعرف موضع الأحقاف ورأيت الكثيب الأحمر الذي عليه أراك تقطر دماً. قال: كأنك تسألني عن قبر هود عليه السلام. قال له علي: نعم، لله درك ما أخطأت. قال: إذا أخبرك يا أبا الحسن، خرجت وأنا في عنفوان شبيبتي في أغيلمة من الحي نريد أن نأتي قبره لبعد صوته فينا وكثرت من يذكره، ومعنا شيخ كبير عالم بالمكان، فسرنا في وادي الأحقاف أياماً حتى انتهينا إلى كثيب أحمر، فانتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف في جبل، فدخلناه، فأمعنا طويلاً، وجعلنا نجول في دهاس يسيخ الأرجل فيه إلى الركب حتى هالنا ذلك، فانتهينا إلى حجرين أحدهما دون الآخر فيه حلل يدخل فيه النحيف متجانفاً، فدخلته، فرأيت رجلاً على سرير، شديد الأدمة، طويل الوجه، كث اللحية، قد يبس على سريره، فإذا مسست جسده أصبته صلباً لم يتغير، ورأيت عند رأسه كتاباً بالعبرانية، أنا هود النبي آمنت بالله وشقيت عاد بكفرها، وما كان لأمر الله جل وعز من مرد، فقال علي: هكذا سمعت من أبي القاسم صلى الله عليه وسلم[1].

وكانت عاد أصحاب أصنام ثلاثة يقال لها: صمود وصدا والحيا، ولم يزل بهم هود عليه السلام حتى يئس منهم، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2] فحبس الله القطر ثلاث سنين فأوفدوا وفداً لهم ليستسقوا لهم بمكة وهم: قيل بن عمرو ولقيم بن هزال ومزيد بن سعد. وكان ممن آمن يهود وهو يكتم أيمانه. ولقمان بن عاد وحارثة بن

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ٩٢/١.

(٢) سورة هود، الآية ٥٣.

الحنين، فساروا في سبعين رجلاً، فلما قربوا من مكة، نزولا على معاوية بن بكر، وكانت عاد [٢٤٣] أخواله وأصهاره، فأكرمهم وأقاموا يشربون الخمرة، وتغنيهم الجراداتان قينتا معاوية شهراً كاملاً، فلما رأى معاوية مكثهم شق عليه، وقال: هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون واستحى أن يأمرهم بالخروج، فيضنون أنه ضاق منهم لمقامهم عليه، فأمر الجرادتين أن يغنياهم بأبيات قالها(١):

ألا يا قيل ويحك فم فهينم ... لعل الله يصحبنا غماما
فيسقي أرض عاد أن عاداً ... خفوت لا يبينوه الكلاما
من الجهد الشديد وليس يرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا بلغوا التحية والسلاما

فأجمعوا على الاستسقاء، فقال لهم مزيد: أنكم والله لا تستسقون بدعائكم ولكنكم إن أطعتم نبيكم سقيتم، وأظهر إسلامه، فقال معاوية بن بكر حين سمع ذلك منه(٢):

يا سعد فإنك من قبيل ... ذوي كرم وأمك من ثمود
فأنا لن نطيعك ما بقينا ... ولسنا فاعلين لما تريد
أنترك دين آباء كرام ... ذوي رأي ونتبع دين هود

وقالوا لمعاوية: أحبس عنا مزيد بن سعد، لا يخرج معنا، فإنه قد ترك ديننا، وخرجوا ليستسقوا، فقالوا: اللهم إن كان هوداً صادقاً، فاسقنا، فإنا قد هلكنا، فأنشأ الله سبحانه وتعالى سحائب بيضاً وحمراً وسوداً، ثم نادى منادٍ من السحاب: يا قيل اختر لقومك. فقال: اخترت السحابة السوداء، فناداه مناد اخترت رماداً رمدداً، لا يبقي من عاد أحداً، لا والد ولا ولد إلا جعلته همدا. وبعث الله السحابة السوداء بالنقمة فلما رأوها قالوا: هذا عارض ممطرنا، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ٩٣/١.

(٢) البكري، المسالك والممالك: ٩٤/١.

أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[1]، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2] أي دائمة. ولم يصب هود ومن تبعه منها إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس[3].

قال ابن إسحاق: لما سخرت الريح على عاد، قال سبعة رهط منهم أحدهم الخلجان: تعالوا حتى نقوم على شفير الوادي فنردها فجعلت الريح تدقهم وتسفيهم حتى تركتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلم يبق إلا الخلجان فقال له هود: ويحك، أسلم تسلم، فقال: ومالي إن أسلمت؟ قال: الجنة. قال: فما هؤلاء الذين أراهم في السحاب كأنهم النجب؟ قال: الملائكة. قال: فإن أسلمت أيقيدني ربك منهم؟ قال: ويلك هل رأيت ملكاً يقيد من جنده، قال: ولو فعل ما رضيت. ثم جاءت الريح فألحقته بأصحابه. وفي سابعهم يقول الأول وهو النهبل بن الخليل:

لو أن عاد سمعت من هود	ما أصبحت عاثرت الجدود
هامدة الأجسام بالوصيد	صرعى على الأنوف والخدود
ماذا جنى الوفد على الوفود	أحدوثة للأبد الأبيد[4]

وروى عاصم بن بهدله عن أبي وائل عن الحرث بن حسان قال: مررت على عجوز بالربذة فسألتني الصحية، وأنا أريد رسول الله ﷺ ففعلت، قال: فدخلت المسجد وهو غاص بالناس، وإذا راية سوداء تخفق وبلال متقلد السيف، قائم بين يدي رسول الله ﷺ قال: فلما دخل رسول الله ﷺ رحله أذن لي. قال: فقعدت في المسجد وقد خلا. فقال: كان بينكم وبين بني تميم شيء. قلت: نعم يا رسول الله، فكانت لنا الدائرة عليهم.وقد مررت على عجوز منهم بالربذة منقطع بها، فقالت: إن لي إلى رسول الله صلى الله [٢٤٥] عليه وسلم حاجة، فحملتها، وها هي ذا على الباب، قال: فأذن لها

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ٢٤.

(٢) سورة الحاقة، الآية ٧.

(٣) البكري، المسالك والممالك ١٠/٩٣ ـ ٩٥.

(٤) الخبر والشعر في البكري، المسالك والممالك: ١/٩٥.

رسول الله ﷺ فدخلت، فلما قعدت، قلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل الدهناء حجازاً بيننا وبين بني تميم فافعل، فإنها كانت لنا مرةً. فاستوفزته العجوز، وأخذتها الحمية، فقالت: يا رسول الله، قد تضطرب مضرك. قال: فقلت: يا رسول الله، أنا كما قال الأول معزى، حملت حتفها، حملت هذه وأنا لا أشعر بها، وكانت لي خصماً، أعوذ بالله يا رسول الله أن أكون كوافد عاد. قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد. قال: قلت على الخبير سقطت، فقال رسول الله ﷺ: إيه يستعظم الحديث؟ فقال: أن عاد قحطوا فبعثوا وافدهم قيل، فنزل على بكر بن معاوية شهراً يسقيه الخمر وتغنيه الجرادتان. قال: ثم مضى حتى أتى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم آت لأسير فأفديه، ولا لمريض فأداويه، فاسق عبدك ما كنت تسقيه، فمرت سحائب سود، فنودي منها أن تخير السحاب، قال: فقال: هذه السحابة سوداء، فنودي منها: أن خذها رماداً رمدداً، لا تدع من عاد أحداً. قال: قلت يا رسول الله، والله لبلغني أنه لم يرسل عليهم من الريح إلّا قدر ما يجري من حلقة خاتم[1].

ومن عجائب أرض عاد أن هناك منارة من نحاس عليها تمثال من نحاس، فإذا كانت الأشهر الحرم، سالت ماء في حياضهم[2].

ثم صالح بن عبيد بن جابر بن هود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح عليه السلام. وكان يمشي حافياً، ولا يتخذ حذاءً ولا مسكناً، ولا يزال مع ناقة ربه حيث ما توجهت. وأرسل إلى ثمود ومنازلهم الحجر، وبينه وبين فرح وهو المسمى بوادي القرى ثمانية عشر ميلاً، وبيوتهم منحوتة في الجبال[3]، ورممهم وآثارهم باقية، وقد دخلتها أربع مرات في حجي، فوجدتها[٢٤٦] بيوتاً صغاراً متطامنة الأبواب وبها قبور نقر في الحجر، ولا يزيد طول القبر منها على ثلاثة أذرع، وهذا دليل على أنهم كانوا في مثل قدرنا لا كعاد الأولى.

وكانوا أصحاب إبل، فلما أرسل إليهم صالح قال له زعيم من زعمائهم اسمه

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ١/٩٥ ـ ٩٦.

(٢) البكري، المسالك والممالك: ١/٩٦.

(٣) البكري، المسالك والممالك: ١/٩٧.

جديح ابن عمرو إن كنت صادقاً فأت من هذه الهضبة بناقة سوداء عشراً ذات عرف وشعر ووبر، فسأل الله فتمخضت الهضبة كالحامل وانشقت عن الناقة، ثم أتاها سقياها، فآمن زعيمهم وطائفة منهم وكفرت طائفة، وكان الماء بينهم كما قال الله تعالى لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. وكان ممن كفر تسعة رهط كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ۝١٥٢﴾(١)، وكان ممن كفر قذار بن سالف عاقر الناقة، وكان أشقر أزرق سناطاً قصيراً، ومصيدع بن مهراج مساعده على العقر، وكانا يغشيان قينتين يقال لإحداهما عنيزة والأخرى صدوف، فطلبتا منهما من لحم الناقة، فاستعان قذار ومصدع تسعة رهط ممن كفروا فأتوا الناقة فضربها قذار بالسيف على عرقوبها الأيسر، واستهموا لحمها فلما علم بهم عقلاء ثمود خرجوا إلى صالح متنصلين مما فعله السفهاء فقال لهم: أدركوا فصيلها، فعسى يرجع عنكم العذاب، فلما رأى الفصيل أمه تضطرب صعد جبلاً يقال يسمى القارة، وبقي يئن، وجاءه عقلاء ثمود ليلحقوه، فنظر إليهم فرغا ثلاث مرات، فسابقهم السفهاء فعقروه، فقال صالح: لكل رغاء يوم. فتمتعوا في داركم ثلاث أيام ذلك وعد غير مكذوب. وآية ذلك أن تصبح وجوهكم في اليوم الأول مصفرة ثم في اليوم الثاني محمرة ثم في اليوم الثالث مسودة، فأرادوا قتل صالح، فحال الله بينه وبينهم، فلما أصبحوا رأوا مصداق قوله، فتحنطوا وتكفنوا وصاحوا وبكوا وانتحبوا وجعلوا [٢٤٧] يقلبون أبصارهم في السماء مرة وفي الأرض أخرى، لا يعرفون من أين يأتيهم العذاب. فلما كان في اليوم الرابع وهو الأحد صبحتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وكان صالح قد خرج بمن آمن معه فنزل بمدينة الرملة من بلاد فلسطين(٢).

وقال وهب: أنه ارتحل بمن آمن معه، أهلوا بالحج على قلائص حمر مخطمة بحبال من ليف حتى وردوا مكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا، وقبورهم غربي الكعبة من الحجر ودار الندوة(٣).

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٥٢.

(٢) البكري، المسالك والممالك: ١/٩٨ ـ ٩٩.

(٣) البكري، المسالك والممالك: ١/١٠٠.

وكان ممن آمن معه خباب بن عمرو فقال[1]:

كانت ثمود ذوي عز ومكرمة ... من إن يُضام لهم في الناس من جار
فأهلكوا ناقة كانت لربهم ... قد أنذروها وكانوا غير أبرار

وروى عن رسول الله ﷺ: أن الله أهلكهم بتلك الصيحة أجمعين إلّا رجلاً واحداً اسمه أبو رغال كان في حرم الله، فمنعه الله من العذاب. واليهود تنكر أخبار عاد وثمود[2].

ثم شعيب عليه السلام، وهو شعيب بن عيفي ويقال فيه ابن صيفوت وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام. قال البكري[3]: هو من ذرية مدين بن إبراهيم، وجدة شعيب بنت لوط. وقيل بل من ذرية بعض من آمن به إذا ألقى في النار. وكان عربي اللسان.

قال سعيد بن جبير في قوله تعالى حكاية عما قال قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾[4] قال: ضرير البصر[5].

ويقال له خطيب الأنبياء، بعثه الله إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، وهم من ولد مدين[6].

قال البكري[7]: وملوك مدين أبو جاد، وهو ملك مكة وما يليها، وهوز وحطي ببلادوج وهي الطائف وما اتصل بها من نجد وكلمن وسعفص وقرشت ملوك بلاد مصر وغيرها.

---

(١) البكري، المسالك والممالك: ٩٩/١.
(٢) البكري، المسالك والممالك: ١٠٠/١، ٩٩.
(٣) البكري، المسالك والممالك: ١١٣/١.
(٤) سورة هود، الآية ٩١.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٧٣/٢٣.
(٦) البكري، المسالك والممالك: ١١٣/١.
(٧) البكري، المسالك والممالك: ١١٣/١.

قال ابن خرداذبة[1]: إنه توفي بمكة، ودفن عند المسجد الحرام [٢٤٨] حيال الحجر الأسود. وأوصى إلى موسى عليه السلام. وكان قوم شعيب أهل كفر وبخس في الكيل والميزان، فسلط الله عليهم حراً شديداً أخذ بأنفسهم، ثم بعث عليهم سحابة وجدوا بردها، فلما صاروا تحتها أرسلها الله عليهم تاراً، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]. قال: فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى ويقال أن قومه هم جذام.

وروى ابن لهيعة أن أبا هريرة سأل رجلاً فقال: ممن أنت؟ فقال: من جذام، فقال: مرحباً يا صاحب موسى وقوم شعيب. وإن صح هذا فجذام من مدين من ولد إبراهيم[3].

قال البكري[4]: وزعم قريظة والنضير أنهم من رهط شعيب. قال: ويزعم قوم أنهم من العرب العاربة والأمم الداثرة.

وذكر السهيلي أن من الأنبياء نبي آخر اسمه شعيب بن ذي مهدم، أرسله الله إلى حضور وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾[5] فقتلوه فسلط الله عليهم بخت نصر فاستأصلهم. قال: وقبر شعيب هذا بصبر هو جبل باليمن[6].

* * *

(١) البكري، المسالك والممالك: ١/١١٣ ـ ١١٤، نقلاً عن ابن خرداذبة وقال: قال في تاريخ.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٨٩.

(٣) البكري، المسالك والممالك: ١/١١٤.

(٤) البكري، المسالك والممالك: ١/١١٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٢١.

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ١/٣٨٨ نقلاً عن الشرفي بن القطامي وقال: أرسل إلى بني حصور وهم أمة عظيمة من ولد يافث بن نوح، وكانت منازلهم بالسمارة بين الشام والعراق.

قائمة المصادر

☐ **التوراة،**

- دار الكتاب المقدس، ١٩٨٠م.

☐ **الآجري،**

- الشريعة، مؤسسة الريان، بيروت، ٢٠٠٠م.

☐ **ابن الأثير،**

- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.

☐ **أحمد بن حنبل،**

- المسند، مؤسسة الرسالة، بيروت.

☐ **الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل،**

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

☐ **الأصفهاني، علي بن الحسين،**

- الأغاني، دار إحياء التراث، بيروت.

☐ **البخاري،**

- الصحيح، دار الأرقم، بيروت.

☐ **ابن بطة العكبري،**

- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، تحقيق أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

☐ **ابن بطال،**

- شرح صحيح البخاري، مؤسسة الرشد، السعودية، ١٩٩٩م.

☐ **البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر،**

- الفرق بين الفرق، اعتنى بها الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.

☐ **البكري، أبو عبيد،**

- المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، راندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م.

☐ **البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل،**

- البدء والتاريخ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

☐ **الترمذي، محمد بن عيسى،**

- السنن، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

☐ **أبو تمام،**

- الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة.

☐ **جرير،**

- الديوان، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

☐ **الجوهري،**

- الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت.

☐ **الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي،**

- كتاب الشامل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.

☐ **ابن أبي حاتم، عبدالرحمن،**

- آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق عبدالغني عبدالخالق، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م.

☐ **الحاكم، محمد بن عبدالله،**

- المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت.

☐ **ابن حزم، علي بن أحمد،**

- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.

☐ **الخلال،**

- كتاب السنة، تحقيق عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ١٩٩٤م.

☐ **الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن،**

- السنن، دار الكتب العلمية، بيروت.

☐ **أبو داود،**

- السنن، دار الأرقم، بيروت.

☐ **سبط ابن الجوزي،**

- مرآة الزمان، ج١، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت.

☐ **الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم،**

- الملل والنحل، صححه أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت.

☐ **صاعد، أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي،**

- طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة.

☐ **الصفدي،**

- أعيان العصر وأعوان النصر، دار الفكر، بيروت.

☐ **الوافي بالوفيات، دار فرانز شتاينر بفيسبادن، بيروت.**

☐ **الطبراني،**

- مسند الشاميين، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

☐ **الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ).**

- تهذيب الآثار، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

☐ **ابن عساكر،**

- تاريخ دمشق، تحقيق عمر العمروي، دار الفكر، بيروت.

☐ **العمري، ابن فضل الله،**

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٢، فرانكفورت، ألمانيا.

☐ **أبو الفداء، الملك المؤيد إسماعيل،**

- المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ويحيى سيد، ومحمد فخري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م.

☐ **الفردوسي،**

- الشاهنامة، تصحيح وتعليق عبدالوهاب عزام، دار سعاد الصاح، الكويت، ١٩٩٢م.

- **ابن قتيبة،**
  - المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.
- **ابن كثير،**
  - البداية والنهاية، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.
- **ابن الكلبي، هشام بن محمد،**
  - الأصنام، تحقيق أحمد زكي، مطبعة دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- **اللالكائي، هبة الله بن الحسن،**
  - شرح أصول اعتقاد أهل السنة، دار البصيرة، الإسكندرية، د.ت.
- **ابن ماجة، محمد بن يزيد،**
  - السنن، طبع دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ.
- **محمود محمد شاكر،**
  - مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- **المروزي، محمد بن نصر،**
  - كتاب الصلاة، تحقيق مصطفى حميدة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- **مسلم،**
  - الصحيح، دار الأرقم، بيروت.
- **النديم،**
  - الفهرست، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- **ياقوت الحموي،**
  - معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- **اليعقوبي، أحمد بن يعقوب،**
  - التاريخ، دار صادر، بيروت.



الفهرس

نماذج المخطوطات ١٥

النوع الثاني في الكلام على الديانات: ١٥

الفصل الأول: في الكلام على مبطلي الحقائق ١٩

الفصل الثاني: في الكلام على من قال أن العالم لم يزل وأنه لا مدبر له ٢١

الفصل الثالث: في الكلام على من قال أن العالم لم يزل وله مع ذلك فاعل لم يزل ٢٧

الفصل الرابع: في الكلام على من قال إن للعالم خالقاً لم يزل، وإن النفس والمكان المطلق الذي هو الخلاء، والزمان المطلق الذي هو المدة لم تزل موجودة وأنها غير محدثة ٢٩

الفصل الخامس: في الكلام على من قال أن فاعل العالم ومدبره أكثر من واحد ٣٣

[الملل الأربع] ٣٨

[المجوس] ٣٨

[اليهود] فصل في الكلام على اليهود، وهم خمس فرق كما تقدم ٣٩

[النصارى] ٤٨

[فرق المسلمين] ٨٧

[معجزات الرسول ﷺ] ٨٩

فصل [افتراق الأمة] ٩٥

الفرقة الأولى المرجئـــــة ٩٩

الثاني في أول من ابتدع هذا القول ١٠٠

الثالث في نبذة مما ورد في ذمهم ١٠٠

الرابع في الكلام على فرقهم في الإيمان إذ يتم الكلام فيه ١٠١
الخامس في الكلام على حججهم والجواب عنها ١٠٤
المقام الثاني ١٠٧
المقام الثالث ١١٠
المقام الرابع ١١٢
فصل ١١٤
الفرقة الثانية من الأصول الخوارج الحرورية ١١٥
وسماهم أناس المحكمة والكلام عليهم من وجوه ١١٥
الوجه الثاني: في أول من ابتدع هذا الرأي ١١٥
الوجه الثالث: في نبذة مما ورد في ذممهم ١١٦
الوجه الرابع: في الكلام على فرقهم ١١٧
الفرقة الأولى: الأزارقة ١١٧
الفرقة[٧٨] الثانية: الإباضية ١١٧
الفرقة الثالثة: الصُفْرية ١١٧
الفرقة الرابعة: النجدات ١١٧
الفرقة الخامسة: العجاردة ١١٨
الفرقة السادسة ١١٨
الفرقة السابعة: البيهسية ١١٨
الفرقة الثامنة: العوفية ١١٩
الفرقة التاسعة: الأخنسية ١١٩
الفرقة العاشرة: الميمونية ١١٩
الفرقة الحادية عشرة: الصلتية ١١٩
الفرقة الثانية عشرة: الزيدية ١١٩

الفرقة الثالثة عشرة: الثعالبة ١٢٠
الفرقة الرابعة عشرة: المعبدية ١٢٠
الفرقة الخامسة عشرة: الحفصية ١٢٠
الفرقة السادسة عشرة: الخازمية ١٢١
الوجه الخامس: في ذكر بعض حججهم والجواب عنها مختصراً ١٢١
فصل ١٢٤
فصل ١٢٥
الفرقة الثالثة من الأصول الروافض، ويسمون الخشبية والشيعة ١٢٦
الأول في سبب هذه التسمية ١٢٦
الثاني: في أول من أبدع هذه البدع للروافض ١٢٧
الثالث: في نبذ مما ورد في ذمهم ١٢٧
الرابع: في الكلام على فرقهم ١٢٧
الفرقة الثانية: السليمانية ١٢٨
الفرقة الثالثة: البُترية ١٢٨
الفرقة الرابعة: الكيسانية ١٢٨
الفرقة الخامسة: الكربية ١٢٩
الفرقة السادسة: الكاملية ١٢٩
الفرقة السابعة: البيانية ١٢٩
الفرقة الثامنة: الجناحية ١٢٩
الفرقة التاسعة: المنصورية ١٣٠
الفرقة العاشرة: الخطابية ١٣٠
الفرقة الحادية عشرة: الغُرابية ١٣٠
الفرقة الثانية عشرة: الذمية ١٣٠

الفرقة الثالثة عشرة: الهشامية ١٣٠
الفرقة الرابعة عشرة: الزرارية ١٣٠
الفرقة الخامسة عشرة: اليونسية ١٣١
الفرقة[٨٨] السادسة عشرة: الشيطانية ١٣١
الفرقة السابعة عشرة: السبئية ١٣١
الفرقة الثامنة عشرة: القرامطة ١٣١
الفرقة التاسعة عشرة: الزيدية ١٣١
الفرقة الموفية عشرين: الراوندية ١٣٢
الرابع: في الكلام على حججهم ١٣٢
فصل: وعمدة الكلام منهم في مقامين، أحدهما المفاضلة، والثاني في الإمامة ١٣٢
المقام الأول في المفاضلة ١٣٢
والجواب من وجوه ١٣٣
الوجه الثاني من السنة ١٣٤
المقام الثاني: الكلام في الإمامة ١٣٧
والجواب من وجوه ١٣٧
الوجه الثاني من السنة ١٣٨
فصل ١٤٠
الفرقة الرابعة من الأصول القدرية وهم المعتزلة ١٤٥
الأول: في موجوب التسمية ١٤٥
الثاني: أول من أبدع هذا الرأي الفاسد ١٤٥
الثالث: في نبذة مما ورد في ذمهم ١٤٦
الرابع: في الكلام على فرقهم ١٤٧

الفرقة الأولى: المعبدية ١٤٧
الفرقة الثانية: الواصلية ١٤٧
الفرقة الثالثة: العمروية ١٤٨
الفرقة الرابعة: الهذيلية ١٤٨
الفرقة الخامسة: النَّظَّامية ١٤٨
الفرقة السادسة: الإسوارية ١٤٨
الفرقة السابعة: المعمرية ١٤٨
الفرقة الثامنة: البشرية ١٤٩
الفرقة التاسعة: الهشامية ١٤٩
الفرقة العاشرة: المردارية ١٤٩
الفرقة [١٠٣] الحادية عشرة: الجعفرية ١٤٩
الفرقة الثانية عشرة: الإسكافية ١٥٠
الفرقة الثالثة عشرة: الثُّمامية ١٥٠
الفرقة الرابعة عشرة: الجاحظية ١٥٠
الفرقة الخامسة عشرة: الشَّحامية ١٥٠
الفرقة السادسة عشرة: الخياطية ١٥٠
الفرقة السابعة عشرة: الكعبية ١٥١
الفرقة الثامنة عشرة: الجُبَّائية ١٥١
الفرقة التاسعة عشرة: البهشمية ١٥١
الفرقة الموفية عشرين: الصالحية ١٥١
الفرقة الحادية والعشرون: الخابطية ١٥٢
الفرقة الثانية والعشرون: الجهمية ١٥٢
الفرقة الثالثة والعشرون: الجبرية ١٥٢

الخامس من الكلام عليهم، وهو الدفع لآرائهم الفاسدة ١٥٣
فصل ١٥٧
الفرقة الخامسة من الأصول فرقة أهل السنة ١٥٩
النوع الثالث في الكلام على طائفة المتدينين ١٦٣
اختلف الناس في حدوث العالم وقدمه والحق حدوثه لا قدمه ١٨٢
قائمة المصادر ٢٩٣
الفهرس ٢٩٩